

مها حسن
مترو حلب
رواية
التنوير

مها حسن

مترو حلب

الكتاب: مترو حلب - رواية
المؤلفة: مها حسن
عدد الصفحات: 256 صفحة
الطبعة الأولى: 2016

الترقيم الدولي:
رقم الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - ستر كريستال، الهزيم - الطابق الأول -
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
مصر: القاهرة-وسط البلد-19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) -الدور 8 - شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

مها حسن

مترو حلب

رواية



أمي، ينبوع السرد.

حين اتصلتُ بتلميذة التمريض النازحة في بيت أمي، رحنا نتبادل الرسائل عبر الواتس آب لأطمئن على أمي بعد أن انقطعت شبكة الهاتف الأرضية، سألتني زينب: ماذا تشتغلين في باريس؟ أجبتها: أنا كاتبة. قالت لي: كفّي عن المزاح، بجد، ماذا تعملين؟ أجبتها: أنا لا أمزح، أنا كاتبة. قالت: أنت تكذبين أو تسخرين مني، من أنتِ لتكوني كاتبة.

تلميذة التمريض التي تكتب لي عبر الواتس آب، وتستخدم الوسائط الحديثة، لم تستوعب، أو لم تتقبّل، أن تكون أنا، ابنة المرأة التي تساعدها، كاتبة. فالكتابة بالنسبة إليها مهنة أكبر من أن تكون عملاً يمارسه أناس تعرفهم. بل هي ليست مهنة، إنما شيء أُعطي لفئة من البشر لا يمكن لها أن تلتقي بهم. زينب قرأت أسماء كتّاب في مناهج التعليم، لكنها لا تعرف، أو لم تفكّر، كيف أصبحوا هكذا. هذا أمر لا يعرفه الناس البسطاء أمثال زينب، ولا أمثالي أيضًا، من وجهة نظرها... إلا أنّ أمي، التي لم تذهب يومًا إلى المدرسة، ولا تعرف ماذا يوجد داخل كتبنا، لا تكفّ عن التباهي بي، وتُعلن: ابنتي كاتبة.

استطاعت أمي بطريقتها السحرية، التي لا أُجيدها، إقناع الصبيّة النازحة في بيتها، بكلمات بسيطة. نعم، وصدّقت أنني كاتبة، ولديّ كتب منشورة... صدّقت زينب أمي. أمي التي لا تعرف القراءة

والكتابة، ولا تدرك معنى أن يهدي أحد كتاباً لأحد... إلا أنها حين تتحدث عني تقول: ابنتي كاتبة.

إلى أمي، التي لن تقرأ هذا الكتاب لسببين: الأول، أنها لا تقرأ، لكنني كنت أنتظر صدور الكتاب، حتى أخبرها بإهدائه لها، فألمح ذلك البريق في عينيها، بريق الزهو بنفسها، إذ طالما كررت على مسامعي، بفخر تحاول إخفاءه، حين أسألها عن تفصيل حدث ما مرّ في العائلة: تكتبين عني؟ أما السبب الثاني، فهو أن أمي اختارت طريقة روائية للرحيل عن الحياة. وأنا أكتب هذه الرواية، وكأنها أحد أبطال ماركيز، أقنعتني بأنها ذاهبة لاستخراج جواز السفر، لتغادر حلب، بعد سقوط القذيفة على بيتنا هناك، وهي في داخله، متشبثة حتى آخر لحظة بعدم مغادرته، إلا أنها، وهي التي كانت تكرّر أمام كل من يعرفها: أموت في بيتي أفضل من التشرد في بلاد الآخرين، أذعنت للرحيل. عادت أمي من دائرة الهجرة والجوازات، لم تأكل من شدة التعب وصعود سلالم الدوائر الرسمية، أنهت صلاتها، وشكت من ألمٍ في معدتها، وحين عادت اعتماد من المطبخ بفنجان اليانسون، اعتمادُ الصبية التي آوت أمي في بيتها، وجدت أمي قد غادرت الحياة. ماتت في البيت القريب لبيتها، كي تُدفن هناك.

إلى أمي، معلّمتي في السرد إذاً، ومعلّمتي في اختيار النهايات... أكتب هذه الرواية.

الفصل الأول:

6 نوفمبر 2015 ـ نهارًا

قبل الساعة السابعة

ثلج كثيف... أحاذر ألّا أسقط وأنا أتجه صوب موقف الباص. أخاف ذلك العبث الذي يقوم به بعض الحمقى، قد يرميني أحدهم بكرة ثلج مداعبًا، حتى لو لم يكن يعرفني، فالثلج يتيح فرصة لبعض الشباب لمازحة الفتيات خاصة حتى لو لم يكنّ راغبات، وسيختل توازني أنا المصابة بعُصاب الانزلاق، فأسقط.

يجب ألا أسقط. سأتماسك. خطوة، جيّد، خطوة ثانية، ثالثة... هيّا، بحذر.

ولكن لماذا لم يفرشوا الأرض بالملح؟

أفّ، أنتِ في حلب. هذه ليست باريس. لماذا تعتقدين دائمًا أنك في باريس رغم أنك لم تذهبي إليها يومًا؟

صوت المترو يأتيني هنا في الساحة، ترتجّ الأرض، وأرى كتل الثلج تهوي من شرفة بيت أبو فيصل. ولكن هل بيت أبي فيصل موجود في باريس؟

هذا ليس مترو... إنها شاحنة محمود بمحرّكها الكبير المكشوف، تهزّ الأرض حين تصل.

أكره هؤلاء الصبية، أحدهم يسدّد في اتجاهي كرة ثلج. يا إلهي، هذا ما أخشاه، إنني أسقط.

ولكن أما من أحد يمسك بي؟ إنني أنزلق... فقدت السيطرة على جسدي. سقطت حقيبة يدي مني، نقودي وهاتفي وبطاقة المترو.. لكن أنا في حلب! أنزلق... أمدّ يدي عسى أن يمسك بي أحد ما. أصرخ، ساعدوني... أوقفوا سرعة اندفاع جسدي المنزلق... أكره التزلج... سينكسر حوضي.

أوقفوني... هاتوا حقيبة يدي، هاتفي، بطاقتي المصرفية...

أتعرّق وأصرخ من الغضب والخوف...

رن رن رن

منبّه الساعة السابعة إلا ربعًا.

رنّ في وقته.. أفتح عينًا واحدة... أنا في باريس!

أنهض من السرير فورًا، أفكّر أنه عليّ طرد هذا الحلم الخبيث، أحلامي التي تحاول إقناعي دائماً بأنني لست في باريس.

أحضّر القهوة، أفتح جهاز الكمبيوتر، أدوّن حلمي قبل أن أنساه.

الجمعة، السادس من نوفمبر 2015... الحلم رقم 55.

لدي كتابان أدوّن فيهما: **كتاب المنامات**، لأتأكد أنني في باريس، و**كتاب الحرب**، لأتذكّر أنني لست في حلب.

في مناماتي، أجدني في الغالب في حلب. أما في منامات باريس، أشعر في الغالب بأنني في أجواء الحرب. لا أستطيع إبعاد الصور التي

تنقضّ عليّ بمجرّد أن أسمع فرقعةً أو اصطداماً. وحين تعبر طائرة، لا أستطيع منع نفسي من تتبّعها حتى تغيب عن ناظري، وتلتصق بمخيلتي تلك الصورة: ستسقط الآن، ستسقط فوق البيوت، سنموت جميعنا.

حين تغيب الطائرة عن بصري، أفرح كأنني نجوت من خطر أكيد.

يوم شاهدت الاستعراض العسكري على شاشة التلفزيون، في اليوم الوطني الفرنسي، خفق قلبي من الخوف، وبقيت في حالة هلع تعذّبني: ماذا لو سقطت الطائرة على الناس؟

لا يمكنني أن أبعد عن رأسي صور الطائرات وهي تقصف المدنيين في حلب. صرت أشعر بالخوف من مرور الطائرات فوقي، أو من مجرّد سماع أصواتها.

أدوّن في كتابَيْ المنامات والحرب، فقط لأذكّر نفسي أنني أعيش في باريس، وأن الحرب في حلب، وليس العكس.

أحتاج دائمًا إلى التأكيد على المكان، لأنني أنسى وأخلط. كلما أردت القول: نلتقي في باريس، أقول نلتقي في حلب. عندما أتحدث مع أمي في حلب كثيرًا ما تصحّح لي.

باريس تنزلق محل حلب في كلامي، وحلب أيضًا تأخذ مكان باريس.

هذا ليس مرض الألزهايمر، فأنا لا أزال شابة على الألزهايمر.

أُسمّي مرضي: خلل المنافي.

أنا في باريس. أكرر هذا كل صباح لنفسي، كي أنتبه إلى مكاني.

أدوّن حلمي إذًا في كتاب المنامات كأنني في حلب، بينما أنا في

باريس، وأعرف أنه لا جدوى، رغم كل التأكيدات التي أقولها لنفسي في اليقظة لأذكّر نفسي بأنني أعيش في باريس. الليلة، سأجدني مجددًا في حلب، وستقول لي تلك الأنا الأخرى: لم تكوني يومًا في باريس.

أكتب في كتاب المنامات: هل أعيش في باريس وأحلم أنني في حلب، أو أنني في حلب، وأتخيل أنني في باريس؟ ولماذا باريس حصرًا وليس نيويورك أو مدريد أو لندن؟ إذًا أنا في باريس، طالما أنني لا أتخيل أي مكان آخر، أقول لنفسي أنا لا أتخيّل إذًا، أنا في باريس.

أنهض عن الأريكة. أنظر من الشرفة. أضع الحاسوب في حضني وأكتب ما أرى:

TABAC

LUCIEN CHASSEUR

BRUNO COIFFEUR

ANNE ET MARIO

VIA ROMA PIZZERA

GRANDE PHARMACIE

في الأسفل، تحت زاوية الشرفة، أرى مدخل العمارة يتوسّط محلّين، واحد لتصليح الأحذية، وآخر لتصليح الملابس، ثم أرى المقهى، ومن بابه تخرج صبية تحتضن خاصرة شاب، يتبادلان القبل ثم يسيران متعانقَيْن في الاتجاه ذاته الذي أسلكه دائمًا صوب المترو.

إذًا، أنا في باريس.

ولكنني حتى في اليقظة، أتخيّل أحيانًا أنني أحلم.

يخيل إليّ أنني حين سأخرج من باب المبنى، سأجدني في الجميلية أو باب الفرج. أو حين سأغادر المترو وأصعد تلك السلالم فوق الأرض، سأجدني في ساحة سعدالله الجابري أو في ساحة الجامعة.

لهذا أكتب. أحاول عبر الكتابة أن أساعد عقلي على إدراك ذلك الخط الفاصل، بين حلب وباريس.

أما في كتاب الحرب، فأحاول أن أكتب كل ما يساعدني على أن أقنع نفسي أن الحرب تحدث في سوريا فقط، ولن تصل إلى هنا، إلى سريري، سوى في الأحلام.

بدأت فكرة الكتاب، حين عرضت عليّ خالتي اصطحابي في إحدى حالات صحوها إلى المتحف الحربي في لو بورجيه[1]، استغربت اقتراحها. لكنها لاحظت توتّري حين أرى طائرة في السماء، ويشتدّ توتري عند مرور إحدى المروحيات.

قالت خالتي إن خوفي من الطائرات ناتج عن صدمات صنعتها الحرب في سوريا، وإن الطائرات التي أراها في سماء باريس ليست موجّهة لقتل الناس، بل لمساعدتهم، وإن ما يحصل في سوريا هو أمر لا يحصل هنا ولا في أيّ مكان في العالم.

لا أنسى الذعر الذي أصابني وأنا في مطار بيروت في طريقي إلى باريس. خطرت لي مرات عدة الهروب من المطار والعودة إلى حلب. كان أبي برفقتي، وكنت أخجل أن أبدو أمامه كطفلة جبانة تخاف من الطيران. كانت قدماي ترتعدان وأنا أنظر إلى الطائرات في صالة الانتظار، وأرى أجسامها الضخمة من خلف الزجاج، وأتصوّر نفسي في إحداها بعد قليل. كانت الرحلة جحيماً حقيقياً، حين وجدتني بين شابّين، أحدهما لبناني والثاني مغربي. تبادلنا كلمات سريعة قبل الإقلاع. كان اللبناني يسافر مثلي لأول مرة، وكان يشعر بالخوف. حين قال له المغربي، الذي بدا ذا خبرة بالسفر: فات الوقت، هاهي الطائرة تتحرّك. بدا كأنه شامت به. أنا حاولت أن أتماسك

(1) Le Bourget

وأدّعي اللامبالاة. قلت لها إنني أفضّل النوم أثناء السفر، لأتهرّب من الحديث، في حين أخذ الشاب المغربي يداعب اللبناني وهو يحكي له عن حوادث الطيران: لا تقلق، لن نشعر بألم، سنسقط في الماء غالبًا، وتأكلنا الأسماك.

كنت أغمض عينيّ متظاهرة بالنوم، ويصلني صوت الشاب اللبناني يتمتم بآيات قرآنية ليهدّئ توتّره وخوفه. كدت أتقيأ مرات عدّة، ليس بسبب خوفي فحسب، بل أيضًا بسبب خوفه الذي بدا مُربكًا لي. رغبت لو أفتح عينيّ وأصرخ به، أو أن أطلب من المضيفة أن تبدّل مكاني. لكنني كفتاة عاقلة ورصينة، تصرّفت وفق ما ينتظره الآخرون مني، وتابعت تظاهري بالنوم.

لقد بذلت خالتي جهودًا متنوعة لتفصل بين رؤية الطائرة وفكرة الحرب في رأسي، تمامًا كما اجتهدت لإبعاد الخوف والرَّهبة من رؤية رجال الأمن والبوليس في فرنسا. جرّتني من يدي لترينى طائرة الشرطة التي يتدلى منها مسعفون وأطباء.. كان ثمة جريح محمول عبر حبال متينة، ملفوف بعناية، ليتم نقله وإسعافه. يا إلهي، الطائرات في بلدي تقتل الناس، وهنا في هذا المتحف، أراها تنقذ حياة الناس. كنت أخجل أن أقول لخالتي، إن أحد أسباب خوفي من العودة إلى سوريا، هو اضطراري لركوب الطائرة مرة ثانية.

استغرق الأمر طويلًا، منذ وصولي إلى فرنسا، لأكف عن الشعور بالذعر حين أرى رجلًا أو امرأة من الشرطة. لم أتوصل حتى الآن إلى الربط بين الأمان الذي يحققه رجال ونساء البوليس هنا، وبين سلب الأمان الذي يتسبب به (البوليس) في بلدي. أكثر منظر كان يرعبني، هو أولئك الرجال الذين يرتدون لباسًا مدنيًا وتظهر على خاصراتهم

مسدسات كبيرة يتقصّدون وضعها بطريقة سافرة. أما هنا فكنت أرى بعض المدنيين مع الشرطة، لكن لا مسدسات ظاهرة أو وجوه عابسة ينزّ منها التخويف.

بخطوات مرتعدة وبحذر، اقتربت من الطائرة الحربية في جناح طيران الحرب العالمية الثانية، بينما تقدمت خالتي أمامي بخطوات عادية ونظراتها تشي باطمئنان مَنْ يخرج في نزهة. داخل عقلي الواعي، أعرف أن هذه الطائرات هي أجسام ميتة الآن، وأنها لن تتحرك، فهي محبوسة في غرف مسقوفة، ولكنني في العمق، لم أستطع أن أبعد عن رأسي التهيؤات المخيفة.

حين وقفت خالتي قرب الطائرة ، لَمَستها لتشجعني، ثم قالت: هيا اقتربي، المسيها. رأيت نفسي طفلة وخالتي تعمل على إقناعي أن ألمس القطة التي كانت في بيت جدّي، وكنت أخاف منها.

بعد إصرار من خالتي، ورغبة مني في تجاوز خوفي، لمست الطائرة. وطلبت من خالتي أن تلتقط لي صورًا وأنا أعانق جسدها.

وأنا ألتقط الصور مع الطائرة ـ الخصم، كنت أفكّر أن هناك طائرات لطيفة، كما هو حال القطط أو الكلاب.

منذ وصولي إلى فرنسا، لم ألتقط صورًا في الأماكن الشهيرة هنا، لم أتصوّر في الشانزليزيه، ولا قرب برج إيفل، ولا في حديقة اللوكسمبوغ، ولا حتى في ساحة السوربون... التقط أصدقاء خالتي لي صورًا معها ومعهم مرة واحدة، حين تناولنا العشاء في مطعم في سان جيرمان. أما عدا هذا، فلم أستجب لطلبات أختي وصديقاتي في إرسال صور لي من باريس. لم أشعر يومًا أنني هنا للاستمتاع بالوقت والتقاط الصور والتسوّق. كنت أريد أن أستمر في العيش كأنني أعيش في حلب، وأن مجيئي إلى هنا إنما كان في مهمّة اختارتها لي خالتي

ولا أعرف لماذا وقع خيارها عليّ أنا. أفكّر في كل يوم أنني سأعود غدًا إلى سوريا.

كنت أعيش حالة المنوَّم أو الحالم. لم أكن واثقة إن كنت فعلًا هنا أو هناك.

لم أكن أعرف أي شيء. حتى في الدوائر الرسمية: في دائرة الهجرة، وفي المصرف، وفي البريد، حين يسألونني عن اسمي، أصمت للحظات وكأنني أفكّر أو أتذكّر. حتى اسمي لم يكن بديهيًا بالنسبة لي.

كان عليّ مثلًا، التأكيد لنفسي في كل ليلة أذهب فيها إلى التواليت، حين أستفيق من النوم، أن التواليت هنا يقع على يمين الفراش مباشرةً، أو الأريكة لاحقًا، وأن خطوات قليلة كافية لتوصلني إليه. وأنه ليس عليّ الخروج إلى الصالون، ثم قطع الممر صوب التواليت، كما في خريطة التنقل في بيتنا في حلب.

لفترة، كان عليّ في كل مرة أنهض فيها للذهاب إلى التواليت، خاصة في الليل، تصحيح طريقي والعودة قبل الوصول إلى باب الغرفة المُفضي إلى الخارج، حيث الممرّ الذي يؤدي إلى المصعد.

هناك الكثير من التفاصيل، التي كان عليّ التعرّف إليها: الأشخاص الجدد ـ المسائل الإدارية ـ اللغة الفرنسية...

حتى الآن، أقول: (مرحبًا)، ثم أتدارك فأقول: (بونجور).

كل هذه التفاصيل التي أملّ من تكرارها، تجعلني في حالة عدم ثبات في المكان والزمان. أسير وأتصرّف وأفكر طيلة الوقت، كأنني هنا بالخطأ، أو أنني نسيت أمرًا ما خلفي. في السابعة من كل صباح، أتذكّر أن رولا لن تمر عليّ بعد قليل. ولطالما شهقت مستغربة أنني لست في العمل داخل مكتبي في البلدية في حلب.

كما لو أنني تركت سارة الأصلية هناك. لا تزال تذهب إلى العمل،

وتمارس حياتها في حلب، وأنا التي هنا لستُ سوى نسخة تمّ نسخها لمدة محدّدة ثم يعود كل شيء إلى الأصل. لا أعرف كيف أصف هذا. كأنني هناك، كأن حياتي هناك، وعليّ أن أعود بأسرع وقت.

إحساس يشبه ربما شعور الأم التي تترك طفلها وحده، فتخرج لإنجاز عمل سريع والعودة قبل أن يستيقظ. أو المرأة التي تركت الطعام على النار، وخرجت لأمرٍ عند الجيران أو لدكّان قريب، وستعود سريعًا. أو أنها تركت الغسيل يدور في الغسّالة، وستعود مع توقيت توقّف الماكينة... مثل كل هؤلاء، أشعر بأنني تركت أمرًا معلّقًا، أو نسيت أمرًا ما، أو فقدته، وعليّ أن أعود إليه.

خرجت من سوريا بفيزا مدتها ثلاثة أشهر، وإجازة من عملي لمدة شهرين. سافرت في زيارة إلى خالتي. زيارة قصيرة أعود بعدها، لكنني لم أعُد.

أنا هنا رغمًا عنّي. يمكنني العودة ولا يمكنني في الوقت نفسه. كلما قلت لأهلي إنني سأرجع صرخوا بي ألّا أفعل. كأنني أرتكب حماقة، تصرخ أمي: إيّاكِ.

حتى إن أبي خلال مرضه الأخير كان يصرّ عليّ أن أبقى: ستسرّعين في موتي إن عُدتِ.

كان عليّ أن أبقى. أمضي أيامي بين رأسي هناك وجسدي هنا. كأنني في حافلة وسأنزل في المحطة القادمة. هكذا هي حياتي منذ عامين، أنتظر العودة، أركب هذا المترو الباريسي، وأحلم بالنزول في محطة حلب.

كما لو أن فرنسا هي المكان الطارئ، الموقت، الإسعافي، الذي جئت إليه، وأنتظر انتهاء الحرب لأغادره. فرنسا كلها الآن، بالنسبة لي، مجرد فندق أو مشفى أو جسر بين جبلين، محطة هنا أنتظر فيها

القطار الذاهب إلى بلدي هناك... أنتظر استعادة حياتي. إعادة نسخة ساره إلى الأصل. أنتظر أن تنزلق قدمي في كل لحظة فرنسية، لتأخذني إلى حلب.

في إحدى جلساتنا ونحن نحتسي النبيذ، تحدثت إلى خالتي عن إحساسي باللااستقرار والتأرجح.

ضحكت خالتي وراحت تحكي لي عن لذة التأرجح.

الساعة الثامنة

إنها الساعة الثامنة. عليّ إنهاء قراءة بعض ما تمّ تجميعه من الصحف، لأدوّن الفصل الجديد من كتاب خالتي.

أجل، جئت إلى باريس من أجل خالتي.

خالتي التي عرفتُ بوجودها فقط في اليوم الذي أعلمتني فيه أمي برغبتها في أن تراني، وسقط عليّ الخبر كالصاعقة. ربما يكون ذلك الحدث الصاعق هو ما جعلني أنوس بين الحلم والواقع... خالتي!! أيّ خالة؟ لم أسمع يومًا بوجود أخت لأمي في مكان ما من العالم غير تلك التي ماتت وهي طفلة! فما الذي يجعل خالتي تظهر فجأة في الحياة، بعد ثلاثين سنة من عمري.

قالت أمي واجمة في ذلك النهار:

ـ خالتك في وضع صحي سيئ، بين الحياة والموت، أمنيتها الوحيدة أن تراكِ قبل أن تموت.

كان عليّ في تلك اللحظة، أن أستوعب أولًا عمن تتحدث أمي، قبل استيعاب علاقتي بالأمر. وقفت مذهولة أنظر إليها بعينين وسّعتهما الدهشة:

ـ خالتي؟ أنا عندي خالة؟

ـ نعم، لقد أخفينا ذلك عليك، لأنه جرح قديم، حاولت العائلة نسيانه. لم نتصوّر أن ينفتح لكن... نعم، لديك خالة تعيش في فرنسا، مصابة بالسرطان، وتتمنى أن تراكِ.

أحاول أن أفهم كل تلك الأخبار التي انفجرت دفعة واحدة: لدي خالة، وتلك الخالة مصابة بالسرطان، ثم إن تلك الخالة المُصابة بالسرطان تعيش في فرنسا، وعليّ أن ألبّي آخر رغباتها قبل الموت، بأن أذهب إليها في فرنسا لتراني.

لم يخطر في بالي يوماً الذهاب إلى فرنسا، ولم تكن زيارة باريس لتخطر لي حتى في الأحلام. بل لم تكن فكرة السفر وترك أهلي وحلب وحياتي هنا واردة في قاموسي.

منذ فترة ونحن في حلب نعيش يوميًا سيلًا من الأخبار الجديدة والغريبة، أخبار يحتاج أحدنا إلى سنوات يعيش معها، ليكون قادرًا على فهمها وتقبّلها، ثم ها هي دفعة من الأخبار الأكثر غرابة تأتيني دفعة واحدة.

نعم، دفعة واحدة عرفت بوجود تلك الخالة التي لم تكن موجودة في حياتي، وعرفت أن تلك الخالة مريضة وتعيش في فرنسا، وعرفت أن اسمها أمينة... وعندما عرفت ذلك شعرت فعلاً بأنني في أرض لزجة، قدماي تكادان تنزلقان بي، هل هذا حلم أم واقع؟

ـ أمينة؟ لكن هذا اسمك يا أمي؟

سألت أمي ونظرات الدهشة والحيرة في عينيّ المتلتنين بأسئلة لا حصر لها.

كنت أستغرب أن الجميع ينادون أمي باسم أمينة، بينما في السجلات الرسمية: دفتر العائلة ـ وثيقة الزواج ـ شهادة الميلاد، اسمها هدهد..

كانت أمي، عندما أسألها عن السبب، تقول: تعرفين لدى أغلبنا اسمان، واحد نُنادى به ، وآخر في السجلات. ثم شرحت لي أن أمينة هو اسم أختها التي ولدت قبلها وماتت وهي طفلة، وحين وُلدت هدهد، أعطوها ذلك الاسم في الأوراق، وظلوا ينادونها أمينة، حباً ووفاء لذكرى ابنتهم التي خطفها الموت.

قالت أمي:

- نعم، هو اسمها... وهي لم تمت... لا تنتظري مني أن تكون عندي إجابة على الأسئلة التي في بالكِ... كانت قد ماتت بالنسبة لنا... ولم نتوقع عودتها إلى العائلة... القرار لكِ... ولن يجبركِ أحد.

وصمتت وقد غصّت بكلماتها.

القرار لي في ماذا؟ في قبول انبعاث خالة لي من العدم! ومصابة بالسرطان! وتريد رؤيتي أنا من دون جميع عائلتها! وهي لم ترني ولا تعرف عني أي شيء، وأنا أيضًا لا أعرف عنها سوى أنها ماتت قبل مجيئي إلى الحياة، عليّ الآن أن أقرر... ماذا أعرف عن الأمر لأقرر؟

حالة من الوجوم والحيرة سيطرت على البيت. قالت سوسن مازحة حين رأتني عاجزة عن اتخاذ القرار:

- اعتبري الأمر نزهة... سياحة... اذهبي، تعرَّفي إلى الخالة الغامضة، اسمعي قصتها، وهي فرصة للسياحة في باريس... فتاريخ سفرك سيصادف مع الأعياد، ستحضرين أعيادًا لم يسبق لك أن رأيت ما يشبهها، اذهبي وتفرّجي على عالم مختلف، ألم تملّي من أصوات الطيران والقصف وانقطاع الماء والكهرباء؟ من جهتي، لو أن هذه الخالة وجّهت إليّ الدعوة، ما ترددت لحظة في الذهاب

إلى باريس.. ثم أيضًا ربما تلتقين برجل أحلامك هناك... فأنت لا يعجبك العجب.

كنت أستمع إلى كلمات سوسن من دون أن أفكّر فيها، لذلك لم أردّ بأنني لا أشتاق إلى زيارة باريس، ولا يشغلني البحث عن «أمير الزفت». بل كنت أتساءل فعلًا: لماذا أنا بالذات؟ لماذا تدعوني خالتي، ولماذا لم تدعُ أختي؟ أو لماذا لم تدعُنا معاً؟

تردّدت في اتخاذ قراري، لكنني وافقت، بعد تفكير، وتحت ضغط أهلي، وحماسة سوسن التي قالت:

- دعينا نشرع في إجراءات الفيزا، ثم تقررين على مهلك إن كنت سوف تسافرين أم لا.

وأعلنت أنها مستعدة لمرافقتي إلى بيروت للتقدم بطلب الفيزا لدى السفارة الفرنسية في بيروت. وهكذا سافرنا أنا وسوسن إلى بيروت.

بعد أيام قليلة، اتصلوا بي من السفارة الفرنسية في بيروت، ليخبروني أن الفيزا جاهزة، وأنها تبدأ من السادس عشر من نوفمبر، ولمدة ثلاثة أشهر.

ولأن عيد ميلادي يصادف السادس عشر من نوفمبر، اعتبرت الأمر بمثابة هدية، قبلتها. بل اعتبرت الأمر بمثابة إشارة سماوية. هكذا فكرت لأقنع نفسي وأتجاوز تردّدي.

هكذا تقدّمت بإجازة من دون مرتّب لمدة شهرين، وكنت أعتقد بأنني على الأغلب لن أبقى لهذه المدّة.

ظلت الخالة التي ظهرت فجأة في حياتي بمثابة اللغز... فمنذ ظهورها، دخل شيء جديد في حياتي، شيء يشبه العيش في حلم. كنت كأنني لا أعرف فعلًا إن كان ما يحصل معي حقيقة أو أنها قصّة خيالية.

في الطائرة كنت أفكر بتلك الخالة التي لم يكن لها حتى صورة لدى العائلة.

عندما رأيتها في المطار، بدت لي امرأة مرهَقة، تستدعي الشفقة... تعاطفت معها، بل شعرت بالذنب لأنها تكلفت عناء المجيء إلى المطار لاصطحابي.

حين وصلت إلى مسكنها، هذا الذي أقيم فيه الآن، شعرت بها يشبه الدوار، وكأنني على عتبة الإغماء وفقدان الوعي. كنت أنظر إلى صورها القديمة المعلّقة على الجدران، وأحاول أن أقنع نفسي: هذه لست أنا!

فاجأني الشبه المذهل بيننا، حين كانت في سنّي الآن... الفم ذاته، حين تضع إحدانا حمرة الشفاه خاصة، يبدو الفم على شكل حبة فريز، الشفة السفلى ممتلئة قليلًا، وعلى عكسها الشفة العليا رقيقة... ثم الشعر الأسود الطويل حتى الخاصرة، وعيناها السوداوان الواسعتان ورموشها الكثيفة... هذه أنا... لا، هذه خالتي في صباها.

كيف يمكن لامرأة لم ترَني ولم أرَها يومًا، أن تشبهني، أو أشبهها، إلى هذا الحد.

تملك أختي سوسن عينين زرقاوين كعينَي أمي، ولأخي سمير عينان بنيّتان كعينيّ أبي، أما أنا، فكنت لا أشبه أحد والديّ... يا إلهي كيف أشبه خالتي أمينة إلى هذا الحد؟

أف، إنها الساعة العاشرة، الوقت يمر سريعًا، يجب أن أستحمّ وأجهّز نفسي للخروج.

حسنًا، إنها العاشرة والنصف، أنا أسرع امرأة في العالم في ارتداء ملابسها. فأنا لا أجفف شعري حتى، ولا أضع الماكياج. فقط

أستعمل بعض العطر، شانيل، ماركتي المفضلة. رغم فقري، أحرص على شراء زجاجة الشانيل كل شهرين مرة. المهم، أرتدي ملابسي العملية، بنطال الجينز الأسود مع حذاء بساقَيْن عاليتين سوداوين، معطفي الأزرق وشالاتي المتعددة. غرامي فقط في الشالات. شالاتي موزعة في الغرفة كأنها ستائر في كل مكان: أحمر، أزرق، أخضر، أصفر، زهري، بني، فضي.. لا أحب ألوان الملابس الزاهية، أرتدي الأسود والفضي والبني غالباً، لا أضع طلاء أظافر ملون، إما الأبيض الشفاف أو البيج، لا أستعمل الأقراط والأساور والقلادات... لكنني مهووسة بالشالات الملوّنة وحقائب اليد الكبيرة، الملونة أيضًا، بل غالبًا أحاول التنسيق بين لونَيْ الشال الذي أضعه وحقيبة اليد.

العاشرة وخمس وأربعون دقيقة. ربع ساعة من البيت حتى المترو...

أسكن في شارع دي دام[2]... أحتاج إلى ربع ساعة من البيت حتى محطة مترو بلاس دو كليشي[3].

أحب ساحة كليشي، هنا كان يقيم هنري ميلر. وكتب روايته المعروفة (أيام هادئة في كليشي). في هذا المقهى الذي أرتاح فيه حين يكون لديَّ بعض الوقت قبل أن أتوجّه صوب المترو، أو أثناء خروجي. حين أشعر بالعطش الشديد، أتوقف في مقهى فيلبر وأحتسي كوباً من البيرة المنعشة، وأتخيّل ميلر وأنابيس نين.

حسنًا، عليَّ الاستعجال قليلًا، سآخذ الخط الثالث عشر، إذا كان ثمة مكان للجلوس، أجلس وأتابع تدوين كتاب خالتي، أما إذا كان المترو مزدحماً، فسأقرأ وأراجع ما كتبته.

---

(2) Rue Des Dames
(3) Place de Clichy

يجب أن أكون في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف في جادة جورج مانديل[4].

المترو لن يستغرق أكثر من عشرين دقيقة على الأكثر، لكنني سأسير من التروكاديرو صوب بيت ناتالي... حيث أعطي دروس اللغة العربية يومَي الجمعة والأحد، لماغالي وماكسانس.

ثمة مكان في المترو، هذا رائع.

أجلس، أفتح الأيباد.

أمامي أربع محطات حتى أبدّل في ميرومينيل لآخذ الخط رقم 9.

أحاول تفريغ التسجيلات التي تركتها خالتي. سبق وأن نقلت التسجيلات الصوتية من جهاز التسجيل إلى الأيباد، الآن فقط أنقل تلك الأحاديث لأحوّلها إلى مادة مكتوبة.

أشتغل من دون تفكير، كأنني آلة، أفرغ كلامها المسجَّل في الأيباد، لأعيد كتابته وتنقيحه لغويًا في وقت لاحق.

أرادت خالتي أن أكتب قصة حياتها وأنشرها بعد موتها.

تقول خالتي:

قد يخطر في بال أحدهم، حين يهمّ بقراءة هذا الكتاب الذي ستدوّنه ساره من تسجيلاتي، أنه سيعثر على ما يشبه الاعترافات. الاعترافات التي تتّسم غالبًا بالندم، أو بالمراجعة، حيث ثمة فاصل بين زمن حدوث الحكايات وزمن التحدّث عنها. فاصل يبدو وكأنه إعادة لرؤية الحكاية من زاوية جديدة. كأنها هي ليست إعادة نظر فقط، بل محاكمة.

لأبدأ إذًا بنسف هذه التصوّرات: أنا أحب كل ما عشته. ولو

(4) Georges Mandel

قُدّر لي عَيشه مجددًا، لعشته كما هو. لست نادمة على أي شيء. الحدث المهم في حياتي، أو المنعطف، كان موافقتي على المغادرة مع جيرار. حين تركت سوريا، فتحتُ بابًا جديدًا في حياتي. إن الحياة الثرية التي عشتها هنا، تستحق كل ما تركته من أوهام عاطفية ساذجة يحياها البشر هناك، أو على الأقل يحياها الذين عرفتهم وعاشرتهم.

كان يوم مغادرتي لسوريا بمثابة المقص الذي بتَرَ حياتي هناك. لتنبعث من جديد هنا. بل إنني أجرؤ على القول إن أمينة تلك، ليست أمينة هذه.

فكرت في تغيير اسمي بعد سنوات من عيشي في فرنسا. لكن جيرار رفض. وكان محقًا. تغييري لاسمي لا يعني التأكيد على أنني امرأة مختلفة. الاختلاف ليس في حمل اسم ما، بل في الإحساس الداخلي.

النساء الغريبات، أو الأجنبيات القادمات من بلاد أخرى، تتحدثن عن الحنين، عن الذكريات، عن الأحلام أو الكوابيس التي تداهمهنّ، وأنا أستغرب كلامهنّ. أنا لم أشعر يومًا بهذا الحنين، ولم يكن لديَّ الوقت للانشغال بعالمي القديم. نعم، لقد اعتبرَتْ عائلتي أنني متّ منذ مغادرتي البلاد، وأنا في المقابل، قتلتهم جميعًا في حياتي. قتلت عائلتي، وقتلت أصدقائي، وقتلت ذكرياتي. قتلت المكان القديم في داخلي، ومحوت داخلي من كل آثار السنوات القليلة التي عشتها هناك. لقد عشت في فرنسا أكثر مما عشت في سوريا. بل إنني إن حذفت السنوات الأولى قبل الوعي، فإن حياتي الواعية، الناضجة، بدأت هنا، في فرنسا. أنا فرنسية، أشعر بهذا بعمق، ويخيّل إليّ أحيانًا، أن ثمة من سرقني من فرنسا، وأخذني إلى سوريا، ثم استعدت حياتي الحقيقية حين غادرت.

أما الحديث عن المنفى والصداقات المتروكة هناك والعائلة، فهذا ما يجب بتره من دون النظر إلى الوراء لأنه تعبير عن الضعف البشري والخوف من المواجهة وحيداً. أنا لست امرأة عادية. أنا فنّانة. وهبني المسرح تلك الطاقة الهائلة لأشعر بأنني بمثابة إلهة هاربة من جبال الأولمب، من امبراطورية زيوس، لأُحيي طقوس الأولمب في باريس في القرن الحادي والعشرين.

لم أندم في لحظة على أنني تركت سوريا، بل كنت أضحك على حماقاتي هناك. حماقات من نوع ذلك الزواج الغبي، فقط لأحصل على رجل ثري يحقّق لي أحلامي القادمة في تأسيس مسرح مستقل.

كان وجودي في سوريا كارثيًا لو استمر. لم يكن بإمكاني تحقيق ذاتي كما فعلت هنا في فرنسا. لقد خُلقت في المكان الخطأ، وصحّحت ذلك الخطأ بتأبّطي ذراع جيرار، وتجاهُل كلام العائلة.

قالت أمي: أتبرّأ منك إن ذهبت... وبكى أبي. لكني لم أهتم. حين تحدثت أمامهم لأجسّ نبضهم بصدد رغبتي بالرحيل، وقفوا ضدي. ولكنني حين قررت، لم أقلْ لأحد، ولم أودّع أحدًا، حتى صديقاتي في المعهد.

صديقاتي؟ نعم، هي أيضًا غواية وهمية. أنا لا أؤمن بالصداقة، كما لا أؤمن بالحب، كما لا أؤمن بالعائلة، كما لا أؤمن بالوطن... أنا لا أؤمن إلا بالفن. وبناء على إيماني هذا، بالفن، أنا فرنسية. لأن هذه البلاد حققت لي أحلامي وطموحاتي كممثلة.

حين كنت أصعد إلى خشبة المسرح، كنت أنسى نفسي. أنسى أمينة. أتجرّد من كل هويّة. يصبح الفنّ هويتي، هوية عالمية بالقدر الذي تقدم فيه المتعة والفن والجمال للعالم.

أنا مهووسة بالمسرح، المسرح هو عائلتي: أمي - أبي - زوجي - ابني - صديقي، بل إلهي ووطني.

لقد عشتُ هنا حياتي المسرحية. وهبني المسرح الفرنسي ذلك الثراء الفاخر. منحني ترف أن أكون عدة نساء في وقت واحد.

عشتُ أكثر من أربعين حياة في حياة واحدة. حين كنت أذهب إلى المسرح بغرض إجراء التمرينات على دخول حياة جديدة، ديدمونة، كورديليا، جوكاستا، إيستل، برناردا ألبا...

أدّيتُ حياة أكثر من أربعين امرأة. صدّقت حياة كل منهن وأنا أتماهى بها، وأضع أمينة جانباً. إن متعة أن تنبش التاريخ العظيم، أن تنقل بطلات شكسبير وموليير وسارتر ولوركا... إلى خشبة المسرح في باريس، لتستعيدها في قالب جديد من المتعة والجمال، أمر لا يضاهيه أي شيء آخر، لا العائلة ولا الصداقة ولا الحب ولا الوطن.

أن أكون امرأة أخرى، في كل عرض مسرحي، أن أجدّد وجودي في الكون، بملامح وصور وانفعالات مختلفة، هو ثراء وهِبة من الطبيعة وحظّ لا يقدّره إلا من يقف على المسرح، ويصبح شخصًا آخر.

أنا فرنسية لأنني أحقق شخصيّتي، شغفي بالمسرح في فرنسا، لأن هذا المكان يحتمل التجريب، والخطأ، المحاولة، الفشل... أنا هنا، لأنني أحسّ بحرّيتي، أفشل حين أريد، وأنجح حين أريد.

أما عن اللغة، فهذه من المرات القليلة، منذ جئت إلى فرنسا، التي أتحدث فيها بالعربية. وأنا أفعل ذلك فقط من أجل ساره التي لا تعرف الفرنسية. أتحدّث بالعربية لأن ساره تهمّني، ويهمّني أن تصل حكايتي لها. يهمني أن تفهمني ساره فقط. هي وحدها التي لم أستطع التخلّص منها من ماضيَّ.

في محطة فرانكلين روزفلت، رفعت رأسي عن شاشة الأيباد، فقد هزّتني عبارة خالتي وأثارت تساؤلاتي حول أهمية أن أفهمها، فمَن أنا بالنسبة لها، ولماذا لم تستطع التخلّص مني؟ وما إن رفعت رأسي حتى جذبني ذلك الشاب الذي يضع سماعات الأذنين ويسمع الموسيقى منفصلًا عن العالم. بدا مثلي، لكنه أكثر جرأة مني، إذ راح يرقص لوحده، كأنه في غرفته، في تلك المساحة الفارغة بين المقاعد الشاغرة وباب المترو.

كان يتوقف عن الرقص للحظات، كأنه يراجع درسًا، فيستحضر حركات معقَّدة، يتأملها وكأنها معادلات رياضية، يهزّ جذعه بالتوازي مع حركة كتفيه ورأسه، وذراعه اليمنى، ثم اليسرى... تساعده غرّته الطويلة المصبوغة بالأحمر، دونًا عن بقية لون شعره، في الانفصال عمّا حوله، إذ لا يرى إن كان الناس ينظرون إليه ويرونه، أم لا. تلك الغرّة، كانت بمثابة ستارة حمراء، تفصله عن الآخرين، حتى يبدو أنه ينسى التفكير إن كان ثمة من يراه من خلف الستارة.

تجلس إلى جواري صبية تقرأ في كتاب ولا ترفع رأسها عنه... قبالتي، تجلس صبية مستغرقة في حل أحاجي من الرسومات والصور... أما قرب الباب المجاور لساحة رقص الشاب، فقد وقف عاشقان يتبادلان القبل بحميمية من دون أن يهتما بالراقص.

أنا في فرانكلين روزفلت! لم أنتبه أنني نزلت في ميرومينيل وأخذت الخط رقم تسعة.. أتنقل في المترو من دون تركيز، هذا خطّي منذ أكثر من سنة، لن أضيع فيه.

رحت أتفرَّج على الشاب الراقص الذي حرّك أحلامي لتظهر

أمامي... كنت أشبه ببطل عزيز نسين، الذي كان يخجل من رفع صوته لينادي بالبيع، فيذهب إلى الوادي ويتمرّن على الصراخ. انتابني إحساس بالضعف... ما الذي ينقصني لأفعل مثله؟ هل هو الخجل أم نقص الثقة بالذات.

لا يمكنني ادّعاء الخوف من أمّي، فهي بعيدة الآن ولن تعاقبني إن رقصت، أو غنّيت.

ليس الرقص ما يهمّني، إنّها الغناء.

ماذا لو أنني أنهض بغتة، وأتحدّث إلى الركاب؟ أتذكر أن أبي كان حين يثمل، كان يتحدث بصوتٍ جهير، ويلقي الشعر الممزوج باحتجاجاته وتعريفاته لنفسه، ثم يغنّي لصباح فخري.

ماذا لو أنهض الآن وأحدثهم بالفرنسية:

Mesdames, Messieurs, je suis Sarah. Je viens d'un pays éloigné, en guerre maintenant: cadavres, têtescoupées et maisonsdétruitessurses habitants. Je suisici, je maîtrise la danse. Regardez comment danse la fillevenant de la guerre lointaine.

سيداتي، سادتي... اسمي ساره. أنا قادمة من بلاد بعيدة، حيث تقع الحرب الآن: جثث ورؤوس مقطوعة وبيوت مهدَّمة على سكانها. وأنا هنا أجيد الرقص. انظروا كيف ترقص الفتاة القادمة من حرب بعيدة.

ثم أربط خصري بغتة، وأخلع حذائي في المترو، وأرقص، وأنا أغني، على أنغام أغنية راقصة، لتكن لمحمد حماقي: «طب واحدة واحدة...».

سينظر إليّ الركاب باهتمام، ستغلق الصبية التي إلى جواري كتابها وتهتم لكلامي ولرقصي، وستكفّ الفتاة الأخرى عن حل الأحاجي، وسيتابع العاشقان تبادل القبل، ثم يصفق لي الجميع. هؤلاء الذين

يفكّرون مثلي بخطر الحرب، الذين يشاهدون نشرات الأخبار عن الحروب البعيدة عن بلادهم، في سوريا والعراق وليبيا واليمن ومالي وغيرها من الأماكن، هؤلاء المنحدرون من أجيال قديمة عرفت الحرب. هؤلاء الذين يرون الحرب دماءً وقتلًا وقصفًا وطائرات تخلّف الجثث والخراب، سيصفّقون لفتاة تحلم بالرقص في المترو، وتحلم بالغناء. فتاة خجولة، جبانة، تحاول الاختباء في أريكة خالتها، حتى لا يعرفها أحد، تقرر في لحظة غواية مباغتة، نزع غطاء الخجل والخوف، وتقديم صورة غير مألوفة عن بنات بلاد فيها حرب. فتاة تتحدث الفرنسية بلكنة الأجانب، لا تبكي وتتوسّل، ولا تطلب المال أو المساعدة، بل على العكس، تقدّم ما يمتع البصر والسمع. ترقص وتغني بالحلبية. سوف يصفقون لي، وربما يأخذ أحدهم لي الصور ويتداولها في مواقع التواصل. ربما أتحوّل فجأة، بلحظة جريئة، إلى ساره المشهورة في باريس. الفتاة التي جاءت من الحرب، لتغني في مترو باريس، وتتحدّث عن حلب...

ما الذي أخشاه؟ ما الذي ينقصني لأنهض وأفعلها. حتى لو لم يهتموا لأمري أكون قد استمتعت كما يفعل هذا الشاب الشجاع الذي يرقص ولا يرى أحدًا. لماذا أخاف من الآخرين؟ هؤلاء الذين لا يعرفونني، ستنتهي علاقتي بهم بعد محطّتين أو ثلاث، حيث سأنزل. لماذا لا أفقأ دمّلة السنين من الرغبة المكبوتة في الغناء. لماذا لا أفعلها الآن، في باريس، مدينة الجنون، ومدينة الفنون... ما أجبنك يا ساره، ممَ تخافين أيتها الجبانة؟

أمي ليست هنا لتضربني وتملأ فمي بالفلفل الحارّ.

في عرس بنت عمة لوركا. كنت مع أمي وعمتي وسوسن. دعتني

البنات للغناء، فصديقاتي وبنات العائلة يقلن دائمًا إن صوتي يشبه صوت أسمهان. ألحن عليّ أن أغني، رفعت أمي حاجبيها، وراحت نظراتي تتنقّل بين أمي وجمهوري من الفتيات. كانت عمتي تضحك وتقول: اتركي أمك لي، هيا لا تخافي، اسمعينا صوتك المخملي. كنت راغبة وخائفة... وفي لحظة الإصرار والضحك تخليت عن خوفي...

«إيمته هتعرف إيمته، إني بحبك أنت...».

تعالى التصفيق، والقبلات الضاحكة من البنات يرسلنها إليّ، ومديح من النساء المترافق مع الآهات، وغمز ولمز، وأمي تنظر إليّ بتأنيب ووعيد. وأنا أستمر في الغناء على الرغم من معرفة ما ينتظرني الليلة في البيت. كنت في حالة من الاستمتاع تفوق كل المخاوف المنتظرة.

ونحن نغادر، رجوت عمتي أن تأتي معنا.

تدخّلت عمتي وقالت لأمي: «إذا بتضربيها بزعل منك، خلص، مضّينا وقت حلو وانبسطنا كلنا، لا تطالعي البسط من عيوننا ها».

هزّت أمي رأسها واعدة عمتي ألّا تعاقبني.

ما إن وصلنا إلى البيت، حتى أمسكت بي من شعري، وراحت تضربني. ثم دهنت فمي بالفلفل الحار حتى أتذكر ذلك الألم كلما فكرت بالغناء: أذبحك إن غنيت أمام الناس.

لم أكن أفهم سبب ذعر أمي ورفضها لغنائي.

جاءتني عدّة طلبات للزواج بعد ذلك العرس: «البنت التي تغني مثل أسمهان... صاحبة الصوت الجميل».

في حفلة تخرج لوركا، لم أستطع رفض طلبه أن أغنّي معه. صعُب عليّ رفض طلبه وإحراجه أمام أصحابه، في ليلة مهمة كتلك، وهو

يحتفي بنجاحه. انصعت لرغبته وكنت متيقّنة أن أحدًا لن يخبر أمي. غنيت معه دويتو: «ليه تلاوعيني وأنت نور عيني».
أحسّ بمتعة هائلة في الغناء أمام الناس، وأنسى أمي وحرقة الفلفل الحادّة في فمي.
الآن، في هذه اللحظة، تنتابني رغبة قوية، لأن أنهض وأغني: «أنا في سكرين». أغنية أبي، كلما ثمل، يغنيها ويرقص على موسيقاها.
وصلتُ إلى التروكاديرو. يجب أن أنزل من المترو.
أشعر برغبة في البكاء، حزينة من هذه الإعاقة النفسية، التي تقف حائلًا بيني وبين رغباتي. لديّ كل الحرية لأفعل ما أريد، لكن إعاقتي الروحية، حيث تجلس أمي والماضي، لمنعي من تحقيق أحلامي، حتى في هذه السن التي وصلت إليها.
الآن عليّ السير صوب المبنى رقم 59 جورج مانديل.
أحب ساحة التروكاديرو، أو فناء حقوق الإنسان. المكان المزدحم دائمًا بالفرنسيين والسيّاح. تتحوّل ساحتها أحياناً إلى منصّة لعروض الشارع، وتشتهر بإحياء التظاهرات.
أخرجت علبة سجائري من محفظة يدي، رغم أنني أشعر ببعض الألم في بلعومي وسعلت في الليل، لكنني أحب التدخين في الشوارع المزدحمة، في الشتاء خاصة، أشعر بدفء إنساني غامض يجتاحني، وأحس أن كل هؤلاء الناس أقاربي. أحس بانجذاب غريب إلى البشر في الزحام. أحسّنا كتلة واحدة. والتدخين يمنحني إحساسًا فائضًا بالاسترخاء والأمان والدفء الإنساني.
ها أنا أصل إلى المبنى رقم 59، أضغط الكود، أقفل هاتفي. ساعتان من العمل مع ماغالي وماكسانس. لقاء خمسين يورو..

أزورهم ليومين أي مئة يورو في الأسبوع، مبلغ جيد للتسوّق والعيش. إضافة إلى ساعتين في الشهر مع توما، حيث نلتقي كل أول جمعة من الشهر، عند السابعة مساء... لقاء خمسين يورو أيضًا. وهكذا أجني 450 يورو من عملي في تدريس اللغة العربية.

ماغالي تبدو حالمة على الدوام، أعاني من جذب اهتمامها للدرس. أخترع الألعاب لتعليمها الحروف وتركيب الجمل. أحضّر لها الأغاني بالعربية، أحضّر قصصًا صغيرة. يُتعبني عدم تركيزها. تقول ناتالي: «لا تنزعجي، المهم أن تتعلم ابنتي فكرة الالتزام بحصة اللغة العربية، حتى إن لم تتعلم الكثير، يهمّني المبدأ. انظري إليّ، أنا لا أعرف القراءة أو الكتابة بالعربي، مع أنني عربية الأصل». أما ماكسانس فهو ذكي ويحب اللغات. يلتقط بسرعة الكلمات الجديدة ويطرح أسئلة مثيرة للتفكير.

أحيانًا تجلس ناتالي معنا في غرفة الأولاد، حيث أعطيهم الدرس، وحين أتركهما دقائق ليحلّا التمارين، تثرثر ناتالي معي بالعربية. ترتكب بعض الأخطاء، تمامًا كما أرتكب الأخطاء بالفرنسية.

تطلب مني في نهاية الدرس أن أبقى قليلًا لتسمع معي فيروز، وتقول إنها تحب كثيرًا فيروز وصباح. لكنها لا تفهم كل الكلمات، وقد سألتني اليوم عن «كبوش التوتة».

اقترحت عليّ ناتالي أن أعطيها دروسًا خاصة مستقلة عن طفليها، خجلت من إعطائها تلك الدروس المستقلة، لم أرد أن أتقاضى منها مبلغًا إضافيًا. عرضت عليها حضور دروس الأولاد. لكنها تريد تقنيات مختلفة، كأن نشاهد فيلمًا عربيًا معًا، ثم نتناقش فيه، وأطرح عليها أسئلة ونحلل الفيلم، لترى مدى فهمها، ونكتب العبارات

الرائجة التي نسيتها، فهي تعيش هنا منذ أربعين سنة. كانت في الخامسة، حين غادرت بيروت.

دروس اللغة العربية هي جسري صوب الآخر في فرنسا، جسري المهزوز.

أكثر الطلاب الذين أعطيتهم دروسًا في اللغة العربية، لا يعرفون عن العالم العربي أي شيء تقريبًا. معرفتهم سطحية ومنمّطة. هذه الدروس هي فرصتي للتعرف على الفرنسيين، أو الفرنسيين من أصول عربية، الذين يجهلون تمامًا العالم العربي، كجهلنا نحن، أهل حلب خاصة، بعالم الباريسيين الذي بدأت بالتعرف إليه خطوة فخطوة، ولا أزال أشعر بالارتجاج النفسي والغربة.

الساعة الثالثة عشرة والنصف

صارت الساعة الواحدة والنصف. تقدمّ لي ناتالي الخمسين يورو. تضعها في ظرف كما في كل مرة. أودّعها على موعد اللقاء في الغد.

أغادر المبنى رقم 59، أفتح هاتفي في الطريق إلى المترو وأنا أدخّن مجدداً، فالتدخين في بيت ناتالي ممنوع، ولا أحب الخروج إلى الشرفة وترك ماغالي وماكسانس.

بدأت رسائل الواتس آب تظهر تباعًا على شاشة هاتفي:

ـ أختي: صباح الخير... زوج خديجة وصل إلى ألمانيا، وزوج شيرين صار في اليونان... حبيت أطمنك، البارحة ما نمنا نحن الثلاثة لوجه الصبح، كل الوقت عم نحكي عالتلفون...

ـ أخي: اليوم مقابلتي مع دائرة الهجرة، ادعيلي...

ـ هالا: بعرفك بالدرس... أنا مع هنادي، عاملة ملوخية، خلّصي وتعي.

- توما (باللغة العربية مع بعض الأخطاء): أنا سفر جديد إلى بيروت... أعود الشهر الديسمبر.

طارت الخمسين يورو لهذا الشهر!

لم أتابع الرسائل، وصلت إلى المترو، وضعت هاتفي داخل الحقيبة، تبدأ الرسائل الصوتية لموظفي شركة المواصلات والقطارات والمترو، بضرورة الانتباه على أغراضنا خشية السرقة. أسمع الآن الرسالة التالية:

Mesdames et Messieurs, nous vousinformonsque des pickpockets circulentdans la station de métro.

أيها السيدات والسادة، نحيطكم علمًا بأن اللصوص ينتشرون في محطة المترو

كالعادة، إذا كان يوجد مكان للجلوس، أجلس وأتابع تفريغ كتاب خالتي على الورق، أما إذا كان المترو مزدحمًا، فأقرأ وأراجع ما كتبته.

المترو مزدحم بشدّة في الظهيرة، لم أتمكن حتى من فتح الأيباد. الناس يتلاصقون. هذا زحام لا أحبه، هنا يكاد الواحد منا يختنق، ويشعر بضآلته أمام الحضارة التكنولوجية. المترو يلتهم إنسانيتنا. رائحة العرق قوية ومزعجة. الناس متوتّرون. البعض ينفخ ويتأفف، والبعض يستمع إلى الموسيقى وينفصل عما حوله. لم أتمكن من القراءة في الزحام. كتبت رسالة سريعة إلى هالة على الواتس آب، أخبرتها أنني متعبة، وطلبت أن نلتقي مساءً في شاتليه. حاولت التفكير بالخمسين يورو التي طارت مني هذا الشهر بسبب سفر توما. كيف سأتدبر أمري؟ المال الذي أحصل عليه من دارلين يكفيني فقط لتسديد إيجار

الغرفة. ونقود الدروس أخصّصها للعيش. في كل شهر أعيش أزمة حاجتي إلى مئة يورو إضافية على الأقل.

أعوّل على توما، ليس فقط من أجل الخمسين يورو في الشهر، وهو مبلغ مهم بالنسبة لي، ولكن أيضًا على علاقاته ليرشّحني لإعطاء دروس اللغة العربية. ففي آخر مرة، تلقى اتصالًا من يان، قال لي بعد انتهاء المحادثة مع يان: «هذا عظيم، يان أيضًا يرغب ببعض الساعات لتعلّم اللغة العربية». يان أستاذه في معهد الصحافة الدولي، ويفكر في الذهاب إلى سوريا... أف... ما هذا الحظ... لديّ إيميل توما، هل أكتب له فأذكّره؟

نعم، خطرت ببالي فكرة، سوف أكتب له من باب المداعبة، وهكذا أذكّره بيان لكي يعطيه رقمي ليتصل بي. سأخبره مجددًا بخلطي المضحك بين ساحة الأوبرا في باريس وساحة الحديقة العامة في حلب.

حكيت لتوما ذلك في أول لقاء بيننا، ضحك كثيرًا وأنا أتكلم.

تخيّل يا توما، لو أننا الآن في حلب.

لا أعرف لماذا كلما جئت إلى ساحة الأوبرا، تخطر في بالي الحديقة العامة. أحب الجلوس هنا، التدخين على الدرج بحريّة كنت أشتهيها في حلب.

لكن في حلب، الدرج يأتي بعد الساحة، تنزل منه إلى الحديقة، هنا في الأوبرا، أنت تصعد ثم تدخل المسرح.

في الحديقة، تستطيع أن تصعد الدرج، ولكن من داخل الحديقة، تصعد الدرج فتغادرها.

أحب ساحة الحديقة، حيث عربات غزل البنات والذرة المشوية

أو المسلوقة والبوشار... هنا، الحضارة مختلفة، صبايا وشبّان يلتقطون الصور ويستلقون تحت الشمس الساطعة... يدخّنون ويحتسون البيرة أحيانًا... لماذا يذكّرني هذا بذاك؟ لا أعرف الإجابة يا توما، أنت تضحك، وأنا لا أفهم ما الذي يضحكك... ألا تعرف أن الحديقة العامة أيضًا من تصميم مهندس فرنسي؟

لم أتابع الكلام في ذلك اليوم عن الأماكن التي أمرّ بها في باريس، فأشعر بأنني في حلب، وأنني أسرق حلب. أضعها في حضني، وتمد رأسها من حين لآخر، لتقول لباريس: أنا أيضًا مدينة، كنت مكتظة بالبشر والحب قبل أن أصير الآن ركامًا وأنقاضًا ودمًا وكوابيس.

فجأة طفر الدمع من عينيّ، هذا التراث السيئ من الضعف العاطفي. ينظر إليّ بعض الركاب، صبية وحبيبها يتبادلان القبل، حين رأت البنت دموعي، ابتسمت لي. كم أكره الظهور بمظهر الضعيف الذي يستحق الشفقة.

نفضت رأسي بكبرياء وهمست لنفسي: لن أبكي، لن أبكي... ستعود حلب كما عادت باريس... باريس أيضًا كانت قد تحولت إلى أنقاض يومًا ما.

رسالة من السائق عبر مكبرات الصوت:

En raison d'un malaise d'un voyageur, le traficestralentisurl'ensemble de la ligne. ... Merci de patienter

بسبب أزمة الركاب، حركة المرور تتباطأ على كامل الخط... أشكركم على صبركم.

أنتظر في الزحام... نصف ساعة من توقّف المترو وتعرّق الركاب والتأفف وهواتف ترن وثرثرات وأجهزة لسماع الموسيقى في الآذان.

ما أجمل هذا! أسمع صوتاً يتحدّث بالكردية. أنقّب عن صاحب الصوت وسط الزحام. أرى شابّين وسط الزحام، تفصلني عنهما الكثير من الأجساد. لكنّي أراهما، أميّز لغتهما عبر الضجيج. هذه اللغة التي لا أعرفها، لكنني ألتقط اهتزازاتها في قلبي. أميّزها من بين عشرات بل مئات اللغات واللهجات.

الشابان تركيان على الغالب. فأنا أسمع بعض الكلمات التركية أيضًا. نقلاني إلى (قطمة)، إلى حضن (زكّو)، جدة لوركا.

حين ذهبت مع عمتي في عطلة الصيف، وكنت في الثانوية أستعد لامتحانات البكالوريا. وقعت في حب زكّو. سخرت أمي مني لاحقًا: أنت تحبين العجائز، لأنك عجوز مختبئة في جسد شابة.

في طفولتي حين كنت أسمع لوركا يتحدّث الكردية، كنت أغضب من كلامه معنا بالكردية، حين نلعب، هو وسوسن وأنا. وكنت أقول له: كفّ عن التحدث بتلك اللغة، فنحن لا نفهم تلك اللغة الأجنبية. وكان لوركا عنيفًا وعصبي المزاج في طفولته، فيروح يركل كل ما حوله، خاصة حين أقول عن لغته إنها أجنبية، ويصرخ بي: هذه ليست لغة أجنبية، هذه الكردية، لغتي!

كنت بعيدة عن عالم لوركا الكردي. بل كنت بعيدة عن لوركا وكل عالمه. ولكنني حين عرفت بقصة الحب السرية بينه وبين سوسن، اضطررت للتقرّب منه، حين نخرج معًا، حين أرى نظراتهما، حين تحدثني أختي عنه، عن ولعها به. بدأت صورة لوركا العنيف والعصبي تتغيّر تدريجيًا.

كنت أندهش من سوسن وكيف يحمّر وجهها عندما يحدّثها لوركا بالكردية، فأشعر بأنني داخل فيلم أجنبي، تمثّل فيه أختي قصة غرامية. صرت ألاحظ تحوّلها حتى صرت أظن أنني لا أعرفها.

مرة ردّت سوسن على لوركا بالكردي وهي تنهي حديثهما على الهاتف. حاولت حفظ العبارة التي قالتها له (آز تا حازدكم)[5]. ثم راحت سوسن تكررها، إلى أن تمنيت أن أحبّ شابًا كرديًا ليوم واحد فقط، لأقول له تلك الجملة، بالرقّة التي كانت سوسن تنطقها.

عندما ذهبنا إلى القرية، فوجئت بعالم آخر داخل العالم الذي نعيش فيه. القرية في سوريا، وليست في بلد آخر أو قارة أخرى. كيف يعيش هذا العالم بيننا، ولا نعرف عنه أي شيء؟

وقعت في حب زكية، التي يسمونها زكّو، جدة لوركا. كانت تعاملني كطفلة، ترمي في حضني التين المجفف والجوز. أكلت هناك أطباقًا لم أذقها من قبل. تعرفت على (البستيك) أو (البسطيق)، وصرت أستمتع بطريقة غامضة بالموسيقى الكردية.

أغمضت عينيّ لبرهة في المترو، على أنغام الصخب والامتزاج اللغوي، الفرنسية مع التركية مع الكردية وثمة عربية من دون شك، ووجدت نفسي أسبح في بيت زكو المليء بالحنان والتين والجوز والبسطيق. شعرت كأنني أحلم وأنا واقفة وسط الزحام، ويأتيني من بعيد، صوت موسيقى تشبه عزف البزق الحزين.

قال لي لوركا حين تحدثنا عن الموسيقى، إن حدسي الفني أقوى من منطقي وعقلي الجامدَيْن، كما كل البشر. إن الموسيقى هي السر، حين تجذبنا إلى شعب ما، أو شخص ما، أو ثقافة ما، فهي الدليل الصحيح.

كان لوركا، مثل أكثر شباب القرية، وبعض البنات، يعزف على البزق. يا إلهي كيف كان لوركا يصبح كائنًا مجنونًا حين يعزف ويغنّي بالكردية. كأنه مسكون بالعشرات من الجن، يحمرّ وجهه وتنتفخ

---

(5) Eztehezdkam

عروق رقبته، ويفتح فمه فتظهر أسنانه وبلعومه. يبدو مجنونًا فعلًا ويستحق وصفي له بـ(دينو)[6]، يتقافز ويخبط قدمه ويهزّ رأسه ويمدّ ذراعيه حاملًا البزق كأنه يهبه للعالم، أو كأنه يهب العالم الموسيقى، أو كأنه يمتزج بالحرية التي يثيرها حوله حين يعزف ويغنّي ناسيًا العالم وكل ما حوله. كنت أتفرج على لوركا يغني مع ستير (ميللي، دردو..)، أو يؤديان دويتو أغاني شفان وكليستان، فأحسّ فعلًا أنني غبية وأجهل العالم حولي.

في (قطمة)[7] تعرفت على (استير) ابنة عمّ لوركا، التي كانت عائدة من السويد في إجازة سنوية، وهي دكتورة في علوم اللغات الشرقية، وتعزف البزق والغيتار والعود.

كانت استير تكبرني بأكثر من عشر سنوات، لكنني أحسست برغبة غامضة في التماهي مع هذه المرأة الحرّة، تغنّي وتضحك وترقص متى تشعر بهذا، لا تهتم برأي من حولها، وكانت تُعامَل بالحب ذاته، من زكّو، كأنها طفلة. زكو منحتني الحب ذاته الذي منحته لحفيدتها، وكانت كلما ترى إحدانا تقول بفرح: Ezqurbanatebim[8]

ما أمتع تعطّل المترو، وتلك الأصوات التي أعادتني إلى قطمة وحضن زكو وذكرياتي مع لوركا، الذي صار في ما بعد، عرّابي الروحي ومخزن أسراري.

يتحرّك المترو. يشكرنا السائق على صبرنا.

أصل إلى بلاس دو كليشي في الساعة الرابعة عشرة والنصف،

---

(6) Dino

(7) قرية كردية تابعة لمحافظة حلب.

(8) لأكن قربانك، أو فداءك.

في الطريق إلى البيت، أتوقف عند المخبز، أشتري الخبز (الباغيت)، ثم أمرّ على المخزن العربي، أشتري برتقالًا وليمونًا وبندورة وفليفلة وبيض.

في الطريق، أنقر الخبز كالفئران... أُحدِث تجاويف في طرف الباغيت، وأكاد أشبع قبل الوصول إلى البيت.

الساعة الخامسة عشرة

أصل البيت.

أغيّر ملابسي، أجهّز طعام الغداء: بيض مقلي مع مرتديلا وبندورة وفليفلة خضراء وشاي. أنا كسولة في إعداد الطعام، أو لأكن أكثر دقة، لا أجد دافعًا للطهو وتحضير الطعام لنفسي. حين كانت خالتي على قيد الحياة، كنت أطهو، وكانت تحب نَفَسي في الطبخ كما تقول، وتضيف أنني ورثت شيئًا من مطبخ جدتي. (المدرسة واحدة)، أجيب خالتي: «طبخ جدتي يعني طبخ أمي، يعني طبخي..».

كنا نتبادل الطهو. حين تكون في وضع صحي جيد، تقوم هي بإعداد الطعام. خالتي تطبخ على الطريقة الفرنسية، لقد تعلمت منها بعض الأكلات.

حسنًا... أحضر الطعام وأضعه على الطاولة قبالة الأريكة، فأنا أمضي أغلب وقتي هنا، حين أكون في البيت، الأريكة - السرير، مفتوحة غالبًا، لا أغلقها إلا حين يزورني أحد. منذ وفاة خالتي، لم يدخل أحد البيت، سوى دارلين التي تحضر لي كانيل، وغالبًا لا تدخل، ترن الجرس في الثامنة، تترك الصغيرة وتمضي.

هنا على هذه الأريكة أقضي ساعاتي. أحضر حاسوبي وأكتب

هنا، وأقرأ هنا، وأراسل الأصحاب عبر الفايسبوك والإيميلات من هنا... وأحيانًا أشاهد الأفلام من هنا.

طاولة المكتب الصغيرة، نادرًا ما أستعملها.

كنت أستعملها حين كانت خالتي هنا...

كانت تحتل الأريكة بسبب وضعها الصحي، وكنت أمدّ فرشة على الأرض في الليل، وأطويها في النهار، لأضعها في زاوية الشرفة.

البيت مؤلف من غرفة واحدة مع حمام ومرحاض وشرفة صغيرة، أستعملها فقط للتدخين، حين كانت خالتي هنا، أما الآن، فإنني لا أفتحها تقريبًا.

أتناول طعامي وأنا أتفرّج على التلفزيون... وأدخّن بمزاجي.

أفتح على محطتَيْ العربية والجزيرة...

الأخبار تركّز على إرهاب داعش، حادثة تحطّم الطائرة الروسية في مصر. الحديث عن الإرهاب الإسلامي يعني الحديث عن سوريا، وعن الغارات الجوية على مدينة الرقة، معقل داعش كما تصفها نشرات الأخبار.

ثمة ضجيج في البناية، إنه بعد ظهر يوم الجمعة الممهّد للإجازة واللقاءات العائلية. في الطابق الرابع، تسكن سيدة جزائرية، وضعت اليوم صباحًا ورقة داخل المصعد تعتذر فيها مسبقًا عن الضجيج الذي سيحدثه ضيوفها القادمون للاحتفاء بعيد ميلاد ابنتها التي تبلغ اليوم عامها الخامس..

ضجيج متوقَّع، الباب، في الشقة التي تحتي مباشرة، ينفتح وينغلق عدة مرات، يصلني صوت المصعد ينفتح وينغلق بشكل متكرّر، وموتّر للأعصاب.

تذكّرني طقوس الجيران، بيوم الجمعة في حلب.

أرسل إيميلًا لتوما، أتمنى له سفرًا موفّقًا إلى لبنان، وأذكّره بأن يكلّم صديقه يان.

أشعر بتعب مباغت وبرد. أسحب غطاء الصوف الملوَّن الذي أحبه. أضع رأسي على المخدة، جهاز كونترول التلفزيون بيدي، أقلّب بين الجزيرة والإم بي سي والسكاي نيوز..

أشعر بالخَدَر. هذا يعني أنني سأغفو. تنتابني هذه الحالة قبل النوم، وتشلّ حركتي وعقلي. أعرف أنني سأنام ولا أستطيع النهوض.

تختلط صور وجُمَل في رأسي، لا أعرف من أين تأتي. تصلني كشذرات. جمل مبتورة، وصور مقطوعة. بل تأتيني كأنها أشلاء. تغزو رأسي صور غريبة، يختلط فيها العنف بالسخرية. عيون تحدّق بي، ووجوه غريبة، وجمل قصيرة، وموسيقى... كأنني أولّف فيلمًا غرائبيًا من دون معنى ولا أي تسلسل يربط بين الصور.

أتأرجح، أحسّ بالخدر، أشعر به بشدة... أحسّ بأن المكان يمشي بي، وأن الكنبة تدور. أستسلم، وأعرف أنني صرت على العتبة. أستسلم للمرحلة القادمة. سأغفو. لكن عقلي يرى كل شيء. أحلم لو أنهض لأكتب ما أتذكّره للتو. أسمع خالتي تحدّثني بوضوح، أحلم بأنني أكتب. أرى العنوان وسط الصفحة: لذة التأرجح. أحسّ كما لو أنّ عقلي في تلك اللحظة يعود قادرًا على اتخاذ قرار أو توجيه أوامر منطقية، فهو يقول لا تنسي، اكتبي هذا حين تستيقظين. ثم يقول أنت لم تنامي، أنت تكتبين الآن. وأروح أكتب في عقلي... أكتب وأنا مستلقية ومغمضة العينين. الأريكة تسير بي، وأنا أكتب... أكتب ما قالته خالتي وأنا أذهب صوب العتبة:

منذ طفولتي، اكتشفت لذة التأرجح. حين كنت ذات يوم في

أرجوحة بيت جدتي آمال، في بيتهم العربي القديم في حي الميدان، نصب لي أبي أرجوحة، كنت أرى جزءًا من الحارة عندما أندفع إلى الأعلى، فرحتُ أتأرجح بين مشهدين متناقضين: مشهد أرض الدار المزدحمة بصواني البندورة وأمي مع عمتي وجارات جدتي يعملن على عصر البندورة، ومشهد الحارة، حيث الدكاكين والناس... كانت الأرجوحة تدخل إلى الدار فأرى النساء من دون غطاء رأس، مشمّرات أكمامهن وأثوابهن فتظهر سيقانهن العارية، ثم تخرج إلى الحارة، حيث النساء يرتدين ملابس محتشمة، أنيقة، ويختلطن بالرجال.

الفارق بين داخل البيت وخارجه، كان يتم بسرعة، بنقلات سريعة تحدث بدفع من جسدي على الأرجوحة فتنوس بين عالَمَيْن.

الأرجوحة التي كان أبي ينصبها لنا في بيت جدتي، كانت معلّقة في أغصان شجرة النارنج. حيث أطلب من أختي هدهد أن تدفعني بقوّة حتى أرتفع أعلى من الشجرة، أمدّ يدي لألمس النارنجة، ثم أهوي صوب الأرض، ضاحكة بلذة هائلة.

كنت أستطيع أن أذهب إلى مشهد آخر عبر الأرجوحة، ليس فقط من خلال الحركة نحو الأعلى ثم الهبوط، ولا من اليمين صوب اليسار أو بالعكس، بل عبر رؤيتي وأنا أطير فوق، ما لا أراه من تحت... رأس الشجرة، أرض الدار، بيت الجيران، أرض الدار، مشهد الحارة، أرض الدار...

قالت أمي إنني في طفولتي كنت لا أنام إلا في الأرجوحة. أعرف أنني منذ مولدي أعشق أن أرتفع عن الأرض، أحب أن أكون بين مكانين، بين حالتين. أنوس بين أمرين، بين الأرض والسماء مثلًا.. أحب ألا تطأ قدماي الأرض.

أعشق المراجيح، أعشق ذلك الاهتزاز الذي يكسر الثبات. أكره الثبات. أعشق التعلّق وسط الفراغ، بين الفوق والتحت.

أعتقد أنني منذ مولدي، أعشق الأماكن البعيدة، أحلم بأرجوحة تأخذني إلى بلاد بعيدة.

هل أنا نائمة وأكتب في نومي، أم إنني أكتب وأنا أشعر بهذا التأرجح؟

أنا لست مثل خالتي، أنا أحب الأرض، أحب اليقين، أحب الثبات والاستقرار. قلبي ينخلع من الخوف، حين أشعر بأنني أتدلّى بين الفوق والتحت. أخاف التأرجح... أخاف البلاد البعيدة.

هذا هو المنفى، يجب أن أكتب هذا حين أفيق. المنفى هو هذه الأرجحة بين الوجود واللاوجود.

أغمض عينيّ، سأنام... لا أنام. هذا يعني مزيدًا من القلق هذه الليلة. جسدي يريد النوم وعقلي لا يهدأ. أرى حلب، أرى بيت جدّتي في حي الجديدة القديم، قرب سوق الصاغة في أول شارع التلّ. أراني نائمة وأعي ما أراه، وأكتبه. أرى الكلمات مكتوبة وأنا أتخيّلها، كأنني أكتبها، فتنكتب أمامي، أراها... يجب ألا أنسى تدوينها حين أنهض.

تقول خالتي: حين أغمض عينيّ أرى نفسي فوق المسرح. المكان الحقيقي هو الذي يأتيك حين تغلقين عينيك.

أنا أرى حلب كلما أغمضت عينيّ، لا تغيب حلب. هي مكاني الحقيقي.

أنا أهتزّ... أكره هذا الاهتزاز...

ماذا حصل؟

لماذا توقف بي المشهد؟

ماذا حصل؟

كيف علقت هنا؟!

أنظر حولي جيّدًا، أتأكد من المكان الذي أنا فيه، أجدني معلّقة في مصعد يشبه التلفريك، المصعد يتعطّل فوق، وأنا وهالا نصرخ ونخبط على الباب. ثم تقول هالا: ساره، لا تخبطي كثيرًا، أخشى أن ينقطع بنا السلك ونسقط.

أنظر من نوافذ المصعد الزجاجية، فأرى تحتي قلعة حلب. أرى الكثير من الكتائب العسكرية والأعلام السوداء، وصوت آيات قرآنية تختلط بأصوات القصف على القلعة. المصعد يتأرجح وقد تعطّل بنا أو انقطعت الكهرباء... أتعرّق من الخوف، تقول هالا بصوتٍ مخنوق: اهدئي، أخاف أن يسمعنا أو يرانا العسكر، سيطلقون علينا النار ويسقط بنا المصعد، ويتحطّم ويطحننا.

رحت أبحث عما أتمسّك به، عثرت على غطاء صوف داخل المصعد المترنّح في الفضاء، شددته صوبي وتعلقت به، إن سقط المصعد، أخرج متمسكة بالغطاء، سيحميني إن وقعت... ولكن العسكر!!

أشدّ الغطاء، أعضه، وبهزّة عنيفة، كأن الأرض تنزاح من تحتي، أفيق.

وجدت نفسي على الأريكة، أعضّ غطائي الصوفي. جلست للحظات أتأرجح بين لذة أنني كنت أحلم، وبين ألم الحلم المخيف. تذكرت أنني في صباح الأحد الفائت، وقبل الدرس، كنت مع هالا في كنيسة القلب المقدس... قالت هالا بعفوية: إنها كنيسة عظيمة، مثل قلعة حلب!

ركبنا المترو الخاص، الذي يشبه التلفريك، حتى لا نصعد الدرج الطويل، ونزلنا قرب ساحة الكنيسة الهائلة. لم تكن هالا تكفّ عن مقارنة الكنيسة مع قلعة حلب. قالت: لماذا لا يركّبون تلفريك ينقل الناس من حول القلعة، إلى داخلها!

كانت هالا تضحك ونحن في المترو، حين خرجنا من النفق، وصرنا على الأرض، في محطة ستالينغراد، نتفرج على المدينة، قالت تخيّلي لو أنا في هذا المترو الآن في حلب!

قلت: أتخيّل؟ أنا لا أكف عن تخيّل هذا. كلما مرّ المترو فوق السين أو المدينة، تخيّلت أنني سأنظر من النافذة، لأرى قلعة حلب أو سوق الهال أو حي التل...

موسيقى أغنية بقطفلك بس... هاتفي يرن، الرقم مجهول لم يسبق له الاتصال بي.

إنه يان. يكلّمني بالعربية. ويقول إنه يريد دروساً خصوصية باللهجة الحلبية. سيذهب بعد شهر إلى حلب، لإجراء استطلاع عن الأوضاع الإنسانية للناس خارج مناطق سيطرة النظام. يريد التقرّب من الناس عبر التحدث معهم بلهجتهم المحلية. شرحت له سريعًا عبر الهاتف، أن لهجة الريف الحلبي ليست ذاتها لهجة أهل المدينة، لكنها أقرب من لهجة المحافظات السورية الأخرى. يتقن يان اللغة العربية الكلاسيكية، لغة نشرات الأخبار والصحافة والكتب، وهذا يسهّل عليّ تعليمه اللهجة الحلبية.

ستكون الدروس سهلة، لا تحتاج إلى تحضير مسبق أو مَراجع. ستكون محادثات حرة باللهجة الحلبية، يتوقف يان أثناءها عند المفردات الجديدة.

بعد انتهاء المحادثة الهاتفية، رحت أحوّل الجمل العربية إلى مفردات حلبية. ضحكت بيني وبين نفسي.
إن جملة: (ماذا تفعل الآن)، تتحوّل باللهجة الحلبية إلى شكل مختلف كليًّا لتصبح: إش عم تساوي هلق؟
أو عبارة: (كيف حالك)، تتحوّل إلى كلمة واحدة: شلونك؟ أو: (ماذا بك)، تتحوّل أيضاً إلى كلمة واحدة: أشبك؟

ثمّة جهد حقيقي على يان بذله خلال شهر واحد فقط للإلمام ببعض المفردات المنزاحة كلياً عن العربية التي يعرفها.
نهضت لأغيّر ملابسي سعيدة بخمسمئة يورو أُضيفت إلى دخلي. لم تكن (لا عالبال ولا عالخاطر).
محا الحديث مع يان بشاعة الكابوس. لا أعرف ما الذي منحني الطاقة الإيجابية من هاتف يان، هل هو المال الذي سيساعدني قليلًا أو تصوراتي وخيالاتي المريضة حيال الرجال. إذ أحسست، كالعادة، بشيء ما وصلني عبر صوته. علاقتي المريضة بالرجال، الذين أتصورهم قبل لقائي بهم، أصنع لهم وجودًا في حياتي، أتخيلهم، ثم ما إن ألتقي بهم، حتى أشعر بالفتور.
علاقتي بالرجال مثل علاقتي بالموسيقى والغناء... أحلم بالرجل من بعيد... أرسم سيناريوات... ثم أقتل الرجل قبل أن يدخل حياتي... إعاقة تمنعني من قبول لمس الرجل أو دخوله إلى مجالي الحميمي... الإعاقة ذاتها التي تتحكّم بي كلما انتابتني الرغبة بالغناء أمام الناس. أتساءل إذا لم يكن عطب أحدهما (الموسيقى والرجال) سببًا لعطب الآخر، وفكّ عقدة أحدهما يمكنه أن يفكّ عقدة الآخر.
أحسّ بدفء غريب بعد انتهاء المحادثة مع يان، في صوته دفء

وحنان. تحدث إليّ كأنه يعرفني من قبل، وهو يلفظ اسمي مرات عدّة... أحببت صوته، أحببت شيئًا ما وصلني من ذبذبات صوته.

رحت أرتدي ملابسي وأنا بمزاج مرح، ودندنت لنفسي مقلّدة صوت جورج وسّوف: «بستنى باليوم واليومين».

قُبَيْل الساعة السابعة عشرة

اقترب موعدي مع هالا. كنا اتفقنا أن نلتقي عند الساعة الخامسة بعد الظهر في شاتليه. انتهيت من ارتداء ملابسي، وتوجّهت لانتعال حذائي المركون قرب الباب. آخر شيء أفعله قبل أن أغلق الباب خلفي، هو التحدث إلى فأرتي التي أسميها (سرسوره) فهي ساره الصغيرة: «يا فأرتي، تركت لك الجبنة على الطاولة، لا تبولي على الملابس».

بينما كنت أدير القفل بالمفتاح، لمحت شخصًا يقف بانتظار المصعد ومعه كلبه، سارعت للحاق به، فقد وصل المصعد وأنا أقفل الباب.

بونجور، قلت... ردّ عليّ وهو يفتح باب المصعد ويتركني أدخل قبله. لحق بي كلبه وراح يتشمّمني من دون أن يلمسني.

بلطف سألني الرجل بالفرنسية: هل السيدة أمينة بحال جيدة؟

كانت دهشتي كبيرة من سؤاله، وقلت له من دون أن أكتم دهشتي:

- لقد ماتت منذ قرابة شهر.

ارتبك وقال:

- آه آسف، لم أعرف، أنا أسافر كثيراً.

- حضرتك تقيم هنا؟

ـ نعم، أسكن في الشقة المجاورة، وأنت؟ هل تعيشين هنا؟
ـ نعم.
ـ آه، أنت إذًا التي...
قطع جملته نادمًا، فسألته:
ـ التي ماذا؟
أخذ بعض الوقت، ثم قال:
ـ التي تبكين في الليل...
ـ نعم؟
وصل المصعد، خرج الرجل قبلي وظل ممسكًا بباب المصعد حتى أغادر. لم أستطع تجاوز عدم فهم كلماته، فتوقفت قبل الخروج من بوابة البناية وسألته:
ـ عن أيّ بكاء تتكلم؟
ـ ألا تعرفين؟ بكل صراحة كنت أعتقد بأنها السيدة أمينة، ربما تعاني من الوجع في وقت متأخر فتبكي وتتحدّث بلغة أجنبية، أسمع صوت البكاء عبر الحائط، بل حتى كلبي ينتبه لهذا... وكنت أحدس أنه ليس في الأمر شجار أو اعتداء لأن كلبي كان سيشعر بذلك وينبهني.
ارتبكت كثيرًا، وكدت أذوب من الخجل... أبكي وأتحدث بالعربية في الليل، وأسمع الجار صوتي!
صافحني الجار الوسيم، الأربعيني ذو العينين الزرقاوين واللحية الشقراء:
ـ أنا فريدريك... تشرّفت بلقائك، أتمنى أن نلتقي ذات ليلة ونشرب نخب جيرتنا. ضحك ضحكة بدت أنه يداري بها خجلًا.
ـ أنا ساره، شكرًا لك وأعتذر عما أسببه لك من قلق في الليل.

ـ لا لا أبدًا، أنا فقط كنت أحسّ بالحزن لأنني لا أستطيع إيقاف الألم...

بدا أنه يريد أن يكمل لكنه تردّد، فشجعته:

ـ كأنك تريد أن تقول شيئًا ما؟

ـ أخشى أن أزعجك.

ـ لا... تفضل.

ـ ربما من الأفضل مراجعة طبيب نفسي في هذه الحالات، أعتقد بأن موت خالتك، وإقامتك في مسكنها، يسببان لك الألم.

انصرف فريدريك مع كلبه ليتنزها في الحديقة القريبة من الحي، وتابعت طريقي صوب المترو، وأنا أشعر بالاضطراب.

كنت أعرف أنني أتكلّم وأنا نائمة. أخبرتني أمي بهذا مرارًا، ونبّهتني خالتي إلى الأمر، وكنت أخشى أن أنام مع شخص غريب في مكان واحد، فيسمع ما أقول. لا أعرف عمّا أتحدث في نومي. وصرت أحيانًا أصحو في الليل فأجد خدّيّ مبللة بالدموع. لكن هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن بكائي يبلغ حد أن يصل صوتي إلى جاري في المنزل الآخر.

أضع سماعتَيّ الأذنين، أنصت إلى أغنية كانت ترددها خالتي، وبتّ أسمعها كثيرًا هذه الأيام: «هذا مو انصاف منك»... صرت أدندن معها.. ألم في المعدة، الألم يشتد، أتعرّق... ثم... واو، أكره هذا... ليس هنا... أهرع صوب زاوية شارع، لأفرغ معدتي.

تقيأت في الشارع، يا للعار!

اقتربت مني سيدة خمسينية أنيقة، انتبهت لملابسها وللشال الأخضر المزهّر باللون الوردي. سألتني إن كنت أحتاج إلى الاتصال

بالإسعاف. هززت رأسي بإشارة الرفض، ثم شكرتها وأنا أرتجف.
لكنها ظلت واقفة بجانبي.

تذكرت أمي، أيعقل أن أكون قد ورثت عنها تلك الحالة التي أكرهها؟

كانت أمي (تقع في الساعة)، هكذا نسمي تلك الغيبوبة الطارئة التي كانت تحدث لها أحيانًا في الشارع. فجأة تفقد الوعي وتنهار في الطريق، ويجتمع عليها الناس وتحصل الفوضى وتتداخل الأصوات: هاتوا ماء - اتصلوا بالإسعاف - يا لطيف - المسكينة - غطّوا ساقيها - هاتوا حذاءها...

كنت صغيرة حين كنت برفقتها ذات يوم، ولم أعرف كيف أتصرّف، حتى إني لم أبكِ في ذلك النهار وأنا أتفرج على أمي وسط الأغراب، يجتمعون حولها ويتبادلون نظرات القلق واقتراح الحلول. إلى أن أفاقت وتمتمت: بنتي. نظر إليّ الجميع فجأة، وشعرت بأنني عارية. لحظتها بكيت فجأة وأنا أتقدّم صوبها وأجلس قربها على الأرض، لتعانقني باكية ثم تنهض، وتسير ممسكة بيدي وقد بدا عليها الانكسار.

سرت إلى جانب تلك المرأة منكسرة، كأنني أمي، أو كأنني في الموقف ذاته مع أمي. وقررت العودة إلى البيت.

ابتسمتُ للسيدة صاحبة الشال الأخضر، وشعرت بالمزيد من الاضطراب، وكان ثمة ألم في بطني، وإحساس مباغت بالبرد.

كنت أبكي بصمت. استجمعت نفسي المضطربة وعدت أستمع إلى الأغنية ذاتها، التي أخرجت أمعائي، وصعّدت حزني. أريدها نفسها، عقابًا لي، سنَدًا لي... لا أعرف... أنا ضائعة.

في الحقيقة كان بإمكاني النزول صوب المترو، واللحاق بموعدي. فبعد أن تقيأت هدأت معدتي. لم يكن الألم شديداً بحيث يمنعني من متابعة الطريق صوب الشاتليه، أحسست بشيء من البرد، لكنه شعور عابر، فما إن أدخل المترو حتى أستعيد إحساسي بالدفء. مع ذلك رغبت بالعودة إلى البيت. أحسست بأنني سأكون أفضل في البيت... لا أعرف بالضبط ما الذي عكّر رغبتي في الذهاب لرؤية هالا.

أنا كائنة غير اجتماعية مع أنني أحب الناس.

أسمعهم، لكنني قلّما أشارك في أحاديثهم.

الناس في بلدي يحبون أن (يسولفوا). وهنا يحتاج الناس إلى مَن يتكلمون معهم، وإذا لم يجدوا ذهبوا إلى طبيب نفسي. أنا لا أحب أن يعرف الناس مشكلاتي.

هناك، سألتقي أصدقاء هالا الذين جاؤوا من بروكسل لتلتقي بهم، وبي. أصدقاؤها الثوريون، الذين ينظرون إلى العالم بعين واحدة، ويحاكمون كل من ليس مثلهم. يمسكون بالمسطرة ويقيسون الناس وفق مقاييسهم. أحب هالا لكن أحكامها وحديث رفاقها الثوريين لا يعجبني فلا أشاركهم.

يتحدّثون كأنهم أبطال. كأنهم صنعوا الثورة هناك، مع أنهم يعيشون هنا. سينظرون إليّ بعين لائمة، وسينتظرون مغادرتي ليقولوا لهالا: صديقتك رمادية.

أصدقاؤها صارمون كمدقّقي اللغة. حين أقول الحرب في سوريا، تحذّرني هالا: «أوعك تقولي حرب، هيدي ثورة، رفقاتي بيقوموا عليكي». على واحدنا الانتباه الى كل كلمة يقولها كي لا يتم تفسيرها وفق معاييرهم الثنائية الثابتة: مُعارض - مُوالٍ، قتيل - قاتل..

لا يمكنك أن تكون طبيعيًا أو تلقائيًا معهم. لا يمكنك أن

تفكّر أو تنتقد. كل انتقاد للثورة، يعني وضعك في خانة الموالين... وتبدأ الاتهامات... يجب أن تلبس وجههم الصارم وتعريفاتهم المحدّدة للعالم إما كذا أو كذا... حين قلت إنني ضد طغيان الظواهر الإسلامية في الثورة بحلقوا فيّ وأرعبوني: الإسلام هو الحاضن الشعبي للسوريين، كفانا تعاليًا على شعبنا... وحين حدثتهم عن حواجز تلك القوى المتطرّفة التي مررت بها من حلب إلى بيروت... عنّفوني بأنه ما من ثورات بيضاء، وأن هذه أحلام مَنْ لا يستطيعون صنع ثورة!! يعيشون في باريس ويريدون صنع ثورة!! هذه الهيمنة النفسية وهذا «الترعيب» ينفّراني.

هالا ليست مثلهم. لا تتبجّح بأنها قدمت شيئًا مهمًّا أو تضحية عظيمة للثورة. أما هم، فيظنّون أنهم يشاركون في الثورة بالتقاط الصور وهم يرفعون أصابعهم بإشارة النصر مع أساور علم الثورة الأخضر في معاصمهم.

لم أفهم انتصارهم ذاك. على ماذا انتصروا وعلى من؟ نصف الشعب السوري صار نازحًا وربعه مات تحت نيران النظام، كما تحت نيران المعارضة. أين الانتصار وسط ذلك الخراب؟

كنت أشعر بالتوتر بينهم. ما كنت أحب أن ألتقي بهالا معهم.

أخاف منهم، أخاف من أحكامهم المطلقة، ومن أصواتهم المرتفعة. لا أفهم لماذا يرفعون أصواتهم ويحدثون الضجيج كلما التقوا.

هل هم السبب في تعكير مزاجي ورغبتي للعودة إلى البيت وعدم لقاء هالا؟ أم إنه فريدريك؟ أو ربما يان؟

رجلان يقتربان من حياتي في يوم واحد.

أحدهما يسكن بجواري ويدعوني لتناول كأس بغرض التعارف، والثاني سيأتي إلى بيتي غدًا.

أهو القلق من الرجال؟ أم القلق من المجتمع السوري؟
هل هو إحساسي بالغربة بين السوريين، أم هو خوفي من الآخر؟
الزحام بين الذين يعرفونك، ليس مثل زحام التروكاديرو الحميمي.
ساحة التروكاديرو تتغيّر في الحالتين، هي ليست نفسها، حين لا تكون ثمة تظاهرة للسوريين.
في الصيف، في شهر آب الفائت، جاءت هالا من بروكسل، والتقينا. كانت أول مرة ألتقيها منذ مجيئي إلى باريس. حدثتني على الهاتف، وحدّدت لي مكان اللقاء: «غدًا في ساحة حقوق الإنسان، ثمة تظاهرة احتجاجية بمناسبة ذكرى الهجوم الكيماوي على الغوطة الشرقية بدمشق، ستكون فرصة لكِ أيضًا للقاء المعارضين السوريين، كفّي عن الابتعاد، عليكِ أن تقتربي أكثر مما يحدث».
أصابني القلق في تلك الليلة. أنا أخاف من التجمّعات، وأخاف من لقاء المعارضين، ليس خوفاً من النظام الذي طالما حكم بالتخويف. بل أخاف من ذلك النوع من المعارضين، ثمة شيء فيهم لا أستطيع تحديده، يجعلني أنفر منهم. حين حاولت أن أشرح لهالا، سخرت مني. كنت أظن أن هالا ستفهمني، فهي ابنة المسرح، ورفيقة الأحاديث الطويلة عن ستانسلافسكي ومحاولات الاسترخاء النفسي للدخول في الشخصية، وتفكيك كل التفاصيل، وفتح باب النقد. كنا نتحدث طويلًا في سوريا، للعثور على تفسير للمشاعر التي تحياها إحدانا، للتوصل، عبر الحوار، إلى تعريف الحالة أو المشاعر. حاولت أن أشرح لهالا عبر الهاتف: «أظن أنني أرتبك بوجودهم، لأنهم قاطعون لا يتقبلون النقد، مثل السلطة. أنا أراهم على شاشات التلفزة يا هالا، يفتقدون إلى البراءة. أجل هذه هي اللفظة، البراءة.

أنا أخاف من الكائنات المصطنعة، وأنفر من كل ما هو مزيّف ومفتعل...». قاطعتني هالا ساخرة : «براءة... الآن... في زمن الدبابات والصواريخ والبراميل على المدنيين... أنت طفلة أم غبية؟ تعالي نلتقي غدًا لتري العالم بعينين مفتوحتين على ما يحدث أمامك، لا على ما يحدث في رأسك».

وبّختني هالا. وهذا ليس بجديد عليها، ولا عليّ. أنا أيضًا كنتُ أوبّخها في حلب، وهذا لم يؤثّر على صداقتنا القائمة على تقبّل رأي الآخر برحابة. إنها البراءة وقد أعجبتني اللفظة التي اكتشفتها للتو.

يومها أذعنت لرغبة هالا، أذعنت لصديقة أحبها، ولأمل أن أجد نفسي هناك... وذهبت إلى الموعد.

ما إن غادرت المترو، وتوجّهت نحو الساحة حتى بدأ قلبي يخفق وأنا أقترب من ذلك التجمّع الذي يحمل الأعلام الخضراء التي كنتُ أراها في التظاهرات التي تقدمها شاشات التلفزة العربية كالجزيرة والفرانس 24 وغيرهما.

تمرّ في بالي صورة ذلك اليوم. لم أكن قد شاركت في أيّ تظاهرة من قبل. كنت يومها أمرّ أمام الجامعة برفقة رولا ورأينا التظاهرة. طلاب الجامعة يهتفون ويرفعون علم الثورة على مدخل الجامعة، اختلج قلبي وانتابتني رغبة بالبكاء. كان إحساس عارمٌ بالفرح، عشقت هؤلاء الطلاب، والطالبات خاصة، وهم يتصدّون للاستبداد، وغمرتني حالة عاطفية ساحرة، كانت البراءة تملأ الساحة. في تلك اللحظة بدأت قوات الأمن بمهاجمة المتظاهرين بعنف. وتفرّق المتظاهرون منقسمين إلى مجموعات يركضون في عدة اتجاهات ويصرخون ضد الاستبداد ويدعون الناس للنزول إلى الشارع. انتابتني رغبة مفاجئة

في النزول من السيارة التي تقودها رولا، والركض مع الطلاب الذين فروا من مطاردات الأمن. صرخت بي رولا: مجنونة... تعرّضين نفسك للخطر!

كانت قوات الأمن قد أغلقت الطريق الرئيسي المُفضي إلى ساحة الجامعة، ولكننا كنّا نازلتين، رولا وأنا، من الطرف الخلفي، حين اتجهت رولا صوب نزلة «أدونيس»، لنرى مجموعة شباب يركضون في عدة اتجاهات.. (وقّفي) صرخت برولا، واستدرت نحو الخلف، فتحت باب السيارة الخلفي، وكنا إلى جانب ثلاثة شبّان يركضون وقد بدا الإنهاك على أحدهم. (اطلعوا) صرخت بهم، فرمى الثلاثة أنفسهم في السيارة التي تمهّلت من دون أن تتوقف، وكاد الأخير بينهم يسقط وهو يسرع خلف صديقيه. الأخير، الأشقر، عرفت أن اسمه طارق، وراح الثلاثة يتحدّثون ويتشاورون أين يذهبون، وكيف يطمئنّون على بقية الأصدقاء والصديقات.

كان الخوف يتملّكنا نحن الخمسة. رأينا من السيارة شبابًا آخرين يهربون من رجال الأمن، وقد أمسك بعض عناصر الأمن أحد الشباب، وراحو يركلونه بعنف... (وقّفي) قلت لرولا، فردّت غاضبة: (مجنونة، بيعتقلوكي معه، بيعتبروكي من المحرّضين عالتظاهر). ولم تعبأ رولا بي. أخرجت سيجارة من علبة سجائري وفشلت في إشعالها بيدي المرتجفة. فسارع من خلفي أحد ثلاثتهم، وأشعل قداحته.

وأنا أستدير نحوه ممسكة بيده المرتجفة مثل يدي، الممسكة بالقداحة المُشتعلة، رأيت الدم يرسم دائرة كبيرة على قميص الشاب الأشقر، فصرخت: أنت مصاب!

كأنني في مشهد لأحد أفلام الثورة الفرنسية، أجلس مع دانتون

أو روبسبير... انحنيت ألتقط حقيبة يدي التي سقطت تحت قدمي، وأخرجت منها محارم ورقية ناولتها للشاب. فأخذها وراح يمسح دماءه قائلًا لرولا بلطف: «ممكن تلفّي من الجهة الثانية؟ هناك صديقي طوني ومعه أخته عالقان ولا يعرفان كيف يهربان».

اتجهت رولا صوب سوق الانتاج، ونزل الشباب الثلاثة، وكانوا قد عرّفونا بأسمائهم طارق وباسم وعارف، ورأيتهم يتّجهون صوب مبنى، عرفتُ أن صديقهم وأخته ينتظرانهم في مدخله. ما إن ضغطت رولا على دوّاسة البنزين، حتى انتبهتُ بغتة أن قميص طارق الأبيض مليء بالدم من الخلف أيضًا. أوقفت رولا، ونزعت قميصي من الكتّان الأسود الذي أرتدي تحته (تي شيرت) أحمر، ونزلت من السيارة منادية: طارق! ليتوقف ويستدير نحوي. ناولته القميص، فارتداه أمامي، وقال مازحًا: قميص بنات... رفقاتي رح يشبّعوني مسخرة.

كأن طارقًا لمح الخوف في عينيّ، فقال محاولًا طمأنتي، ممسكًا بيدي بين يديه بحنان، وهو ينظر في عينيّ، تلك النظرة التي ستستقرّ في مخيّلتي:

- لا تخافي، نحن على حق، وسنحيا.

هذه هي البراءة التي تجعلني أرتمي بين قسماتها، وأضحّي بحياتي من أجلها. كان الإيمان يلمع في عينيّ طارق، المستعد للموت من أجل حلمه بالحرية، نعم، ذهبت إلى تظاهرة باريس، وكان قلبي يخفق أكثر كلما اقتربت من الحشد. لمحتُ هالا بين مجموعة أشخاص لا أعرفهم. لوّحت لي هالا بيدها، فاتجهت صوبها. وراحت تعرّفني على أصحابها: ثراء، الشاعرة المعروفة - سعيد، الصحافي المشهور - بسام، طبيب ورئيس تجمّع سياسي جديد لم ألتقط اسمه جيداً بسبب الضجّة

التي اجتاحت التظاهرة... وتوجهت أنظار الجميع، إلى شخص دخل التجمّع، يسير بطريقة استعراضية، وخلفه مرافقاه. سمعت أصواتًا تهتف باسم الزعيم (القادم)، وسمعت همهمات معترضة «شو هالمنظر، عم يتصرف كرئيس منذ الآن». علّق بسام: «علينا أن نقيم ثورة على هذه المعارضة»، وردت هالا: «على مهلكم يا جماعة، الرجل مهدّد والحكومة الفرنسية خصّصت له الحماية إنسوا الرومانسية التي بدأت بها الثورة»...

تحلّق عدد كبير من المتظاهرين، حول القائد، يسلّمون عليه بحرارة، ورأيت بسام هناك، مع الدائرة المحيطة بالرجل الذي كنت أراه على شاشات التلفزيون. رأيت كاتبة السيناريو، والمخرج المعروف، والمغني الذائع الصيت... خفق قلبي وأنا أرى الممثل الذي أحبّه كثيراً، ويُضحكني من قلبي. همست لهالا كأنني في يوم العيد: «هيدا عبد العليم؟». قالت ضاحكة: «تعالي أعرّفك إليه». لكنني بقيت في مكاني. خفت من الاقتراب من نجم تلفزيوني، أمضيت ساعات طويلة أتفرج على مسلسلاته مع عائلتي. خفتُ من وهجه، خشيت أن ينطفئ ذلك الوهج حين أسمع كلامه.

جاء بديع، الأستاذ المحاضر في السوربون، ومؤسس منظمة جديدة لحقوق الإنسان في باريس. اقترب من الدائرة التي أقف فيها، وصافح ثراء قائلًا: «شاعرتنا الجميلة.. شو أخبار الشعر هالأيام؟»، وضحكت ثراء متهايلة: «سوريا عم توجعني يا دكتور... كل كتاباتي الآن عن أطفال سوريا وعن الأمهات المتألمات والثكالى». صافح هالا أيضًا، وسارعت هي لتعرّفه عليّ، وما إن فتحت فمها، حتى مرّ بقربنا الرئيس القادم، كما يُشاع عنه، مُحاطًا بمرافقيه، وبصحافي من

تلفزيون العربية، أراد أن يأخذه بعيدًا عن الضجيج ليأخذ منه تصريحًا لنشرة الأخبار المسائية، فالتفت بديع صائحًا: «دكتورنا، حبيبنا، منوّر المظاهرة، إيه هيك بدنا تظهروا وتدعمونا»... وهكذا سقطت جملة هالا: «ساره صديقتي التي...»، ولم يلتفت بديع الذي اندفع ليعانق الرئيس القادم، الذي تكرّم بحضور التظاهرة الاحتجاجية، ما يضمن أن تنقل محطات التلفزة تفاصيلها في نشرات الأخبار.

وجدت نفسي وحيدة. دوائر كثيرة أمامي. ثمة شيء كالموج يسحبني من دائرة إلى أخرى. أتبع هالا أحيانًا لأنها الوحيدة التي أعرفها عن قرب. بيني وبين عبدالعليم خطوات قليلة. أسمع قهقهاته، وأرغب بإلقاء التحية عليه، ولكني أخاف. أخاف من وهجه، وأخاف من انطفاء هذا الوهج. أسمع ثرثرات دوائر ضد دوائر: هيدا مخابرات... إيه بس انشقّ من زمان ... لأ هيدي تمثيلية عاملها مع النظام، عم يتجسّس علينا... أسمع أصوات صراخ، ماذا حدث؟ الرئيس المستقبلي غادر بعد التسجيل مع التلفزيون، وثمة شجار، والأمن الفرنسي يتفرّج. لا يتدخّل إلّا إذا حصل عنف. أستفسر من ثراء التي أراها أمامي، تظهر فجأة كأنني في فيلم سوريالي، يختفي الأبطال، ويظهرون من دون قواعد، تقول ثراء لا مبالية: «لا تهتمي، هيدي قصص عادية هون». أفهم لاحقاً، أنه شجار بين مجيد وسليم. سليم الكردي الذي يقول (الجيش الكر)، رافضاً لفظة: (الجيش الحر)، ومجيد الذي يفقد عقله، كلما سمع أحدهم يهاجم الجيش الحر: «روح قاتل هونيك بدل ما تتمسخر عليهم...». الشجار اللفظي يتحوّل أحياناً إلى اشتباك بالأيدي والأرجل، وهنا يتدخّل الأمن الفرنسي إذ وصل متظاهرون يرفعون أعلام النظام وصور الرئيس

السوري واندسّوا في تظاهرة المعارضين، وكاد أحدهم يقتل الآخر دهساً بالسيارة وهو يطارده بعد خروجه من مكان التظاهر في ساحة الشاتليه... ولا تزال محاضر الشرطة في باريس، تحتفظ بالتبليغات من الطرفين، كما شرحت لي ثراء.

هناك رأيت تمّام وغنوة. قدمتها هالا لي، واقترحت أن نلتقي بعد التظاهرة على رواق، إذ كانت هالا قد حدثتني عنها أكثر من مرّة كصديقة مقرّبة. ذهبت غنوة لتسلّم على عبدالعليم، وحسدتها على جرأتها وعلى قربها منه، فاحتضنها مغازلاً متبسّماً: «دخيل رب البنات... أنا روح قلبي البنات». عندما غادرت غنوة حلقتنا قال تمّام لهالا: «مجنونة أنتِ؟ كيف بتنامي ببيتها؟ ما بتعرفي إنّو غنوة مدسوسة علينا من المخابرات؟». امتقع وجه هالا التي وبّخت تمّام: «خلص بقى، لسّه الكل بيخوّن الكل.. شو رأيك إنّو من دقيقتين، في حدا هون قال لي تمّام مخابرات؟»، وصرخ تمّام غاضباً: «بحط صباطي بفمّ اللي بيجيب سيرتي، ماحدا بيغبّر على صرمايتي»...

كنت أسير وكأنني أسبح في الفراغ، أصابني ذلك الخدر، صرت أترنّح بين الأحاديث وتتوالى في رأسي الهمهمات المتناقضة: هيدا أمن - هيدا منشق - ليش كتير شايفة حالها - مين مفكّر حالو - الجيش الكر - هيدا موالي - هيدا رمادي... وقهقهات وشعارات ودبكة ورقص وغناء وبكاء وانفعالات وخطابات... أحسست بأنني أسقط بين الأقدام!

أفقت على وجه يسألني: كيف صرتي؟

نظرت حولي.. كنت أجلس تحت التماثيل الذهبية اللون، في الطرف الثاني من التظاهرة، في الساحة ذاتها. معي تمّام الذي حملني حين أُغمي عليّ، وملأ ملابسي بالماء.

يبدو أنني أخاف من هذا العالم الصناعي. نعم إنه صناعي لذلك يتصرّفون فيه على نحوٍ مُصطنع..

ترى هل مات طارق في حلب؟

أشعر بالاختناق حين أرى أحد هؤلاء الذين يصرخون بوجه العالم ويوبّخونه، هذه النُخب المُتعالية، هؤلاء المُنافقون، المتصنّعون، البعيدون عن براءة طارق وكل الذين يعيشون الألم والموت..

كأن الطريق إلى البيت صار أطول مما قبل، أسير وأسير ولا أصل... وجوه التظاهرات بين حلب وباريس تتداخل وتتقافز أمام وجهي.

أشعر بأنني أتأرجح من دون لذة، لست مثل أمينة التي تتمتّع بالتأرجح. أنا جبانة. لست مثلها، أنا أخاف الضوء، وأحب التكوّم في سريري، تحت غطائي الصوفي، أشرب الشوكولا الساخنة الآن، وأشاهد التلفزيون. لا أريد لقاء أحد. أنا أخاف من العالم. العالم أرجوحة، ما إن أذهب إليهم، حتى ترتفع قدماي عن الأرض، وأخشى السقوط في كل لحظة، في أرض طينية، أو السقوط من مرتفع، كحلم المصعد.

أنا لا أحب الأرجوحة. لو كانت خالتي هنا، لحدثتها عن لذة الأريكة. لذة أن يمسّ جسدي الممدّد هذا القماش المحشو بالقطن أو الصوف. لذة قماش الأريكة أمتع من خوف حبال الأرجوحة.

وصلت إلى البيت، جهّزت الكمّون المغلي الذي كانت أمي تقترحه عليّ في حالات ارتباك الأمعاء. استلقيت على الأريكة ورحت أقرأ في كتاب «أساتذة العدم» لنانسي أوستن.

وصلت حتى الصفحة 73. توقفت للحظات، وأحسست كم

ينطبق عليّ الحديث عن العدمية. كأنني ورثت مزاج أمي العدمي ذاته. حاولت الكتابة. متابعة تدوين هذه التسجيلات التي تركتها خالتي وأوصتني ألّا أسمعها إلّا بعد موتها.

ماتت خالتي منذ شهر.

هي من نصحني بتقديم طلب اللجوء.

كان مقررًا أن أعود في شهر يناير 2014، لكن خالتي أصرّت عليّ أن أبقى، وأهلي كانوا يصرخون فيّ كلما حدثتهم عن العودة. جميعهم يتحدثون عن حرب طويلة. غابت عبارة «الثورة» عن الألسن وحلّت محلها عبارات التدخل الخارجي، النظام، الشبيحة، الدواعش، المعارضة... وسلسلة أسماء طويلة لمنظمات كل منها مدعومة من دولة وتسيطر على حيّ من أحياء حلب والقرى المحيطة بها...

تقول والدتي كل الناس هنا يريدون مغادرة البلد فكيف تعودين إليها؟

كانت الحرب تكبر. حين غادرت كنت أتوقّع انتهاء الحرب قبل نهاية العام.

تقدّمت بطلب اللجوء في الأسبوع الثاني من شهر يناير، وتأخّرت الموافقة على منحي بطاقة الإقامة، حتى مللت وقرّرت العودة إلى سوريا.

سمعنا أخبار تقدم داعش من حلب... كانت الأخبار التي تصلني مرعبة، وكان الوضع الصحي لخالتي متدهوراً، وفي الحقيقة لم تكن لديّ أيّ مشاعر صوبها، ولم أفهم سبب طلبها حضوري. قالت إنها ستحكي لي حكايتها، وصارت تماطل، متذرّعة بأوضاعها الصحية وعدم قدرتها على الكلام. تتكلم أحيانًا لكنها لا تقول ما يجعلني أحسّ بالأهمية التي تتحدّث عنها لوجودي بقربها. أمضيت شهرين

معها وهي تكرر لي حكاياتها حين كانت في المعهد وغرام الصيدلي بها، وأشياء عادية مملة. بل راحت تحدثني عن علاقتها بأمها وبأمي...

كنت خائفة من العودة إلى حلب، وفي الوقت نفسه أشعر بالذنب تجاه أهلي هناك، خاصة سوسن، التي كانت تتمنى لو أن خالتي دعتها إلى باريس بدلًا مني. وكنت منزعجة من آلام خالتي التي حين كنت لا أتعاطف مع آلامها أكره نفسي، وحين أتعاطف أكره الوضع الذي أنا فيه بل أكرهها أحيانًا، فليس بيننا أي تاريخ. كنت أشعر أنها تعتدي على مشاعري لأتعاطف معها... كنت محبوسة في فرنسا، في انتظار أوراق الإقامة... التي حصلت عليها في سبتمبر من العام الفائت.

ماتت خالتي منذ شهر، بالضبط في شهر تشرين الأول 2015، ومات أبي قبلها في السنة الماضية، بعد عيد ميلادي بأسبوع. اتصل بي أبي في عيد ميلادي. آخر جملة قالها لي عبر الهاتف: «لا ترجعي يا ساره.. برضاي عليكي خليكي هنيك. يمكن ماعدنا نشوف بعض أبداً، بس لازم تعرفي إني عملت كل شي حتى تكوني منيحة. سامحيني إذا خبيت عليكي شي، كله كان كرمالك يا بنتي».

لم أفهم عمّا كان يتحدّث! أعتقدت أنها هلاوس المرض. قلت له جملة واحدة فقط: «بابا أنا بحبك».

رغبتُ أن أعود حين مات. لكن أمي أيضًا رفضت. شرحت لي رعب الحياة في حلب. لم يدفنوا أبي في مقبرة العائلة. لا طقوس ولا جنازة ولا عزاء. دفنوه في حديقة قريبة. كان الموت أكبر من أن تتسع له المقابر العادية. تمددت المقابر وصارت في كل مكان.

كان بإمكاني العمل هنا. يمكنني معادلة شهادتي والاشتغال كمهندسة، بدلًا من الجري للعثور على ساعات لتدريس اللغة العربية ومجالسة الأطفال..

لكن هذا يتطلب أن أتابع عدة دورات تدريبية، أي أن أهيئ نفسي للعيش طويلًا هنا. وهذا ما لا أريده.

لم أتسجل في مكتب العمل ولم أتقاضَ أية مساعدات من الدولة، لا راتب المعونة الاجتماعية، ولا مساعدة السكن، حتى أنني لم أتسجّل في الضمان الصحي، وليست لديّ تلك البطاقة الخضراء. لا أحصل على أي شيء من الحكومة الفرنسية... تمضي أيامي ثقيلة... بانتظار العودة.

لا أشتري الملابس الجديدة. لدي حذاءان، بوط عالي وحذاء رياضي... أغراضي قليلة. فقط ملابسي التي جئت بها من سوريا، وزّعتُ ملابس خالتي على الجمعيات الخيرية، واحتفظت فقط بمعطف الفرو الفاخر، رغم أناقة ملابس خالتي التي كانت تحرص على اقتناء الماركات الفرنسية والعالمية... فقط النساء تفهم معنى أن تتخلى امرأة عن ملابس فاخرة أنيقة وجميلة... كنت لا أريد أن أشعر بأن هذا مكاني، لا أريد روابط مع المكان... تقول رولا: الفلسطينيون خرجوا مثلنا، لأيام معدودة، انظري... أنا لا أصدق أنني خرجت لوقت طويل... أعتبر حياتي هنا موقتة.

القراءة تريحني، تزيح عني كوابيس الرعب. أنا مستمتعة بالقراءة، الفصل الرابع (بابا عدم) وعنوان فرعي: آرثر شوبنهاور..

تصلني رسالة من السكايب، مع أنني أضع حالة (غير مرئي)، فقط رولا تعرف أنني قد أكون على الخط، حتى لو كنت غير مرئية. نظرت إلى شاشة الهاتف وقرأت الرسالة:

«رفضت السفارة البلجيكية منحي الفيزا، هل تتخيّلين؟؟».

كانت تلك رسالة سناء..

لم أردّ، وضعت الهاتف على الطاولة، وتابعت القراءة...

أحسست بالذنب، ربما سناء متضايقة وبحاجة للتحدث معي... صحيح أنني متعبة، ولكن لا يمكنني أن أكون أنانية.. مستحيل أن ينفصل أحدنا عن المشهد العام... حين كنت أقيم في سوريا، كنت أرى سناء على التلفزيون وأتمنّى التعرف إليها عن قرب والتحدث معها... كانت تتحدّث عن الكتابة وعيناها تلتمعان بشغف مدهش... كنت أحلم أن ألتقي بها وأسألها كيف تكتب، وكيف يصير أحدنا كاتبًا... كانت هي ودوستويفسكي، الشخصان اللذان بسببهما حلمت أن أصبح كاتبة... لكن أمي كانت ترفض ذلك، تمامًا كما رفضت أن أغنّي أو أن أصبح مغنية.

كنت أودّ دراسة الأدب الروسي. كانت عمتي هي سبب تعلّقي بالأدب الروسي، وبدوستويفسكي، حين حدثتني طويلًا عن رواية الجريمة والعقاب.

أبي كذلك رفض أن أتسجّل في كلية الآداب، وأصرّ على الطب أو الهندسة، فاخترت الهندسة المعمارية لأنني أحب الرسم والتشكيل. كنت أريد ان أصبح مهندسة ديكور.

كدت أطير من الفرح حين التقيت سناء في اللاذقية، وكنت مع عمتي في نزهة. أهدتني نسخة من روايتها حين ذهبت لزيارتها في البيت، كانت لطيفة ومتواضعة. التقينا في مقهى على البحر، وتحدثنا، وأخبرتها أنني أتابع كل أعمالها. دعتني لزيارتها في بيتها. كانت رائعة. كيف الآن أسمح لنفسي بقراءة رسالتها، وتركها، ألهذه الدرجة أتخلى عن حياتي، وحتى عن تواصلي مع الناس الطيبين؟

فتحت السكايب، وردّدت عليها...

كانت سناء حزينة ومحبطة. صحيح أنها بدت حزينة في كل مرة تحدثنا فيها منذ هربها إلى بيروت، ولكنها هذه المرة بدت كأنها فقدت الأمل نهائيًا.

كانت تدخّن بشراهة، أراها عبر الكاميرا، صوتها يرتجف، لكنها لا تبكي، وراحت تحكي:

«أين نذهب نحن السوريين؟ ما من مكان في العالم يتّسع لنا. وحين يحصل ونجد مكانًا نحمل بلدنا معنا، ونقارن تفاصيل الحياة في كل مكان مع حياتنا في سوريا، فلا نعرف كيف نعيش. لا يمكننا التأقلم مع أية حياة. الآن، مجرد أن أحدنا سوري هي تهمة ونبذ مسبق. ثقيلة هي صفة اللاجئ التي تدمغنا..

تذكرين يا ساره، لقد جئت منذ ثلاث سنوات لتوقيع روايتي الجديدة في معرض الكتاب. وتعرضت لتوقيف حاجز إسلامي. كنت قادمة من دمشق آنذاك. شعرت بالخوف، نظروا إليّ باستنكار لأنني امرأة. تخيّلي أنا المرأة العلمانية، وضعت حجابًا على رأسي. شعرت بذل ومهانة كبيرين. كل التنظيرات والنصائح التي كنت أقدّمها للبنات، للقارئات واللواتي ألتقي بهنّ في المقاهي والنوادي الأدبية وعلى الإنترنت، طارت في الهواء. أحسست لحظتها لأني امرأة، فأنا مجرّد جسد محكوم عليه بالتحجّب لأنه مصدر فساد في المجتمع. أحسست بأن أفكاري تحاسبني. فكرت بأصدقائي الذين عانوا من السجون وأولئك الذين ماتوا لنتخلص من الاستبداد، فإذا بنا نعود قرونًا إلى الوراء. شعرت بالذل، بالعجز، وبالخوف. لهذا هربت إلى بيروت. كرهت سوريا، وانتابتني حالة اكتئاب طويلة. تذكرين ربما، تحدّثنا مرة، وكنتِ لا تزالين في حلب وتحلمين.

دعتني ابنتي المتزوّجة في ألمانيا لأن أعيش معها. لكن روحي

لا تستطيع العيش هناك. أنا امرأة في الستين، أستطيع الذهاب إلى ألمانيا أو فرنسا أو سويسرا لقضاء عدة أيام، أو ربما أسابيع، للنزهة والاستمتاع. دُعيت مرّات لقراءة مقتطفات من كتبي التي تُرجمت. لكن أن أعيش هناك، وجدت الأمر صعبًا عليّ بعد هذه السنين.

عدت إلى بيروت بعد ثلاثة أشهر، ورفضت تقديم طلب اللجوء في ألمانيا، كما اقترح عليّ الأصدقاء والأهل. لم يتحمّل عقلي فكرة أن أحمل هوية لاجئة. يكفي أن الصفة تسكن في رأسي.

اخترت بيروت كمنطقة وسط بين أوروبا الصارمة القاسية، وبين البلد الذي صُرنا نُطرد منه بالتدريج.

لكنني لست سعيدة في بيروت. كنت أحضر إلى هذه المدينة، أستمتع مع أصحابي العرب واللبنانيين، نسهر ونتناقش. بل لطالما ألهمتني بيروت بصخبها وتلوّنها وتحرّرها ولياليها...

أحب بيروت. لكن الفرق كبير بين أن آتي إليها بشوق ورغبة. أمضي أيامًا أو أسابيع ثم أعود إلى بيتي بالقرب من البحر، حيث أكتب هناك، وبين أن أجدني مجبرة على العيش هنا، لأن بيتي لم يعد متاحًا لي.

بيتي. يعرف الكثير من الذين قرأوا أعمالي عن علاقة الكتابة بالبيت، معنى ياء الملكية المرتبطة بالبيت. بيتي أي حميميّتي، مخيّلتي، إلهامي، داخلي الإبداعي... كتابتي.

منذ سنتين لم أعد قادرة على كتابة رواية. هاجسي أن أكتب يوميات الحرب والنزوح. أذهب إلى المخيمات، ألتقي النساء خاصة، أتعمّق في حياتهن، وأدوّن كل ما أجمعه من قصصهن: الأرامل، اللواتي أخذت الحرب أزواجهن. الأمهات اللواتي فقدن أولادهن في الحرب.

العاشقات اللواتي سلبتهنّ الحرب قصص حبّهن. النساء اللواتي يعشن في بلد، ورجالهن في بلد آخر، بانتظار لمّ الشمل وتجميع العائلة...

حين وصلتني الدعوة من جمعية القلم في بلجيكا لإقامة سنة ككاتب زائر، وهي حقّ لي كغيري من الكتّاب في العالم الذين يتلقّون مثل هذه الدعوات. قلت لنفسي إنني قد أجد مكانًا يعيدني إلى الكتابة. قد أتخلص من إعاقتي الكتابية، وأسترد حميميّتي مع السرد.

ربما يعتقد الآخرون بأن هذا ترف، لكنني كاتبة، والكتابة ليست ترفًا بجميع الأحوال.

رفض الفيزا، جعلني أحس بأننا صرنا نحن السوريين كائنات يُنظر إليها كخطر على هذا العالم، أو يتعامل معنا كما لو أننا كائنات متخلّفة، ليست بمستوى مواطنيها.

نعم أنا بخير في بيروت. لا حرب هنا، ولا اعتداء على كرامتي. ولا متطرفين يجبرونني على ارتداء الملابس التي تروق لهم ولا تروق لي.

هنا، أنا في النصف. جسدي هنا وعقلي هناك. إنها البلد واللابلد. بيروت أفضل مكان في العالم... بعد سوريا. ولذلك أحلم دومًا وأنتظر... لكن يا صديقتي عندما يطول الانتظار تكتئب النفس. لذلك كنت بحاجة إلى تلك الدعوة إلى بلجيكا.

حين أقرر أن أخرج إلى الشارع، ما إن أصل إلى عتبة الباب، حتى أحسّ بأن هذا المكان ليس مكاني. في أي يوم قد يخرج قرار ضدك كمهاجر أو لاجئ... لقد اضطررت إلى استخراج وثائق كثيرة وطلب مساعدة أصدقاء يكفلونني للحصول على الإقامة في بيروت. هنا، حيث كنا نمضي الوقت، سوريون ولبنانيون، بين سوريا ولبنان كأنها بلد واحد، صار على السوري تقديم وثائق للحصول على إذن

دخول... الحرب ليست فقط قصفًا وطائرات وبراميل وقذائف، بل هي حرب على السوريين في كل مكان. السوري صار يخاف الطرد، والنبذ، والرفض... أحيانًا أحسّ بأنني نكرة، وأفكر إذا كنت أنا الكاتبة التي لها كل هذه الصداقات تعيش هذا الوضع، ما حال أولئك الذين يعيشون في المخيمات وفي المنافي؟

بغتة فقدت سناء تماسكها وصارت تبكي. تقول بصوت حادّ كأنها تعلك الكلام: «يعني وين بدنا نروح بحالنا؟ لا سوريا بقيت سوريا، ولا العالم شايفنا إلا شحّادين وعبء عليه».

صمتت وكنت أسمع لهاثها، ثم قالت بصوت خشنٍ مبحوح:

«ساره، آسفة حبيبتي على ضعفي. يمكن نص الحكي اللي قلته تخبيص. بس أنا مقهورة، ساحيني، أزعجتك، أكيد مو ناقصك».

بقيت على صمتي لأكثر من دقيقة. وعندما هدأت قلت لها: لقد أسعدني بوحكِ على الرغم من الوجع... نتحدّث لاحقًا.

أشعلتُ سيجارة وحاولت وضع أغنية تريح أعصابي قليلًا. رحت أسمع: القلب معاك ثانية بثانية. كانت أمي تغنيها وتشرد وكأنها تسافر إلى بلاد بعيدة حين تدندنها، كأنها تركب في أرجوحة وتغفو... يطلع صوتها من امرأة أخرى تستيقظ بداخلها.

كانت أمي تصبح فجأة امرأة مختلفة، امرأة هائمة، مرِحة، مغناج. أمي المتحفّظة، الرصينة، المائلة إلى التجهّم، كانت هذه الأغنية تقلبها. كنت أتأمل أمي حين تغنّي الكلمات وتلفظ كل كلمة كأنها تحكيها: «إياك إياك، لابقى مخاصماك»..

حين تتوقف أمي عن غنائها، تنقلب إلى المرأة التي كانتها، مع مزيد من الحزن. كانت تبدو سعيدة وهي تغني، ثم ترتدّ إلى امرأة محبَطة. كم

كنت أتساءل وأنا مراهقة، أسمعها تغني بدلع الصبايا: «إياك تنساه وتزدله أساه».. هل أمي عاشقة فعلًا؟ من تتذكر وهي تغنّي؟ هل هو أبي الذي تغني له بهذا الشغف؟ لا أظن، أراهما يتصرفان ببرود، بل طالما ظننتهما أخوين يعيشان في بيت واحد كزوجَيْن، أو صديقَيْن دفعتهما الظروف للحياة معًا.

كنت أحب هذه الأغنية بصوت أمي، وكلما سمعتها، تذكّرت صوت أمي، حتى يمّحي صوت شادية. كنت غارقة في صوت أمي المُستعاد حين أشار لي السكايب إلى أن رولا على الخط.

الساعة الثامنة عشرة والنصف

حين تفتح رولا السكايب، فهي تفعل ذلك فقط لتتحدّث إليّ.

رولا صديقتي منذ السنة الجامعية الأولى. تعرفت عليها في كلية العمارة، وأمضينا خمس سنوات معًا. تمر عليّ كل يوم من أيام الدوام. تأتي بسيارتها من جهة محطة بغداد إلى الشهباء حيث أسكن، تزمّر لي نغمة توت توت مرّتين، ثم توت توت توت ثلاث مرات متتالية، نغمة (يسقط ديغول) المتفق عليها بيننا، أنزل من البيت إذ أكون جاهزة بانتظارها، ونتابع معًا طريقنا إلى كلية العمارة.

بعد التخرّج عملنا معًا في البلدية (القصر البلدي)، وتكرر الأمر، تمرّ عليّ، نذهب في غالب الأحيان إلى مقهى اعتدنا عليه في الشهباء، ثم نعود معًا إلى باب الفرج.

تزوجت رولا ونحن في السنة الأخيرة. كان مضر شابًا جميلًا عاد للتو من أميركا ومعه شهادة الدكتوراه في الهندسة وتم تعيينه أستاذًا في كليتنا... خلال أقل من سنة تحابا وتزوّجا.

حين غادرتُ سوريا، كانت رولا حاملًا.

أنجبت رولا وأنا في فرنسا، وضعت صبيًا سمّته ساري... كانت تقول إن أنجبت بنتًا سأسمّيها ساره، وإن كان صبيًا سيكون ساري.

رولا هي توأم روحي كما يقال... أختي التي لم تلدها أمي.

في السنة الفائتة، قرأت الخبر على صفحات الفايسبوك، وجننت من الصدمة والقهر.

كانت رولا في بيت أختها في سيف الدولة حين سقطت القذيفة على بيتها في المحافظة، وماتا معًا، مضر وساري.

قررت النزول إلى حلب، لكنها منعتني. قالت إنها ستغادر حلب، ومن العبث أن أنزل من أجلها بينما هي ستغادر.

غادرت رولا إلى بيروت، لكنها سرعان ما عادت بعد أربعة أشهر. لم تطق العيش هناك. عادت إلى دمشق، لتقيم عند خالها.

انضمت إليها أختها سميرة منذ شهرين، بعد أن سقطت العمارة التي تسكن فيها. كانوا نيامًا، نحو الساعة الخامسة صباحًا، أفاقوا على أصوات الاشتباكات. أفاق رامي مذعورًا، عمره سنة، شعر بالخوف من الأصوات، فزّت سميرة بملابس النوم وفي حضنها ولدها، كان تفكيرها محصورًا بنجاة ابنها، ولم تفكّر بزوجها.

غبار كثيف وقصف، ثم رأت العمارة تنهار. تركت كل شيء في البيت المنهار، ملابسها، نقودها، أوراقها الرسمية، شهادة ميلاد رامي... كل شيء... كل شيء.

حين عثرت على زوجها بعد يومين كان في المستشفى، فقد أصيبت ساقه إذ إنه لم يهرب عندما بدأ القصف. فكّر بلمّ بعض الأغراض المهمة من البيت، فسقط البيت وهو في الداخل. نجا، لكنه فقد ساقه اليمنى.

غادر مسعود، زوج سميرة، إلى الأردن، ثم إلى تركيا، ثم إلى

اليونان، إلى أن وصل إلى ألمانيا، وسميرة ورامي ينتظران حصوله على إقامة لاجئ ليستطيعا اللحاق به.

أما رولا، فهي متشبّثة بالبقاء وترفض ترك البلد.

تضحك رولا وهي تقول بصوت مكسور:

ـ لماذا أغادر وعمَّ أبحث؟ سأنتظر هنا كالآخرين، أن أموت في أي وقت، لم يعد لديّ ما أبحث عنه. فقدت مضر وساري ولم يعد لأي شيء أهمية بعد اليوم.

ترتعب رولا من فكرة التشرّد في الغربة. متعلّقة بسوريا رغم الحرب: «هنا أفهم الناس ويفهمونني»، تخاف من العيش في حياة أخرى لا تفهمها. تخاف من الانتظار في مخيمات اللجوء أو الكامبات. تخاف من الوقوف في طوابير بانتظار الطعام... ترتبك الكثير من التفاصيل المرعبة في مخيلتها وتقول لي بصوت متهدّج: هذا يعادل الحرب هنا. سأبقى إلى أن تنتهي الحرب أو أموت... هنا، على الأقل، سيكون ثمة من يخرج في جنازتي... هناك، سأموت وحدي، في قبر غريب، بين أناس لا يتحدّثون لغتي.

أنا أيضًا أخاف أن أُدفن هنا.

رولا معي على الخط. نتحدّث حين تتمكّن من الاتصال.

تقول: «عمْ تسمعي الأصوات... هلّق بيقطعوا الكهرباء!».

كنت أسمع أصوات القصف عبر السكايب. كنت أرتعد، بينما هي تدخّن. أراها عبر الكاميرا.

تحدثني عن ظاهرة غامضة اكتشفتها في رامي: إنه يجب أن يخاف.

كاد قلبي يتوقف من الخوف، حين راحت تشرح: رامي اعتاد على أصوات القصف والصراخ طلبًا للنجدة، وخوف الناس. اعتاد خوف أمّه وتأقلم معه كأنه الوجه العادي للحياة: أن نخاف.

حين أعجز عن تهدئته، حيث يتحرك كثيرًا ويشاغب. أفتح له فيديوات على الإنترنت، برامج أطفال، وأفلام كرتون. لكنه يعبث بأصابعه بمفاتيح الشاشة ويصرخ بي: بدي خاف!

يبحث عن أفلام الرعب ومقتطفات الحرب. لا أعرف كيف استطاع فتح رابط فيديو حين تركته لحظات وذهبت إلى الحمام، لأعود وأراه يضحك بمتعة أمام فيلم يوتيوب أخاف أنا في هذا العمر من مشاهدته: جثث محروقة ودماء متيبّسة على الجثث..

هل تعرفين، أعتقد بأن رامي وجيله، لن يستطيعوا عيش حياة من دون حرب. أعتقد أنه بدلاً من اشتغال المحللين النفسيين على فكرة الأمان والسلام لدى ضحايا الحروب، المرتاعين نفسيًا منها، هناك عمل مختلف. يجب الاشتغال على تثبيت مفهوم أن الحرب حالة استثنائية، وأن السلام هو العادي. رامي يشعر بأن العادي هو الحرب والخوف والقصف. إنه ينام بعمق حين يسمع أصوات المروحيات، هل تفهمينني؟

تحدّثني عن العتمة في دمشق. عن أصوات القذائف والمروحيات التي يسمعونها في الظلام. ولا يعرف الدمشقيون ماذا يجري حولهم. يفتحون الإنترنت عبر خطوط الموبايل، ويحاولون فهم مايحصل حولهم، عبر صفحات التواصل الاجتماعي.

لا أريد أن أهاجر يا ساره. أخاف من ترك هذا البلد، أخاف ألا أعود إليه أبدًا إن تركته. لا أريد الذهاب ثم الندم والحلم بالعودة... أريد أن أبقى. هل تفهميني؟

تكرر رولا كثيرًا عبارة (هل تفهمينني؟)، كما لو أن الفراق بيننا، جعلها تشعر بنقص تفاهمنا، أو لعلها تعتقد بأن حياتي في باريس، أنستني أجواء الخوف في حلب.

الساعة تشير إلى السابعة مساء. أشعر بألم في بطني، إنها آلام الدورة غير المنتظمة... كانت دورتي منتظمة في سوريا، هنا، تغيّر الأمر. أنتظر اتصال سوسن لأسمع أخبارها، أو بالأحرى تذمّراتها... هي تعيش وضعًا صعبًا.

تزوّجت سوسن باكرًا، كانت في السنة الثانية في الجامعة، في كلية الطب، وكانت متفوّقة دائمًا. ووعدت أبي بأن الزواج لن يؤثر على دراستها. لهذا وافق أبي على الخطوبة أولًا، بعد حصول سوسن على الثانوية العامة. ثم على زواجها قبل التخرّج.

أمي بذلت جهدها لمنع ذلك الزواج. كانت أمي خائبة باختيار سوسن. ولم تخفِ سوسن رأيها حين صدمت أمي وهي تواجهها: لأنه كردي؟

في فترة الخطوبة ظلّت أمي تحاول تغيير رأي سوسن بالزواج، إلى أن ملّت سوسن، وكان تذمّر أمي ومحاولاتها لثني أختي عن ذلك الزواج، هو السبب في أنها ولوركا، طلبا من العائلة تقديم موعد الزواج. كان أبي يصرّ على أن يكون العرس بعد تخرج سوسن. لكن سوسن لم تحتمل أمي...

ومع أن الكثير من الأهل كانوا يعتقدون بأن قصة الحب بين سوسن ولوركا قصة مراهقة وستمضي. فإنها، لوركا وسوسن، مع الأيام، ازدادا تقاربًا وتآلفًا، بل وتشابهًا. وهكذا وافق أبي على الزواج، وأذعنت أمي. واشترت عمتي بيتًا في نفس البناية التي تقطن فيها، في الطابق الأعلى، شقة أصغر من منزل عمتي. تزوج فيها العروسان.

أحاول أن أسترخي. أطفئ النور.

أسمع صوت خربشة... أشعل النور... أرى أنها فأرتي، تسطو على الجبنة التي تركتها على الطاولة، فثقبت الورقة وأكلت بعض الجبنة.

اكتشفت وجود الفأرة منذ أسبوعين. عادة أترك لها فتات الجبنة والخبز. فتأتي لتبحث عنها وتأكلها، اليوم وجدت كنزًا لأنني نسيت قطعة كبيرة. أكلتُ منها ما اضطرّني لمنحها القطعة كاملة.

أفكر بأنني وفأرتي شخص واحد. هي تشبهني، أو أشبهها. إذ يبدو لي أنها تعيش وحيدة.

أتذكّر أمي عندما كانت تغنّي لي: يا فارتي يا فارة، صوتك ملّا الحارة.

وحين تباغتني متلبسة بالجريمة وأنا أقضم الجبنة: الفارة سرقت الجبنة من البراد؟

كنت كلما فتحت البراد أبحث عن شيء ما، ألتهم أولًا قضمة من قرص الجبنة، ثم آخذ ما أريد...

تعطيني أمي زجاجات الماء لوضعها في الثلاجة، أفتح الباب، أقضم من الجبنة، أضع الزجاجات، ثم أقضم مجددًا من الجبنة، وأغلق الثلاجة.

أتخيّل نفسي فأرة في بيتنا في حلب. أركض من غرفة إلى أخرى وترعبني التغيرات التي حصلت. كأن تلك الحياة التي عشتها لم تعد موجودة. ترى هل ستعود؟ هل سأعود أنا؟ أغرق في ذكريات حميمة لكنها تبدو لي بعيدة.

الساعة التاسعة عشرة والنصف

تكتب لي سوسن على الفايبر: أنت بالبيت؟ اتصلي فيني.

أتصل بأختي، وأسمع الموشّح اليومي من التذمّر والبكاء. ديجافو[9] أحياه مع سوسن كل يوم، منذ سنة تقريبًا. بعد وفاة أبي بأربعين يومًا، جاءت سوسن إلى تركيا. فقد غادرت مع زوجها ووالده وأخي سمير. تابع الآخرون طريقهم إلى أوروبا عبر جوازات سفر مزوّرة يدفعون ثمنها مبالغ كبيرة لمافيات برعت في تزوير الوثائق وإرسال السوريين إلى أوروبا.

كان سمير قد باع بيته في حلب، ووضع ثمنه في خمسة جوازات أجنبية، له ولجميلة زوجته، وتوأم البنات: فرح ومرح، اللتين تبلغ كل منهما سنتين، وابنهما وليد ذي السنوات الأربع.

أما سوسن ولوركا فلم يكن لديهما المال الكافي للسفر عبر الطائرة بجوازات مزوّرة. فغادر لوركا برفقة والده، وظلّت سوسن في اسطنبول، بانتظار حصول لوركا على الإقامة، لتلحق به بعدها. إذ صارت هذه الحالة شائعة، عشرات الآلاف من النساء السوريات جالسات في مدن تركيّة بانتظار لمّ الشمل مع أزواجهن. ينوس الأولاد بين حياتين، حياة موقتة في تركيا، وحياة منتَظرة في السويد أو ألمانيا أو بلجيكا أو سويسرا أو الدانمارك أو هولندا...

يذهب بعض الأطفال إلى المدارس السورية التابعة للمعارضة، ويتعلّمون اللغة التركية إضافة إلى المنهاج السوري. وهم يعرفون، كما أهلهم، أن هذا التعليم لن ينفعهم كثيرًا في أوروبا، لأنهم سيبدأون هناك نظامًا تعليميًا مختلفًا، ولغة أجنبية جديدة.

ينوس الأطفال بين العربية والتركية، بانتظار أن ينخلعوا من هاتين اللغتين، ويتعلموا الألمانية أو السويدية أو الهولندية...

(9) Deja vu

تخبرني سوسن يوميًا هذا الكلام: أنا في اسطنبول، كل يوم أصحو على انتظار خبر سفري، إما إلى السويد أو العودة إلى سوريا. أنا في النصف بين سوريا ولا سوريا... بين حصول لوركا على الإقامة لنغادر إلى أوروبا، ونؤسس حياة جديدة هناك، وبهذا سيصعب علينا العودة إلى سوريا، إلا كزائرَيْن... وبين انتهاء الحرب، لأرتّب حقائبنا، ونعود، ولو قبل لوركا، إلى حلب...

من الصعب أن تعيش في المحطة، لا تعرف أي قطار ستأخذه، وجهة أوروبا أم وجهة حلب.

نفسيًا، لا تزال عيني على حلب. لا تغريني أوروبا بجمالها وأمنها وانفتاحها. ولولا الأولاد ربما بقيت في محطة اسطنبول بانتظار القطار المتّجه إلى حلب.

لكن أوروبا هي الوجهة المفضّلة من أجل أولادي... مع تمنياتي الدائمة ألّا تكون وجهة نهائية. أولاد سوريا قتلت الحرب مدارسهم وصفوفهم ومناهجهم، ويجب ألا تقتل مستقبل الذين فرّوا ونَجوا من الحرب.

سوسن التي تتمتّع بحسّ ساخر وروح مرحة، تستعيدهما أحيانًا رغم القلق على مستقبلها ومستقبل ولدَيها: «صار نصف الشعب السوري أوروبي. تخيّلي شوفير السرفيس، أبو عبدو زوج فاطمة، صار معه جواز سفر ألماني، وبيقول: عندنا في ألمانيا!».

تبكي سوسن قائلة: «ملّيت... مافي مصاري... بدي إرجع ع حلب، أمي لحالها، وأنا شو عم أعمل هون. بروح ع حلب، وبطلع بس ياخد لوركا الإقامة».

أقول لها: «لو معي مصاري بنزل لعندك، بس بطاقة الطيارة غالية عليّ».

ترد: «لو معك مصاري بدل ماترَوّحيهم عالطيارة بتبعتيلي ياهن... عم ناكل بطاطا وبرغل ورز كل الشهر، هافال ونايا مابيقولوا شي، بس بحسُّن كل الوقت مقهورين... قالت نايا تعو نرجع ع حلب، تيته لحالها حرام».

ينضم هافال إلى والدته، ويحدّثني بشغف عن اكتشافه للمترو الاسطنبولي. كان يتحدّث بالفرح نفسه الذي يتحدث به عن المباريات حين يلعب فريقه المفضَّل، ريال مدريد. قال: «خالتو، المترو شغلة بتجنّن، مو إنت مهندسة؟ ليش ما بتصمّمي مترو في حلب. أنا بس أكبر بدي أدرس هندسة، وبدّي صمم مترو لحلب مثل اسطنبول».

وضع هافال يده على وجعي وهوَسي: مترو في حلب!

استعادت سوسن الكلام، لتحدثني عن دفء المترو، وكونه وسيلة نقل عملية وحديثة، وفي الوقت نفسه مكان للّقاءات، ووصفته بأنه سوق متحرّك، أو شارع بكامله يمشي بنا. «تخيّلي أنك تلتقين في المترو بأشخاص يعيشون معك في المدينة نفسها ولا تعرفين. التقيت اليوم بعائلة تتحدّث العربية، وحين جذبتني اللغة العربية بحثت عن الصوت، لأجد جارتنا في البناية ذاتها في حلب، أم مأمون وابنيها: مأمون ورؤوف، تخيَّلي.

في المترو التركي، تسمعين لغات محبَّبة، أليفة: العربية، الكردية التي يفهمها أولادي أكثر مني، والتركية طبعًا».

ثم تعود نبرة الحزن لصوت سوسن: «ليش حلب مو هيك؟ ليش العالم اهتموا ببلادهم وطوروها، ونحن خرَّبنا البلد؟».

لا أناقش سوسن كثيرًا، فهي تتناقض في الساعة عشرين مرة، لديها عدة آراء ضد بعضها، فهي مرة مع الثورة لأن النظام فاسد واستبدادي

وقامع لأيّ حرية.. ثم هي ضد الثورة لأنها جلبت الخراب. وتارة هي مع العودة إلى سوريا، لأنه ما من بديل للوطن، ثم تتحدّث عن ضياع الوطن وضرورة حماية الأولاد وتأمين مستقبلهم، ثم تواسي نفسها: «بكرا بس يكبروا الأولاد بيرجعوا على سوريا، بيصيروا مهندسين وأطباء ومحامين ودكاترة وموسيقيين ومبدعين وبيعملوا سوريا أحلى من كل بلاد العالم». أتركها تواسي نفسها في حيرتها. يتّصل سمير على الفايسبوك. لا أرد عليه، وأتابع حديثي مع سوسن.

حين وصلت سوسن إلى اسطنبول، تواصلت مع إبراهيم ابن صديق زوج عمتي، الذي يشتغل في محل ترجمة، والده تركي ولديه جنسية. أختي تشتغل عنده في التنضيد على الكمبيوتر وبعض الأعمال المكتبية. تترك هافال ونايا، توأمها ذا السبع سنوات عند ملك زوجة إبراهيم، أولادها يذهبون إلى المدرسة، بينما أولاد أختي يبقون في البيت.

لم تتمكّن أختي من الحصول على عمل في مجالها. أن تفتح عيادة في تركيا يعني أن يكون لديها المال، الذي تبخّر كله في الحرب، أو أن تشتغل عند طبيب تركي، وهي لا تعرف اللغة، أو عند طبيب سوري، وهذا ما حاولت الحصول عليه ولم تفلح، وقد حاولت أن تشتغل في مؤسسة طبية سورية، وهذه الأخيرة كلها تابعة للمعارضة، وسوسن كان لها انتقادات على المعارضة وتنفر من هذه التقسيمات. صارت تكره الجميع، كرهت المعارضة بعد أن كرهت قبلها الموالاة.

أخيرًا رضيت بعمل مكتبي تجيده أي صبية غير حاصلة على البكالوريا حتى. رضيت بذلك من أجل دفع إيجار البيت، الغرفة، في اسطنبول حيث الحياة، مقارنة بين الليرة التركية وتلك السورية، مكلفة ويمكن ضربها بأربعة أو خمسة أضعاف كلفة الحياة في سوريا.

فَهم ما يحدث للسوريين اليوم، يشبه دراسة البكالوريا: دوار ـ وجع رأس ـ غثيان ـ حيرة ـ توتّر...

هذا على الصعيد الإنساني، أما على الصعيد السياسي والعسكري، فأنا فقدت الفهم منذ سنوات.

أحاول أن أرسم مخططًا هندسيًا، كما كنت أدرس في الجامعة، أو في العمل. مخطط أوضّح فيه أمكنة الناس الجديدة. لكن المخطط يتغير دائمًا...

تتوقف أختي عن مسلسلها الهاتفي اليومي، وتتذكّر بغتة، كما في كل مرة:

ـ نسيت أسألك، أنت كيفك؟

لا تنتظر سوسن مني جوابًا، فهي تعتبر أنني في النعيم. وأن الناس يقضون موتًا في البر والبحر ليصلوا إلى نصف أو ربع ما أنا فيه. توقفت منذ شهور عن الحديث عن أحوالي هنا أمام سوسن. أكتفي بالقول ردًا على سؤالها الأخير، الذي ما إن تطرحه حتى أفهم أن المحادثة قاربت على الانتهاء، وأنها فقط تطرح السؤال من قبيل الواجب فأقول: أنا بخير.

أنهي حديثي مع أختي سوسن، ثم أتصل بسمير في هولندا. كان سمير يزقزق من الفرح: اليوم أنهيت مقابلتي الأخيرة مع دائرة اللجوء. أتوقع قريبًا الحصول على الإقامة.

يرسم سمير أحلام الزمن القادم: غدًا أحصل على الإقامة ويعطونني بيتًا جميلًا ومناسبًا في أمستردام، وتأتين إلينا. أعرف أنك تشعرين بالوحشة والغربة. ستكونين بيننا في وضع أفضل.

نتطرّق إلى الحديث عن أمي. أشعر بأن مشاريعنا باتت بعيدة

عنها. هي وحدها في حلب. ونحن نتطلع إلى حياة أفضل في أوروبا، أعني خاصة سوسن وسمير، فأنا لم أحسم خياري، ولا أريد فرنسا ولا أي بلد غربي ولا عربي. أريد حلب.

يقول سمير: هذا حظها، إنها الحرب يا أختي. سأحاول جلبها إلى هولندا، بعد حصولنا على الإقامة. تعرفين وجود زوجتي والأولاد معي، يختصر مرحلة لمّ الشمل... سأحاول إقناع أمي بمغادرة حلب.

أضحك بمرارة، أعرف أن أمي ترفض ترك حلب. مع أنني لا أفهم سر تمسّكها بحلب، بعد موت أبي، ومغادرة أولادها الثلاثة.

سار سمير على خطى سوسن في الزواج المبكر، بل تفوّق عليها. تزوج بعد البكالوريا. قال لأبي إنه وحيد وليس مطلوبًا للخدمة العسكرية. وإنه لا يحتاج لمتابعة دراسته، بعد البكالوريا، إذ سيشتغل مع أبي، فهو ابنه الوحيد، وبالتالي لا يحتاج إلى الشهادات.

لم يكن سمير يحب الصيدلة والأدوية، كان يحب الرسم. ولم يكن فالحًا في الدراسة. وهكذا اختار الطريق القصير: أن يعمل مع أبي. كان هدفه من كل ذلك الإسراع في الزواج من جميلة التي كانت عائلتها تخطط لتزويجها من أحد أبناء عمومتها.

جميلة أيضًا هي حب سمير الأول. جارتنا في البناية. كانت تلعب معنا وهي صغيرة، قبل سن المدرسة. ثم درست الابتدائية في مدرسة سمير نفسها. كانا يذهبان معًا إلى المدرسة ويعودان معًا. وانفصلا في الإعدادية لكنه كان يوصلها إلى المدرسة، ويعودان معًا. كانت أم جميلة تقول لسمير: دير بالك عليها، إنت مثل أخوها. جميلة أختك تمامًا مثل سوسن وساره.

فاجأنا سمير وجميلة بحبهما الصامت. لم يبدُ عليهما ذلك الهيام

الذي لا يصعب اكتشافه عند المراهقين. كانا يتعاملان كأصدقاء وإخوة. إلى أن جاء سمير إلى أبي يومًا وراح يتحدث عن الزواج بشكل عام. وحين سمعت أمي كلامه فرحت ووافقت وأعجبتها وجهة نظره. ظنّت أنها ستبحث له عن عروس، لكنه اختصر أمامها الطريق: أمي، لا تعّبي حالك... جميلة ساكنة فوق، طابق واحد بيناتنا، ليش نروح لبعيد؟

سوسن وسمير تزوّجا قبلي أنا الأخت الكبرى، وأنجبا، بل تزوج كل منهما من أول حب صادفه. حياتهما بسيطة وغير معقدة. أنا فقط النموذج الصعب. لم أنجذب إلى رجل في حياتي، ولم يرق لي أي زواج عُرض عليّ.

كنتُ ساذجة، وربما ما زلت حتى الآن، أتخيّل أن البشر إخوة. النساء والرجال إخوة. أمضيت طفولتي بين لوركا وسمير وماجد، وبرفقة سوسن وجميلة. كنت لا أفرّق بين سمير ولوركا وماجد. أشعر بأنهم جميعًا إخوتي. أستغرب كيف انبثقت مشاعر مختلفة بين سمير وجميلة، وبين سوسن ولوركا. حين قالت أم ماجد لأمي ذات مرّة، بعد خطوبة جميلة وسمير: لماذا لا نزوّج ساره من ماجد! انتابني غثيان مباغت، وخفق قلبي من الخوف، وصرخت كالممسوسة: ماجد مثل أخي!

علّقت أمي على الفور: أنت تقولين عن جميع الرجال هذا الكلام. كلهم إخوتك؟

وقلت في نفسي وأنا حائرة ومستغربة من كلام أمي: الأمر ليس بيدي، ماذا أفعل؟ هكذا أشعر صوب كل من عرفته وقابلته، كلهم مثل سمير ولوركا وماجد... كلهم إخوتي.

كنت أظن بأن العالم يتألّف من إخوة، بالصدفة يختار أحد الأخوين: أخ وأخت، أن يعيشا معًا، ثم يأتيان بالأولاد من مكان ما.

أمي وأبي كانا يبدوان لي كأخوَين. لم أشعر يومًا أن بين أمي وأبي، مايشبه مانراه في الأفلام العربية، همسات ولمسات وقُبل وابتسامات وإغواءات. لم أرَ أمي يومًا تبدّل ثيابها أمام أبي، ولم تخصّه بمعاملة أو حركة مختلفة عما تعاملنا به.

لذلك حين كانت أمي تغني أحيانًا، حين تنسى نفسها، وتكون غارقة في شغل البيت، أتخيّلها تتحدّث لشخص آخر، غائب، أو تتحدّث عن رجل بعيد.

حين أدخل عليهما غرفة النوم، أقصد أمي وأبي، غالبًا ما كنت أرى أمي تدير ظهرها لأبي، حتى وهي تتكلم، كأنها تتحدث إلى رجل ما، يعيش في بلاد ما، بلاد بعيدة. وكانت هذه لعبتي قبل النوم في بداية مراهقتي، حتى طوّرت لعبتي وصار لي رجل، يعيش في بلاد ما، بلاد بعيدة، أتحدث إليه كل ليلة، فأغفو وسط الحكاية، التي أتأرجح فيها، كأنني طفلة. بدلًا من هدهدة حكايات أمي، أغفو مترنّحة على هدهدة حكاياتي عن رجل بعيد، يتغيّر اسمه في كل ليلة. أعرف أنه ينتظرني في مكان ما. هذا الرجل، هو الوحيد الذي لا أشعر بأنه مثل أخي.

انتهى حديثي مع سمير، الحديث الذي فاتني نصفه أو أكثر، بينما أخربش على ورقتي وأفكّر في أشياء غير حديث سمير، وغير ما أخربشه، كما لو أنني صحوت - يحدث لي هذا كثيرًا في المترو، أفيق عند المحطة التي سأنزل فيها، كأنني نائمة في المحطات الأخرى، إذ أغادر مكاني وأسافر إلى حلب غالبًا - كنت عن غير وعي أخطط ما يشبه رسمًا تخطيطيًا لمترو حلب.

هل كان هافال دافعي غير الواعي لأرسم المخطط، أم رغبتي الدائمة بتصميم مترو في حلب، يشبه مترو باريس.

كنت أحسّ بأن مترو باريس بمثابة حبلها العلني، لا السرّي. كانت باريس تربط أولادها ببعضهم عبر ذلك المترو، مَن مِن الباريسيين لم يأخذ المترو ولو لمرة واحدة في حياته؟ هذا شبه مستحيل. تجمع باريس أولادها جميعًا، أولادها البيولوجيين وأولادها بالتبنّي، أولادها الملوَّنين، ببشرات متعددة، ولغات متعددة، ولهجات متعددة، وأديان متعددة، وإيديولوجيات متعددة...

كنت أشعر بأن المترو هو الحبل الذي يغذّي باريس بالحب، وأن نهر السين هو رحمها.

الخريطة أمامي... تجمع بين خطوط باريس وخطوط حلب.

أجد نفسي رسمت الخط رقم 1، الأصفر، يبدأ من (قصر فانسان) ويستمر حتى الشاتليه، ثم يصعد صوب باب الحديد، ويمر بأحياء حلب القديمة، إلى أن يصل إلى القلعة.

الخط رقم 2، الأزرق، يخرج من (ناسيون) ويتدرج حتى يصل إلى الكلاسة، مرورًا بباب جنين، وسوق الهال.

الخط رقم 3، البيج، يبدأ من (غاليني) إلى أن ينتهي في سيف الدولة.

الخط رقم 4، الأحمر، ينطلق من (باب أورليون) وينتهي في الشهباء الجديدة، مارًّا بالخالدية وشارع النيل، والموكامبو..

الخط رقم 5، البرتقالي، من (بلاس ديتالي)، يمر ببستان كل آب، ثم يعكف على التل، ويكمل الطريق حتى كنيسة اللاتين.

يخفق قلبي وأنا أقرأ: بستان كل آب. وأستغرب كتابتها على ذلك

النحو. كنت أحار دومًا في طريقة كتابتها. إذ أستمتع بكتابتها كما كان أبي يلفظها في طفولتي، وكما يلفظها كل سكّان حلب: بستان كلاب، أو بستان كليب باللهجة الحلبية. وكنت دائمًا أتخيّل أن ذلك المكان هو بستان كبير مليء بالكلاب. وكنت أشعر بالغبطة، وأتحمس لرؤية ذلك العدد من الكلاب في بستان واحد. إلى أن كبرت وصححّت خطأي، وعدت إلى موسوعة الأسدي التي فهمت منها أن المقصود هو بستان كل آب... إلا أنني أفضّل أن أكتب اسم الحيّ كما تعلمته: بستان كلاب!

أنظر إلى الخارطة وأبتسم سعيدة كأنني أنجزت عملًا خارقًا. تبيّن لي في الرسم، أنني أجبت على سؤال لم أطرحه بوعيي. إذا كان السين رحم باريس، فما هو رحم حلب؟ الخارطة تشير، كما يحيط النهر الأزرق أغلب خطوط المترو، فإن قلعة حلب تربط معظم الخطوط في خطاطتي.

الفصل الثاني:

ما لا تعرفه ساره عن هدهد
أو العيش في حقيبة

لو أنّ القذيفة لم تقتل هدهد في ذلك النهار، لعرفت ساره الكثير، من خلال الحقيبة الخضراء اللمّاعة التي كانت هدهد تجهّزها طيلة تلك السنوات.

كانت هدهد تحكي الحكاية لنفسها، متخيّلة أن تحكيها ذات يوم لابنتها التي لم تنجبها، لكنها ربّتها ورعتها، كما لو أنها خرجت من جسدها، لا من جسد أختها:

حين وافقتُ على الزواج من وليد، وجاء لاصطحابنا، أنت وأنا، حمل وليد الحقيبتين اللتين جهّزتهما، واحدة لأغراضي، والأخرى لأغراضك.

ولكنني وأنا أنزل من السيارة، أمام بيت أهل وليد، وجهتنا الأولى في حلب، في حي الجدَيدة. انتبهت أن أباك قد أخرجَ ثلاث حقائب من صندوق السيارة.

أتممنا ثلاثة أيام في بيت أهل وليد ثم انتقلنا إلى بيتنا. وكان جدك لأبيك قد اشترى البيت. وسافر وليد عدة مرات إلى حلب لترتيب البيت وتجهيزه قبل مجيئنا. بالنسبة لي كانوا أهل وليد، إذ لم يكن بيني وبينهم سوى أنتِ!

حين غادرنا منزل أهل وليد بالحقائب الثلاث ، لم أستفسر عن الحقيبة الثالثة، متصوّرة أنها تحوي أغراض وليد. وفوق هذا كنت متعبة ذهنيًا إلى درجة لم أصدق فيها مغادرة منزل أهل وليد، فقد حوصرت بأسئلة لا أعرف إجاباتها، عن أعراض حملي، وإنجابي، وسبب غياب حليبي... كل هذا وأنا عذراء، لم أختبر تصص الحمل والإنجاب والرضاعة.

في مساء يومنا الأول، قال وليد: «هذه الحقيبة قد تهمّك.. لم أعرف ماذا أفعل بأغراضها (لم يذكر اسم الشخص الذي يعود إليه الضمير، لكنني فهمتُ أنه يتحدث عن أمينة). افعلي ماترينه، هذا حقّك وحدك».

حين ذهب وليد إلى العمل في صباح اليوم التالي، بقينا وحدنا، أنت وأنا والحقيبة الخضراء... فتحت الحقيبة، لتلفحني رائحة أختي.

بكيت طويلًا... لم أعرف لماذا بكيت؟ هل بكيت بسبب الأغراض التي عثرت عليها في الحقيبة، أم لأعوّض رغبتي المحبوسة بالبكاء خلال الأيام الثلاثة التي أمضيتها صامتة ومتماسكة في منزل أهل وليد؟

أثواب السهرة ، قمصان النوم الشفافة المزركشة، أقراط، أساور، قلادات، خواتم، عطورات لاتزال في علبها التي لم تُفتح بعد، كلسات وجرابات وملابس داخلية (لانجري) أنيقة خاصة بالعرائس... عالم أمينة الأنثوي مجموع في الحقيبة، حيث تركت كل شيء، وسافرت حاملة حقيبة يدها وجواز سفرها، وبعض الأغراض الصغيرة، كأنها ذاهبة لزيارة صديقة وقد تبيت لديها لليلة واحدة لا أكثر.

لمّ وليد عالم أمينة من البيت الذي كانا يعيشان فيه، ووضعه كله في تلك الحقيبة، غير قادر على رمي تلك الأغراض.

صور أمينة: صورها في الجامعة ـ صورها في المدرسة ـ صورها مع العائلة... صورها ببطنها المنتفخ بكِ، صورها تعانقني، ثم كثير من الصور

التي تجمعنا: أمينة وأنا معًا... وصورة داخل برواز نحاسي أنيق، لكلتينا، بكامل زينتنا وألواننا، في حفل نجاح أمينة في البكالوريا.

رحت أتصفح تلك السنوات: الطفولة الأولى - في بيت الجدة في حي الميدان - في المدرسة - مع بنات الحارة في ساروجة... المواقف كثيرة، والتواريخ والمراحل متعددة، والبطلتان الأساسيتان الظاهرتان في معظم الصور: أمينة وأنا.

حتى الأساور والأقراط والقلادات والخواتم... أذكر مكان تاريخ شراء كل قطعة منها: القرطان النحاسيان المصنوعان على شكل جرسين، اخترتهما لها حين خيّرتني أمينة بين قرطي النحاس وقرطي الفضة، كنّا في سوق الحميدية، ذات نهار ماطر في أيلول.

في ذلك اليوم، وضعت أمينة قرطيها في السوق وهي تدندن «ورقو الأصفر شهر أيلول»، بينما تأبطت ذراعها أكمل الأغنية معها ونتمايل طربًا...

العقد الفيروزي، اشتريناه معًا أيضًا، من سوق الحريقة. كانت أمينة يومها قد اشترت ثوبًا طويلاً من القطن الأسود، وحين رأيت العقد في واجهة المحل، لكزتها في ذراعها: انظري، يليق كثيرًا مع ثوبك الأسود...

كانت أمينة مولعة بالمجوهرات التقليدية، وتستعمل الكثير منها، في وقت واحد، كالغجريات، حتى أنها تحب الخلاخيل والخواتم في أصابع قدميها...

أما أنا، فكنت خجولة، وأخشى من استعمال الزينة والمجوهرات اللافتة للنظر. وكانت أمينة التي تكبرني تضحك مني: ذوقك كذوق المسنّات... من يراك يظن أنك الكبيرة وأنني الصغيرة.

كنت أتصفّح الصور وأقلّب محتويات الحقيبة فأستعيد أوقات التسوّق

والتسكّع مع أمينة. لكل غرض هنا، ذاكرة في قلبي، إلا قمصان النوم والملابس الداخلية، فقد خجلت من مرافقة أمينة لشراء تلك الملابس الشفافة، المُثيرة، التي تقتنيها العرائس كمستلزمات لتحريك رغبات الرجال.

أغلقتُ الحقيبة، بعد أن رتّبت الأغراض بعناية، وكدت أحصي الموجودات: أربعة فساتين - ثلاث منامات حريرية - عشرة قمصان نوم - عشرون سروالاً - تسع حمالات أثداء - ثلاثون خاتمًا - سبعة أزواج أقراط - ثماني قلادات - خمسون إسوارة - خلخالان... أففففف، سئمت من محاولة تذكّر باقي الأغراض، وذهبت لتحضير الطعام قبل موعد عودة وليد.

لو أنّ القذيفة لم تقتل هدهد في ذلك النهار، لرأت ساره كل تلك الأغراض، عدا الثوب الأخضر الذي تصرّفت به هدهد، من أجل أمها.

لو أن القذيفة لم تقتل هدهد في ذلك النهار، لالتقت هدهد بساره، وحكت لها الكثير من القصص المؤجلة طيلة تلك السنوات.

كانت تحدّثها في غيابها، وتشرح لها ما وقع من حكايات عاشتها بصمت، منتظرة اليوم الذي تكبر فيه ساره، وتتعرّف على كل شيء... ستفتح أمامها الحقيبة، وحين ستسألها ساره: لكنني لم أر هذه الحقيبة يومًا في البيت؟ كيف كنتِ تخفينها؟ ستحكي لها هدهد:

تكررت حالات استيقاظي من النوم، على صوت صراخي، ولم يجد الطب علاجًا لمخاوفي وهذياناتي في الليل، وقد ضاق أبوك ذرعًا بي، إلى أن صار يحلم بنوم عميق، من دون أن يفيق مرتعدًا من أصوات بكائي وصراخي في عمق الليل. كان ينام في الغرفة المجاورة، ويفيق على صراخي. مرّت ثمانية أشهر تقريبًا على عذاباتي الليلية، إلى أن وافقت على اقتراح عمتك نزهة، بحسب نصيحة معلّمة معها في المدرسة، بالذهاب إلى الحاجة

أم سعدو، التي سبق لها أن شفت حالات مماثلة لنساء مثلي من قبل، كما أكّدت الآنسة تماضر لعمتك نزهة، وأعطتها العنوان.

ذهبنا، عمتك وأنا، إلى منزل أم سعدو، في حي الجلّوم، حول القلعة.

رحت أحكي لأم سعدو تفاصيل ما يحدث معي: ثمة صوت امرأة يناديني بصوت كأنه يأتي من القبر: أمينة... أمينة... ويطيل حرف النون طويلاً، ثم أشعر بأن أحدًا يقترب من السرير، يصعد فوقي، يجلس فوق صدري، ويحاول خنقي، ويتحول الصوت ذاته، الممزوج بالصدى إلى ضحكات متتالية: أمينة... قهقهة... أمينة... قهقهة... حتى أفيق صارخة متعرّقة، عاجزة عن التنفس، أشعر بألم في صدري وعنقي، كأن ثقلاً حقيقًا كان يرزح فوق جسدي.

ـ إنها القرينة... قالت أم سعدو.

ـ قرينة؟ ما معنى هذا؟

وراحت أم سعدو، تشرح لي، وتطقطق بسبحتها الطويلة، من حبّات العقيق البني، أو الذي يدعونه (الكبدي): القرينة أو التابعة، سأشرح لك أكثر في الغد. أريد منك أن تتركي لي شيئًا من أثرك: قطعة ثياب ـ منديل ـ خيط من ثوبك...، أي شيء يحمل رائحتك، أضعه تحت رأسي الليلة قبل النوم... سأعرف التفاصيل في المنام، هناك الكثير من أنواع القرينات... أحتاج لليلة، لأتعرف على قرينتك.

تركت منديل العنق الحريري الوردي الذي كنت أزيّن به عنقي، وغادرت على أمل النوم من دون كوابيس، ومن دون محاولة (القرينة) خنقي من جديد.

لم أحكِ لأم سعدو كل شيء. كيف أشرح لها هذا: أنا اسمي هدهد ولستُ أمينة. ولكنني في الحلم أو الكابوس، أتحوّل إلى أمينة... تناديني

امرأة بهذا الاسم، وقبل أن أفيق أرى وجه امرأة أخرى مركبًا فوق وجهي: أرى وجه أختي.

صلّت فريال، أم سعدو، صلاة العشاء، وقرأت الكثير من الآيات القرآنية، وأضمرت في نفسها، أن حلم الليلة، سيكشف بعض الغطاء عن سرّ قرينتي. حكت لي أم سعدو هذا في اليوم التالي.

لم تكن فريال متيقّنة كثيرًا من وصفاتها، وكانت تقول للسيدات اللواتي يقصدنها طالبات العون، بأنها مجرد وسيلة، وأن الله وحده يعرف الغامض والمخفي من حياة البشر ومصائرهم، ولكنها كانت فقط تحاول خدمة السيدات عبر الحدس الذي كانت تمتلكه، ويزوّدها ببعض أسرار تتميّز بها عن غيرها من بنات جيلها.

كانت فريال في سن الخمسين تقريبًا، حين وهبت نفسها لخدمة العالم الروحاني للنساء، وكانت قد تعلّمت القراءة والكتابة على يديّ والدها الشيخ محيي الدين المعروف في المنطقة، والذي كان أستاذًا في المدرسة الخسروية القريبة من مدخل القلعة، ويُعتقد بأنه كان زميلاً للباحث المعروف خير الدين الأسدي، الذي كان يُدرّس في المدرسة ذاتها. كما أنها تزوجت من الباحث صبري حجّار، الذي درّس في مدرسة الشيباني التي كان مقرها في حي الجلّوم، حيث تسكن فريال اليوم.

أنجبت فريال صبيًا وثلاث بنات. سعد كان بكرها، وتُكنّى باسمه منذ ولادته حين كانت في العشرين من عمرها، فصار الجميع يدعونها بالحاجة أم سعد، ثم درج لقب اسم سعدو. أنجبت فريال بعدها بناتها الثلاث على التوالي: روعة - عروبة - بوران.

وحين قطعها الطمث، في التاسعة والأربعين من عمرها، وهبت نفسها لخدمة النساء، معتبرة نفسها وسيطة بينهن وبين عالم لا يعرف عنه إلا الله،

وتشي ببعض ما تصلها من تلك العلوم، بأمر الله، ولا تعمل إلّا في خير النساء وصالحهن.

نهضتُ في الصباح، وذهبت إلى الحمام.. توضأت وانتظرت خروج وليد إلى العمل، لأصلّي ثم ألحق بموعدي في الجلّوم.

رفضت أن تصحبني نزهة، مع أنه كان يوم جمعة، ونزهة لا تعمل في هذا اليوم. كنت قد خرجت باكرًا من البيت، مررت على نزهة، التي كانت لاتزال في ملابس النوم، تركت لديها ساره، مصرّة على الخروج وحدي، راغبة بالتوجّه بداية إلى جامع زكريا، أصلي هناك ركعتين رجاء، أتوسل الله أن يشفيني من هذه الكوابيس، ثم أتدرّج مشيًا صوب خان الشونة الذي مررت سريعًا أمامه البارحة مع نزهة، ونحن داخل سيارة الأجرة، وقالت نزهة: هذا خان الشونة الشهير عندنا، كأسواق الحميدية في الشام.

من خان الشونة، يصبح الوصول إلى الجلّوم سهلاً.

وكأنني نسيت موعدي مع فريال، سحرتني الأحياء القديمة، والشوارع الضيقة، والبيوت العربية المبنية على طراز ساحر، والبلاطات الغريبة على الأرض، تلك الحجارة اللماعة الناتئة التي تغسلها باستمرار المياه الكثيرة المتسربة من البيوت...

حين وصلت إلى بيت فريال، وضعت يدي على رأس الأسد البرونزي، أو (السقّاطة) كما يدعونها في حلب، وطرقت به ثلاث مرات، انفتح الباب، وظهر من خلفه وجه بوران.

كنت أتول لنفسي البارحة، إن بوران تشبه أحدًا تعرفه، حصلت فجأة على الجواب، حين قالت لي بوران: أمي فوق، عالسطح، ناطرتك. قلت لها مبتسمة: بتعرفي إنك بتشبهي نجلاء فتحي؟ ابتسمت بوران وردّت: الكل هيك بيقول.

ما إن وضعت قدمي على أول الدرج، حتى هبّت رائحة اختلطت عليَّ، بين الياسمين أو الفل أو القرنفل... وأحسست بأنني مغمورة بتلك الرائحة، فانتعش قلبي، وأحسست بمزيد من الراحة.

كل شيء في بيت أم سعدو يدعو إلى الراحة... وصلت إلى السطح، شهقت من جمال المشهد. كانت أم سعدو جالسة على أريكة كبيرة من الخشب، تضع تحتها فرشة قطنية منفوشة وعالية قليلاً، تريح مؤخرتها عليها، وتحيط بها أشكال وألوان هائلة من الورود.

«ماشاء الله... ماشاء الله...» رددتُ مسحورة.

«أهلين يا بنتي... تعالي اقعدي جنبي».

جلست بجوار أم سعدو، التي أمسكت بيدي بحنان، وقالت:

- أنت شو اسمك يا بنتي؟ أنت عندك سر... ما اسمك أمينة، صحيح؟

- هدهد.. اسمي هدهد.

أجبتها وأنا أغصّ بالبكاء.

- مين أمينة؟

- أختي...

- طويلة وشعرها طويل؟

- نعم.

- شو آخدة منها؟

ارتعد قلبي، واستغربت، ورحت أفكر، هل أجيبها أنني أخذت ابنة أمينة منها؟ أم زوجها؟ ولكني لم آخذ منها شيئاً، أمينة هي التي تركت كل هذا... رحت أبكي متحدّثة بصوت متهدّج يتداخل مع البكاء:

- هي تركت كل شيء وراحت... أنا حافظت على ما تركته... ليس لأجلي، بل لأجلها.

ـ هل يوجد لها غرض في بيتك؟
ـ غرض! ماذا تقصدين بغرض؟
وكان قلبي يرتعش وأنا أفكر بكِ يا ساره.
ـ أقصد ملابسها وأغراضها الخاصة.
أجبت على الفور: نعم وضعها زوجها... (وتلعثمت وارتبكت...) في حقيبة، وأحضرها إليّ.
أدركت أم سعدو ارتباكي. كنت خائفة، لكنني أحسّ باطمئنان نحو الحاجة أم سعدو، فحكيت لها حكايتي كاملة. اقترحت أم سعدو عليّ التخلص من تلك الحقيبة: «الحقيبة مسكونة بروح أختك... طالعيها من البيت، حتى تنامي. قرينة أختك، تأتيك من دون موافقة أختك... تتبعك... أخرجي الحقيبة، وبعدها ستحبلين وتعيشين حياتك العادية مثل كل النساء».
ـ ممكن أتركها عندك أمانة؟ ربما تعود أمينة ذات يوم لأخذ أغراضها؟
طلبت ذلك من أم سعدو، وفي اليوم التالي، حملت لوحدي الحقيبة الثقيلة بيد، وحملتك بيد أخرى، أوقفت سيارة أجرة، واتجهت إلى الجلوم، إلى ذلك الشارع الضيق الذي يقع فيه بيت الشيخة أم سعدو.
في ذلك المساء، بعد أن عدت من بيت أم سعدو، رامية ثقلي هناك. كنت جالسة مطمئنة، أضعكِ في حضني، وقد مرّ على زواجي الشكلي بوليد، قرابة السنتين، وأنا لا أزال عذراء.
كان عيد ميلادك الثاني يقترب، وكنا أنا ووليد نلعب بك كدمية، غفوت في حضني في الصالون، فحملتك لأضعك في السرير في غرفتي التي ننام فيها وحدنا، أنت وأنا. وقف وليد خلفي و احتضنني قائلاً برقة:
ـ ألم يحن الوقت؟

كان ذلك قبل عيد ميلادك الثاني بشهرين تقريبًا، في شهر أيلول. بعدها بأسبوعين لم تأتِ دورتي الشهرية في موعدها، تأكدت أن الحبل وقع في ذات اليوم الذي دخل وليد غرفتي، وفي اليوم الثاني، ألغى غرفة النوم المجاورة الخاصة به، وانتقل نهائيًا للنوم معي، محوّلاً غرفته إلى غرفة نوم للأطفال، لكِ آنذاك، وتمهيدًا لطفل عرفنا أننا ننتظره.

لو أنّ القذيفة لم تقتل هدهد في ذلك النهار، لعرفت ساره الكثير عن أيام الجمعة. ثلاثون عامًا من أيام الجمع، في أول جمعة من كل شهر، تتّجه هدهد صوب الأمكنة ذاتها.

تضع ساره عند نزهة، ثم صارت تضع ساره وسوسن عند نزهة، ثم صارت تضع ساره وسوسن وسمير عند نزهة، أو عند جارتها أم جميلة، لتذهب في طريق نذرها الأزلي.

قالت نزهة مازحة ذات مرة، بل ربما انتابتها الشكوك: «ماذا يوجد هناك؟ في كل أول جمعة من كل شهر؟ ما هذا الموعد المقدّس الذي لا يصحبك إليه أحد؟ هل لديك عشيق يا زوجة أخي الفاضلة؟» وختمت عبارتها بالضحك.

ردّت هدهد يومذاك: «إنه نذر يا ابنة حماي الفاضلة... نذر يجب أن أؤديه وحدي: الصلاة في جامع زكريا، ثم بعض أفعال الخير التي لا يجب المجاهرة بها، وفي طريقي أتسوّق بعض الأشياء من الأسواق القديمة، في المدينة أو الشونة أو المحال حول القلعة».

ومرة قالت لوليد حازمة، كي لا تنتابه الشكوك: هذا نذر يا وليد... هناك بيوت أساعد صاحباتها... نساء فقيرات نذرت لهنّ قبل شفائي، وها قد شفيت.

هزّ وليد رأسه، غير معترض على سلوك زوجته، فهو لا يجرؤ على رفع رأسه اعتراضًا أمامها، عرفانًا بالجميل، ومحاولة للتخفيف من ذنب استمرار حبه لأمينة.

في صباح الجمعة التالي، بعد التخلّص من الحقيبة، بعد أسبوع واحد فقط، أفقت على قلق غامض. أحسست كأنني أخون أمينة. كيف أتخلّى عن أغراض أختي؟ جهّزتك وجهزت نفسي للخروج، واتجهت مباشرة إلى بيت أم سعدو.

فتحت بوران الباب، وحاولت طمأنتي، إذ كان القلق باديًا علي:

ـ تفضلي... أمي قاعدة تحت، في غرفتها..

وحاولت أخذك من يدي، فرميت بنفسك على الفور بين أحضان بوران، ما إن رأيتها تفتح ذراعيها لاحتضانك.

دخلت على أم سعدو قلقة، وتركتك مع بوران:

ـ أين الحقيبة يا خالة؟

نهضت أم سعدو، وأخرجت مفتاحًا من جيبها، واتجهت صوب الخزانة الخشب في الغرفة، فتحت باب الخزانة وأومأت لي:

ـ انظري.

ـ أأستطيع استعادتها؟

ـ طبعًا، هذه أمانة عندي، تأخذينها متى ترغبين، ولا أحد يمسّها في غيابك، ولا حتى أنا.

ارتبكت وقلت لأم سعدو:

ـ منذ أسبوع لم تعاودني القرينة، هل من الممكن أن تعود إن استرجعت الحقيبة؟

ـ تعالي... دعينا نشرب القهوة وتفكّرين على مهل.

أعادت أم سعدو إقفال باب الخزانة، ووضعت المفتاح في جيب ثوبها، ثم خرجنا معًا، أنا وأم سعدو الخمسينية، متوجهتين صوب الغرفة الكبيرة، حيث تستقبل أم سعدو ضيفاتها. كان ثمة نساء بانتظار أم سعدو، التي كانت تستعد للخروج إليهن قبل وصولي بقليل. كانت بوران تلاعبك، وكان ضحكك يملأ البيت. تعرّفت على بعض السيدات، وعرفت أن روعة، الابنة البكر لأم سعدو موجودة بينهن، وكذلك مُنية، كنتها، زوجة وحيدها سعد.

أحضرت مُنية صينية من النحاس، عليها فناجين القهوة، وطبق زجاج كبير، صفّت فيه شرائح مربّى الكباد. كانت تلك أول مرة أتذوق فيها مربى الكباد مع القهوة، وغمرني السلام فجأة.

أنهيت قهوتي، ونهضت أجلس قرب أم سعدو، هامسة في إذنها:

ـ أرغب بالجلوس هناك.

لم تكن أم سعدو تحتاج إلى مزيد من الشرح فناولتني المفتاح. توجهت صوب بوران. أخذتك من بين يديها، وذهبت بك صوب الحقيبة.

أقفلت الباب أولاً علينا، ثم فتحت الخزانة وسحبت الحقيبة... ما إن فتحتها، حتى هبّت رائحة أمينة علينا... ورحتِ تتأملين الأغراض في الحقيبة، وتعبثين بها سعيدة.

لم أنتبه يومها إلى مرور الوقت، وقد أفرغت كامل محتويات الحقيبة، ورحت أرتّبها مجددًا وأنا أحكي لك قصة شراء كل قطعة على حدة، بينما كنتِ منهكمة في العبث بالأغراض، والتشبث بالألوان.

حين سمعت صوت الأذان، انتبهت إلى الساعة. لقد وصلت قبل صلاة الظهر، ولم أنتبه لصوت المؤذن، وها هو يعلن موعد صلاة العصر، ولا أزال محبوسة معك، في غرفة أم سعدو، حيث لم يدخل علينا أحد ويقطع خلوتنا مع الحقيبة.

حين عدنا إلى البيت، كان وليد قد وصل قبلنا.

مددت رأسي من الباب الموارب، وحين لمحته مستلقيًا على السرير ببنطاله وقميصه، أعدت إغلاق الباب، وحملتك وأنت تحتجّين وتحاولين التملّص من بين يدي، إذ إنك ما إن لمحت والدك في الغرفة، حتى سارعت للدخول عليه. لم أتركك توقظينه، بل اتجهت بك إلى المطبخ، أحضّر طعام الغداء الذي تأخر عن موعده، ثم جلست في الصالة أطعمك، منتظرة وليد لنتناول طعامنا معًا.

لم يسألني وليد عن سبب تأخري، ولا عن المكان الذي ذهبت إليه. قلت له باقتضاب، إنني ذهبت إلى السوق ولم أنتبه إلى مُضيّ الوقت. ولم أحدثه أصلاً عن زيارتي لأم سعدو، منذ أول مرة مع نزهة، ولا في اليوم التالي.

كانت علاقتنا مُحاطة بكثير من الصمت. كأن وليد يخشى أن يفتح الحديث بيننا أية دفاتر قديمة حاول إغلاقها، كنت أعرف أنه مغمور بالإحساس بالجميل صوبي، لأنني ضحّيت بالزواج منه. وكان ذلك من أجلكِ أنت فقط.

أمضيت أسبوعًا ثانيًا من الهدوء وغياب الكوابيس. ولاحظ وليد تحسّني بل شفائي تقريبًا. وحين أثنى على ذلك، قلت له باقتضاب: إنها أم سعدو، وأنا مدينة لها بالكثير. وحين هزّ رأسه متسائلاً عن صاحبة ذلك الاسم، قلت: سيدة مُباركة... ذهبت إليها ورقتني... ومنذ تلك الرقية، وأنا في تحسّن. لم يعلّق وليد الصيدلي المؤمن بالعلم، ولم ينتقد سلوكي، طالما أنني أشعر بالراحة.

في ثالث يوم جمعة، بل في ليلة الجمعة وقبل طلوع الصباح، وبعد أسبوعين من التخلص من الحقيبة، وبعد أسبوع آخر من تفقّد الحقيبة: جاءتني أمينة.

لم يكن المنام مرعبًا، ولم أسمع أصواتًا تناديني باسمها، ولم يحاول أحد خنقي، بل كانت أمينة تبكي بصوت منخفض، وحين سألتها عن سبب بكائها، قالت معاتبة: تركتني وحدي هناك داخل الحقيبة... عتمة وصمت، أنا خائفة.

حين أفقت من النوم، أحسست برغبة قوية في الذهاب إلى بيت أم سعدو وتفقّد الحقيبة. توجهت أولاً صوب نزهة أسألها الاعتناء بك ساعات عدة لقضاء أمر مهم، ووافقت نزهة التي كانت تعتبر نفسها أمًا ثانية لك. وهكذا اتجهت صوب الجلوم. طرقت برأس الأسد البرونزي ثلاث طرقات، فخرجت روعة هذه المرة، وطلبت مني أن أنتظر لحظات في باحة الدار، لأن أم سعدو منشغلة مع ضيفة أخرى. كنت متوترة فطلبت من روعة أن تسأل أمها عن مفتاح الغرفة. جاءتني روعة بالمفتاح، لأدخل الغرفة، وأفتح الخزانة، وأكرر تفاصيل الأسبوع الفائت: أخرجت جميع الأغراض، تفقّدتها قطعة قطعة، ثم أعدت ترتيبها، وضعت الصورة المحاطة بإطار ذهبي، صورتنا معًا، أمينة وأنا، فوق الأغراض المصفوفة، ورحت أتكلم مع صورة أمينة أمامي.

ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات تقريبًا، وأنا أبكي متحدّثة إلى أمينة عن كل ما حصل بعدها وخصوصًا أطمئنها عنك... تكلّمت وتكلّمت إلى أن سمعت صوت المؤذّن. أغلقت الحقيبة وأعدتها إلى الخزانة، أقفلت باب الخزانة بالمفتاح، وغادرت من دون أن يتسنى لي الوقت لرؤية أم سعدو، المشغولة مع ضيفات أخريات، يزرنها على التوالي، للاستعانة بها في حل أزماتهن.

كان الوقت قد تأخّر أكثر هذه المرة، إذ ذهبت إلى بيت نزهة أولاً، لإحضارك. دخلنا المنزل وأنا أحرص ألا تحدثي ضجيجًا يوقظه، إلا أن

وليد لم يكن نائمًا، فهرعتِ إليه ما إن رأيته في المطبخ. وللمرة الثانية لم يبدِ والدكِ انزعاجًا من عدم وجودي في البيت. بل راح يحضّر طعام الغداء المتأخر. كان يقلي شرائح البطاطا مع السجق وقد أعدّ طبقًا أنيقًا من سلطة الخضار... ابتسمت يتملكّني بعض الإحساس بالحرج:

ـ رائحة السجق بتفتح الشهية!

ـ هيا، بسرعة، الأكل جاهز، ردّعليّ.

لو أنّ القذيفة لم تقتل هدهد في ذلك النهار، لروت لها حكايات يوم الجمعة، التي صارت طقسًا ثابتًا. إذ تعيش كل أيام الشهر، منتظرة هذا اليوم الذي صار طقسًا في أول يوم جمعة من كل شهر. كانت هدهد تذهب في الصباح، تترك ساره عند نزهة، وتتجه إلى الجامع الكبير، أو جامع زكريا كما تدعوه أم سعدو وهدهد ومعظم أهالي حلب، ثم تتوجّه صوب بيت أم سعدو، تجلس مع الحقيبة، تخرجها من العتمة، تهوّي الأغراض وتبكي أمام الصورة، وتحكي ما وقع لها من أحداث طيلة الشهر، وكأن المنفذ الوحيد الذي تطل منه هدهد على الفضفضة والكلام، كان فقط في هذه الغرفة، أمام روح أمينة العالقة في الحقيبة. ثم تُنهي هدهد زيارتها، بالتسوّق في خان الشونة وأحيانًا تعرّج على سوق المدينة.

كانت هدهد تختزن كل هذه التفاصيل، مقررة بينها وبين نفسها، أن تأخذ ساره من يدها، في عيدها الثلاثين، وتتجوّل بها في الأماكن التي أخذت ثلاثين سنة من عمرها.

كانت هدهد تنتظر يوم الجمعة من أول كل شهر، كأنها على موعد مع أمينة، التي تعيش في الحقيبة، تنام فيها طيلة الشهر، منتظرة إطلالة هدهد لتفيق. كانت هدهد، في كل أول يوم جمعة من كل شهر، على موعد مع كثير من الأشياء: على موعد مع الصلاة في جامع زكريا ـ على موعد مع اللقاء

بأشخاص جُدد في الجامع، فقراء ومتسولين وطالبي صدقات ومعونات ـ على موعد مع الجلسات الممتعة في بيت أم سعدو، والاكتشافات المتتالية من شهر لآخر، وهي تتعرّف على تطورات حياة عائلة أم سعدو: بناتها الثلاث، وكنّتها، وأحفادها الكُثر الذين يصعب حصرهم بالنسبة لهدهد ـ على موعد مع الخانات ـ على موعد مع التسوق المُباغت غير المخطط له من أسواق المدينة ـ على موعد مع تلك الحارات القديمة التي تُنعش روحها...

صار بيت أم سعدو جزءًا من عالم هدهد ومن عالم ساره الطفلة التي صارت تأخذها معها في كثير من الأحيان. ولو أن القذيفة لم تقتلها لحكت الكثير عن ذلك البيت الحلبي الأصيل: عن فطور الصباح المتأخر، مع العائلة المكوّنة من النساء والأطفال فقط. عالم من دون رجال، فطور على السطح، بين علب الورد والريحان والفل تحت شجرة الياسمين وأوراق دالية العنب، حين يكون الموسم دافئًا. وفي الشتاء، قرب مدفأة المازوت في الغرفة الكبيرة. فطور حلبي غنيّ فيه أنواع المربيات التي تصنعها بنات أم سعدو، والمكدوس الذي تتميز مُنية بتحضيره، والزيتون الأخضر والأسود، والزيت والزعتر، والجبنة المشلشلة... وعالم من القصص والسرديات النسائية وأوقات الفرح مع بنات أم سعدو، خاصة مُنية التي كانت تعزف على العود، وكان لها صوت ساحر، وقيل إن أمها كانت قريبة المغني المولود في حي الجلوم، صبري مدلل، وإن مُنية أخذت عن أمها، التي أخذت عن صبري مدلل، قواعد العزف والغناء.

ذات يوم وكانت مُنية تعزف على العود، انطلقت ساره في الغناء على نحو أدهش عائلة أم سعدو، وخاصة لجهة نطقها السليم وتأثرها وهي تغني مع مُنية ببعض الأغاني الصعبة وهي لمّا تبلغ السابعة من عمرها بعد... ومنذ ذلك اليوم، كفّت هدهد نهائيًا عن اصطحاب ساره معها...

وقعت هدهد في غرام حلب القديمة. كأنها مدينة أخرى غير تلك التي تسكن فيها. الخانات، والأسواق، والجادات الضيقة، وطراز العمارة، ولون الحجارة...

حاولت في البداية عقد مقارنات بين دمشق وحلب، ثم اكتشفت خصوصية حلب. كانت تشعر بسعادة غامضة وطمأنينة تغمر روحها، حين تسير في الطرقات المرصوفة تنتعل حذاء منخفض الكعب، مخصصًا لهذه الحارات، إذ انكسر كعب حذائها الرفيع ذات مرة، عالقًا بين بلاطتين..

كانت تشعر بارتياح غامض، كأنها تتحرّر من الزمن، كلما أوغلت في تلك التفرّعات من الطرق والزواريب الصغيرة، ويخفق قلبها أمام كل تفصيل جديد: حنفية ماء للعموم، مع طاسة نحاسية مزركشة بآيات من القرآن، «سقاطات» البيوت بأشكال مختلفة، رائحة الشجر التي تملأ المكان، رائحة الطعام، ملابس النساء الحلبيات اللواتي لا يشبههن في تلك الملابس غيرهن من نساء باقي المدن: الباجاية (غطاء الوجه الأسود الرقيق)، ومعطف قد يقصر أو يطول، وحذاء بكعبٍ عالٍ تجيد صاحباته انتعاله والسير فوق تلك البلاطات الملساء التي تخشى هدهد من الانزلاق فوقها... كما كانت بعض النساء أيضًا ترتدين (الملحفة)، والتي عرفتها هدهد في دمشق، والتي تشبه العباءة، لكنها من قطعتين، وأيضًا ترمي إحداهن ذلك المنديل الأسود الرقيق على وجهها.

هدهد، ولكي لا تكون ملفتة للنظر كثيرًا حين تدخل تلك الأحياء مرتدية (تيوراتها) الأنيقة، كأنها فاتن حمامة في السبعينيات، وكلسات شفافة تُظهر أناقة ساقيها مع تصفيفة شعر معتنى بها، صارت تضع منديلاً خفيفًا على رأسها، من أنواع تلك المناديل التي اعتادت وضعها على عنقها. ترفع المنديل إلى ما فوق رأسها، حين تقترب من تلك الحارات، متخيّلة

أمينة المتمردة، بملابسها وألوانها الفاقعة، وهي تقول لها متهكّمةً: أنت تشبهين مديرات المدارس في سينما الستينيات.

كانت مشاعر هدهد صوب أختها الغائبة، متناقضة ومتداخلة بشدة، كأنها خيوط من الصوف العالقة بكرةٍ من الشوك. تشعر بالشوق والافتقاد لأمينة، وأحيانًا تشعر بالكراهية، وفي أوقات أخرى، لا تجد غيرها لتبوح لها بمشاعرها، كما كانت تفعل كل واحدة منهما مع الأخرى: أختها، ومأمن سرّها. وغالباً تشعر بالحقد والكراهية لأنها تركتها وابنتها وجعلتها تعيش حياة ليست لها مع رجل غريب لا تشعر صوبه بأية مشاعر. ومن حين لآخر تشعر بالدّين، كأنها تحتفظ بأمانة، كما تحتفظ أم سعدو بالحقيبة، إذ تتعامل هدهد مع ساره، كأنها ليست من حقّها، بل هي ابنة موقتة إلى حين عودة أمها...

كانت هدهد، تأخذ مبلغًا ثابتًا من المال، في نهاية كل شهر، وكان يزيد من سنة لأخرى، من دون أن تطلب، ووليد لا يسألها أين تذهب بالمال أبدًا، فقد أخبرته لمرة واحدة فقط، عن رغبتها بتخصيص مال للتبرع به لمحتاجيه. كانت تقسم المبلغ إلى ثلاثة أقسام: قسم تتبرع به على الفور في المسجد، بعد صلاة الجمعة، وقسم تناوله لأم سعدو باليد لتقوم بدورها بتوزيعه على من تعرفهم من المحتاجين، وقسم ثالث تتسوّق منه كلما خرجت لموعدها الشهري وتعود بمفاجآت على جميع من حولها...

كانت تعود هدهد من الأسواق، حاملة أغراضاً غير متوقعة، تنتظرها نزهة وأم جميلة، ثم صارت تنتظرها ساره وسوسن حين كبرتا: أكياس من الحنّة - أكياس التفريك - عطورات - حقائب نسائية مشغولة باليد - مطرزات متعددة تُستعمل كمفارش طاولات، أو أغطية سرائر ومخدات، أو «مساكات» المطبخ المُحاكة بالصوف الملون، أو ملابس داخلية

وإكسسوارات... كان لا يمكن لهدهد أن تعود من مشوار يوم الجمعة خالية اليدين، إلى أن صارت نزهة والبنتان يدعونها مازحات: الأم نويل. وكانت تلك الأجواء المرحة التي تخلقها مفاجآت فتح الأكياس، تخفّف عن هدهد آلام اللقاء بأمينة، التي تبكيها لساعات.

كانت هدهد تعيش حياتين، حياتها الصامتة مع العائلة، وحياتها مع أمينة، عبر الحقيبة. كان يوم الجمعة من أول كل شهر، هو الفرصة الوحيدة للبوح بالكلام الذي يختزنه صدرها، تقوله كما تحسّه من دون رقابة، لا خارجية ولا ذاتية. تُخرج هدهد أمينة من الحقيبة، وتروي لها قصص الشهر: بدأت بحكاياتها عن ساره، ثم صار الحكي عن ساره وسوسن، وراحت تعقد المقارنات بين البنتين وبينهما، أي هدهد وأمينة، وتحكي لها قلقها وفرحها وخوفها...

لم يسمع أحد يومًا بوح هدهد، أو سردياتها المُغناة على وزن الشلعيات[١٥]. كانت تسرد مغنيّة تلك الآلام والأمنيات... تبكي وتغني وحيدة، قبالة الحقيبة، إلى أن تُفرغ مخزونها من الكلام والبكاء، فتغادر بيت أم سعدو، كأنها كائن جديد، أفرغت خزان الوجع، ومستعدة لملئه من جديد خلال الأسابيع الثلاثة القادمة.

كانت هدهد تبدو صارمة وقاسية مع ابنتيها، ولكنها في العمق، كانت تخاف على ساره، ولم تكن تتهاون معها في رغبتها بالغناء، إذ تخاف أن يُفسد حُب الشهرة حياة الصبية كما أفسد حياة أمها، وتخاف من عودة أمينة ولومها أنها لم تعتني بابنتها كما يجب، وتخاف أن ينكشف السر ويترك آثارًا سلبية على ساره...

---

(١٥) لون غنائي شعبي ظهر في شمال فلسطين في فترة «السفر برلك» فترة التجنيد الإجباري العثماني للشباب، سميت بذلك لأنها تشلع القلب من كثرة الألم فيها.

ما لاتعرفه ساره عن حقيبة أمينة، لن تعرفه أيضًا عن حقيبتها هي. إذ كان لحقيبتها الفضل، في اكتشاف طريقة جديدة، لتجميع الذاكرة ورصفها في تلك الأكياس الشفافة من قماش معرّق ومشجّر، كقماش الستائر الحرير.

تحكي هدهد متذكّرة بداية التوصّل إلى تقنية الأكياس الحافظة للذاكرة:

بدأت القصة، حين كبرتِ قليلاً، ورحت أحفظ (ديارتك)[11] في صُرة خاصة، تماماً كما فعلت مع ملابس سوسن لاحقًا، وملابس سمير.

كنت أحتفظ بمعظم ملابسكم في شهوركم الأولى، خاصة تلك التي يمكن إعادة استعمالها، دون أن أسمح لنفسي، باستعمال ملابس كل منكم لأحدكم الآخر. لم أُلبس سوسن من ديارتك، ولا ألبست سمير من ديارتكما، أنت وسوسن.

تركت ديارة كل منكم، كما هي، حتى حين يتزوج كل منكم، ويُنجب، أقدّم ديارة أمه أو أبيه، لأول أولاده.

بدأت القصة، مع بقجتك، حين كنت من وقت لآخر، إذ أفرغ من أعمال التنظيف والطهو والغسيل وكيّ الملابس وحمّامكما وإطعامكما، أنت وسوسن، ولم يكن سمير قد وُلد بعد، فأعيد ترتيب الأغراض في البقج، وأستذكر تفاصيل كل قطعة، فأقصّ لك حكايات ملابسك، كما كنت أقصّ حكايات أغراض أمينة، في حقيبتها تلك، مثلاً، قصصت عليكِ ذكرى البربطوز[12]، كان أول ما رأيتك ترتدينه حين جلبك وليد إلى بيت أهلي في دمشق.. هذه العصافيرالزرقاء ذات المناقير الذهبية المطرّزة عليه سحرت قلبي... كنت أشعر بأنني في غابة مسحورة من الأجنّة والعصافير...

---

(11) الديارة هي مجموعة من الملابس التي يتمّ تحضيرها للرضع.
(12) كلمة فرنسية تُستعمل بالعامية الحلبية وهو ثوب فضفاض للأطفال.

تحوّلت مرويات هدهد لساره التي كانت تجلس قربها، وتسمعها وتراها، من دون أن تفهم تلك الحكايات، وهي لم تتجاوز السنتين من عمرها، إلى قصاصات ورقية، توصّلت هدهد إلى ابتكارها، حين أرادت أن تخبىء مع ملابس ساره في طفولتها، أغراضها الأخرى، كالقرط الذهب الذي تتوسطه خرزة من الفيروز الأزرق الفاتح، والذي أهدته نزهة لساره، وكان أول قرط تضعه الصغيرة بعد ثقب إذنيها، إذ أخذتها نزهة بنفسها إلى الممرضة المختصة بثقب الآذان، وعلّقت القرطين مكان الثقبين. أُصيبت أذن ساره اليسرى بالتهاب محل الثقب، واضطرت هدهد لنزع القرط، ووضعته في علبة مجوهراتها، ثم قررت وضعه مع باقي أغراض الصغيرة، ووجدت خاتمًا لها، أي لهدهد، محفوظاً في كيس من قماش شفاف، مطرّز بالخرز الأحمر، يسهل ربطه عبر شريطة مثبتة في عنقه، يتم سحبه وربطه، وإعادة فتحه بسهولة، عبر فكّ العقدة. وهكذا راحت هدهد تحفظ أغراض ساره: آية الكرسي الذهب التي أهداها لها عبدالمنان، زوج نزهة، وكانت هدهد قد عادت بساره آنذاك حديثًا من دمشق، فاشترى عبدالمنان، الآية مع دبوس ذهب، ليشبكها في ثوب الصغيرة...

أخرجت هدهد خاتمها من الكيس الصغير، ووضعت فيه آية الكرسي مع الدبوس الذهبي، وقرطَيْ ساره، ثم كتبت ورقة صغيرة، بمثابة ملاحظات توضيحية: القرط من عمتك نزهة، كان عمرك سنة ونصف، والآية من عمو منان، كان عمرك ثلاثة أشهر.. ثم أغلقت الكيس وربطته عبر الشريطة على شكل فراشة.

حين كانت في سوق المدينة، وجدت تلك الأكياس القماشية الشفافة، على عدة ألوان وبعدة تطريزات، وكذلك يتوفر منها الكثير من المقاسات... اشترت هدهد مجموعة من تلك الأكياس، وراحت تطبّق

نظرية الملاحظات، وهي تدوّن المعلومات التي تكررها عادة أمام الحقيبة، وتضعه ورقة الملاحظات، كأنها معلومات إرشادية عن تاريخ القطعة وظروف اقتنائها.

ثم راحت هدهد تشتري أمتارًا قليلة من أقمشة على ذائقتها، لتفصّلها على مقاس محتويات الحقيبة، وتضع كل غرض في كيس، مرفقة به قصاصة ورقية شارحة حكاية هذه القطعة من الملابس أو الإكسسوارات أو العطور...

وهكذا وبالتدريج، صار لكل قرط من أقراط أمينة كيسه الخاص، وورقة الإرشادات المرفقة معه، وكذلك لكل قلادة، لكل إسوارة، لكل خلخال...

حتى الملابس، راحت تكتب الملاحظات حولها، وتضع الملاحظة في كيس فارغ، تثبّته بدبوس على الثوب أو القميص أو البنطال أو الإيشارب...

لو أن تلك القذيفة لم تقتل هدهد، ولو أن ساره حصلت على الحقيبة الخضراء، كما خططت هدهد طيلة تلك السنوات، لأقامت معرضاً لمقتنيات والدتها أمينة، يبلغ عمره أكثر من ثلاثين سنة: خواتم الفضة ـ القلادات ـ المناديل...

حافظت هدهد على الحقيبتين بالتوازي: الحقيبة الخضراء في بيت أم سعدو، تتفقّدها من شهر لآخر، والحقيبة الحمراء، التي اشترتها خصيصًا لتنقل فيها محتويات بقج أغراض ساره، وتضعها في خزانة ملابسها، مانعة فضول البنتين من فتح الحقيبة، وهي تؤكد: حين يتزوج كل واحد من ثلاثتكم، ويُنجب، سيكون لكل منكم حقيبته لاحقًا، الآن لا أحد يسألني ماذا أخبّئ فيها.

إلاّ أنها فقط ضحّت بالثوب الأخضر... وكانت مجبرة، وسوف تتفهّم

أمينة هذا، قالت لنفسها، وهي تسافر بالثوب إلى دمشق، في زيارتها الأخيرة لأمها التي كانت تحتضر.

بعد خمس سنوات من رحيل أمينة واختفاء كل أثر لها، فهي لم تتصل ولم ترسل خبرًا مع أحد، كان المرض قد هدّ زليخة، التي قاومت كثيرًا، وهي التي تعطي دروساً حول التشبّث بالأمل، وعدم الاستسلام.

لكن موت عبدالعزيز إثر نوبة قلبية، بعد رحيل ابنته الكبيرة، وزواج ابنته الصغيرة التي ضحّت بمستقبلها لإنقاذ الطفلة ساره، موته ذاك من دون وداع امرأته، شريكة حياته، في أغلب التفاصيل بينهما، خلال أربعين سنة على الأقل، كسر زليخة، وجعل المرض ينهش جسمها.

لم يكن من السهل على عبدالعزيز أن يخسر أمينة، فهو كان يعتبرها وريثة أفكاره وآماله، إذ أخذت عنه الكثير من الأفكار: الطموح - حب النجومية - الحيوية - الجرأة... ويعترف بينه وبين نفسه من جهة، وبينه وبين زليخة من جهة ثانية، أنه لولا لقائه بهذه السيدة الرصينة، الهادئة، الحكيمة، لظلّ حالمًا بوهيميًا في الشوارع. لكن حبها الباكر أنقذه وأخرجه من البارات ومن حياة الصعلكة إلى بيت الزوجية، فأنهى سنته الرابعة في كلية الحقوق، بعد أن تزوجا، وبعد أن كان ترك الجامعة لثلاث سنوات قبل أن يتعرّف إلى زليخة.

اعتقد عبدالعزيز، بأن رصانة وليد ستحصّن ابنته من طيشها. وكان يتأمل لهدهد حياة أخرى، تلمع فيها بعيدًا عن الزواج، أو الزواج المبكّر على الأقل. فقد كان هدوء هدهد وميلها للصمت بل والعزلة أحيانًا، واستغراقها في القراءة، دليلاً على تميّز الشابة عن قريناتها. إذ ومنذ سنوات المراهقة الباكرة، بل قبلها بقليل، وفي سن الحادية عشرة تقريبًا، راحت هدهد تلتهم مكتبة والدها، وتقرأ في التصوّف والفلسفة والأديان.

كان عبدالعزيز يراقب تطور ابنتيه، وشدة اختلافهما. كلما نمت إحداهما، ذهبت في وجهة معاكسة لأختها. مالت أمينة نحو حب الظهور والاستعراض والتجمّل البرّاني، وعكفت هدهد على الهدوء والعزلة والاعتناء بداخلها وبنائها النفسي والذهني.

بعد ثلاث سنوات فقط من رحيل أمينة، مات عبدالعزيز، في مكتبه، حين دخل عليه بهاء، المحامي المتدرب لديه، فوجده من دون حراك على كرسي المكتب.

قاومت زليخة رحيل شريكها وسندها الأساسي في الحياة، لكنها تعبت. وبعد سنتين من رحيل زوجها، بدأت تتهاوى. وحين اتّصلت بها هدهد قبل أن تتوجّه إلى دمشق: ماذا تحتاجين من هنا؟ أجابت زليخة: لم أعد أريد شيئاً سوى رؤية أمينة قبل أن أموت.

كانت هدهد، تذهب مرّتين في الشهر إلى دمشق، مصطحبة ساره، ثم ساره وسوسن، بعد ولادة سوسن، أما سمير فقد كان في بطنها عندما توفيت جدّته، ولم يرَ أيًّا من الجدّين، لا زليخة ولا عبدالعزيز.

ذهبت هدهد في مشوارها المعتاد إلى حيّ الجلوم، تتحدّث إلى أمينة، وتستشيرها: «أمنا مريضة، وقد تموت في أي لحظة، هي تريد رؤيتك، ماذا أفعل؟».

وراحت كالعادة تُخرِج الأغراض من الحقيبة، وتستعرضها قطعة قطعة، حين تفزت رائحة أمينة من الثوب الأخضر المائل إلى اللون الزيتي.

وراحت هدهد تحكي لأمينة:

تذكرين؟ اشتريت هذا الثوب حين كنتُ مع أمي في سوق مدحت باشا. سخِرتِ مني حين رأيتِه وقلتِ: ما هذه الألوان الصارمة، ثوبك يليق بالمسنّات.

ولكنك، عندما كنت ذاهبة إلى العشاء، وكان وليد سيمر عليك

ليصحبك، وكنت ترتدين تنورتك الواسعة الملونة بجميع الألوان كأنها مروحة، وبلوزة مليئة بالشراشيب المتهدّلة من حوافّها، أذعنت لرأي ماما التي قالت: ملابسك مثل المتسوّلات، كيف تذهبين إلى عشاء راقٍ بهذه الخرق!

دخلت معي إلى غرفتنا المشتركة، ونقّبت بين ملابسي، ووقع اختيارك على ثوب المسنّات الأخضر.

أنت لا تعرفين مافعلته أنا في ذلك المساء. لقد أقفلت باب الغرفة عليّ بعد ذهابك، وارتديت ملابسك: تنورتك المروحية كما أسميها، التي تشبه تنورات الراقصات الإسبانيات، وبلوزتك ذات الشراشيب.

وقفت أمام المرآة للمرة الأولى في حياتي، لأمثّل دورك: أنا أمينة، قلت لتلك المرأة التي لا تشبهني في المرآة. ورحت أمثّل أدوارك.

هل تذكرين، كيف كنتِ تؤلفين الحكايات؟ تحاولين جذبي لأمثّل معك، فأخجل ولا يخرج صوتي، حتى أمامك. وكنت تغضبين ثم تعاودين إقناعي، وكنت أبكي مستسلمة: أنا ما بعرف أمثّل...

كان التمثيل هوسك منذ طفولتنا. عبثتِ بزينة أمي وأنت في الصف الأول في المدرسة. ورحت تضعين الماكياج باكرًا، بينما أنا كنت أرتبك حين أضع الكحل الأسود، حتى صف البكالوريا.

كنتِ ترقصين أمام المرآة، وتستعرضين جسدك وتقولين أمامي: سأصبح نجمة مشهورة، ستكتب عني الصحف وأظهر في التلفزيون... وكانت أمي تضحك وتقول لأبي: هذه البنت طالعة بتشبهك تمامًا. وكان أبي يثني عليّ، مُجيبًا أمي: يكفيني أن هدهد عاقلة مثلك.

نجوتِ من أحكام العائلة عبر تمرّدك الباكر. لم تتلقي الكثير من التدخلات في حياتك، إذ عُرفت كمتمردة، وطائشة أحيانًا. بينما أنا الأخت الصغرى، عوملت كأنني مسؤولة عن أخطائك.

كانت أمي توبّخني، حين نرتكب حماقاتنا معًا وتقول لي: أنتِ العاقلة التي أعتمد عليها! حُبست في دور العاقلة، الرصينة، الهادئة، ونجوت أنت عبر أدوار التمرد والشجاعة والجرأة واللامبالاة.

الوحيد الذي قدّر مزاياي، على الأقل الوحيد بعد أبي، كان عادل. التقيت به أول مرة في مكتبة النوري القريبة من مكتب أبي. كنت في الصف العاشر، أحمل كتاب (الملل والنحل)، وكان يمسك برواية (الإخوة كارامازوف). اصطدمنا حين كان كل منا يسير ويتصفّح كتابه، وسقط كتابانا على الأرض، وحصلت الحكاية، منذ تلك الشرارة الأولى.

قال عادل لاحقًا: أنت تمثّلين حلمي في المرأة: الذكاء، الوقار، الشغف بالمعرفة. ثم أضاف، وفوق هذا، أنت جميلة جدًا، أنا أعشق هذا الجمال الطبيعي، البعيد عن الصخب.

لكن عادل راح ينتقدني في ما بعد. خلال عامين من العلاقة، حيث نتبادل الرسائل، كم تمنيت أن تقرأي هذه الرسائل... لقد تركتها في درج خزانتي في بيت أهلي. لم أجلبها معي إلى حلب. خفت أن تقع بيد وليد، ويتعرّف على ذلك العمق الذي كنت أعيشه مع عادل، على ذلك البوح خاصة، بينما يسود الصمت بيني وبين وليد.

كان عادل يتّهمني بالطوباوية. ويقول إنه يحب مثاليتي وتصديقي لقصص المناضلين المضحّين من أجل قناعاتهم، ويصفني أحيانًا برابعة العدوية. ولكنه كان يخاف عليّ: الحياة غابة وكم أخشى أن يلتهمك أقرب المقربين، بسبب نبلك ورومانسيتك.

لقد تشاجرت مرة مع عادل، وقاطعته، لأنه قال لي: كوني واقعية قليلاً، الحياة لا تشبه الكتب، وقد تقتلين حياتك بسبب مبادئك الطوباوية! صدمني رأيه، وأحسست بخيانته للكتب، قلت له: كفّ عن القراءة إذًا.

كاد يكرر لي هذا في آخر لقاء بيننا، وأنا أخبره بموافقتي على الزواج من وليد، قرأت هذا في عينيه.

الثوب الأخضر إذًا... ها هو أمامي، آخر ثوب ارتديته، ولا يزال يعبق برائحتك.

وهكذا، ذهبت إلى دمشق، أجرّ معي طفلتيّ ساره وسوسن، مصطحبة الثوب الأخضر، وكان ذلك آخر لقاء مع أمي.

دخلتُ على أمي، التي لم تفارق الفراش منذ خمسة أسابيع، أحمل ثوبك الأخضر، أو الثوب الذي كان لي، ثم ارتديته من أجل العشاء، أف، كم أكرر! كانت رائحتك في الثوب، وما إن تقدمت حاملة الثوب حتى احتضنتني أمي بقوّة وقد دبّت فيها الحياة، وتخيّلتها تتحول إلى يعقوب والد النبي يوسف عليه السلام، حين اشتمّ رائحة ابنه، فعاد إليه بصره. استعادت أمي قواها الجسدية، لكنها فقدت تقريبًا قواها العقلية، إذ صرخت بسعادة وهي تنهض لوحدها، من دون مساعدة الممرضة المقيمة معها: سأتوضأ وأصلّي شاكرة الله على عودتكِ إليّ وتحقيق آخر رغبة لي قبل رحيلي: أن أراكِ. صلّت أمي ثم عادت تعانقني وتبكي من الفرح: أمينة، أمينة، الحمد لله أنني لم أمت قبل لقائك. ظنّت أمي أنني أنتِ. كانت رائحة وجودك طاغية، فمحتني. بكت أمي من السعادة، وراحت تهذي: عبدالعزيز... لقد جاءت أمينة. أنا سعيدة لأنني في الطريق إليك. سامحني لأنني استمتعت باحتضانها قبل موتي، بينما رحلت أنت محرومًا من رؤيتها...

ماتت أمي سعيدة، مصدّقة أن أمينة كانت في وداعها الأخير.

لن تعرف ساره بكل هذه القصص، فقد نسفت القذيفة تاريخ الحقيبة وحكاياتها المؤجّلة منذ ثلاثين عاماً، كما لن تعرف بموضوع اللقاء مع الممثلة الشهيرة على قناة الآرتي، التي سبق وأن رآها وليد. ولكن وليد

أيضًا، لم يعرف أن هدهد، حين كانت تقلّب في المحطات التلفزيونية، باحثة عن فيلم كارتون للصغيرتين، فوجئت بأختها على الآرتي، وراحت تتأمل أختها ولا تفهم ماتقوله لكنها أدركت أن أختها، رغم ابتعادها وأضواء الشهرة التي تغرق فيها، ما زالت تحتفظ بها، هي هدهد، في مكان من قلبها.

أدركت ذلك حين رأت السلسال المعلّق في رقبة أمينة، حيث يلمع رأس كليوباترا الذهبي المُعشّق بالياقوت. تقفز قلب هدهد من صدرها، ذلك هو السلسال الذي أهدته لأختها حين نجحت في الثانوية العامة. تواطأت مع والدها ليرافقها سرًا إلى محل الصاغة، وأصرّت على شراء السلسال ورأس كليوباترا، وتعهّدت أن يكون ثمنه بمثابة دين ستفيه على أقساط شهرية من مصروفها.

كان ذلك عربون حب ووفاء من أمينة. هكذا استقبلت هدهد رسالة السلسال الذهبي. وكالعادة، تضاربت مشاعرها مجددًا، بين الافتخار بأختها على الشاشة، وبين النقمة لأنها هي جالسة تقوّر الكوسا وتلف ورق العنب وتعتني بالصغيرتين، بينما تتفرج على الريبورتاج المصوّر المرافق للمقابلة، حيث تبدو أمينة متنقّلة من حانة إلى أخرى، ومن صالة مسرح إلى صالة سينما، ومن حوار صحافي إلى آخر.

في ذلك اليوم، أحسّت هدهد برغبة قوية في إطلاع ساره الصغيرة على تلك الذكريات والقصص الخبيئة في الحقيبة. ولكن ساره الصغيرة تحتاج لزمن طويل حتى تفهم. لهذا فقد ضمرت هدهد في قرارة نفسها، أن تفعل هذا، حين تكون ساره قد أنهت دراستها، وبدأت حياتها العملية، لأنها سوف تكون أكثر قدرة على تحمّل صدمة حكاية والدتها.

الفصل الثالث:

6 نوفمبر 2015 ـ مساءً

الساعة العشرون

الثامنة مساءً، الموعد اليومي لنشرة الأخبار الفرنسية على فرانس2، لوران دولا روس يقدّم النشرة. من دون تفكير، كأنني أقلّد خالتي. أكرر التفاصيل ذاتها التي اعتدتها معها. الثامنة إلا ربعًا، موعد كأس النبيذ.

بسبب مرضها، توقفت عن المشروب، لكنها تمنح نفسها كأسًا واحدة تمزمز فيه طيلة السهرة. إذًا، كأس نبيذ في الثامنة إلا ربعًا، ثم نشرة الأخبار التي لا أكملها. أستمع فقط إلى نحو ربع ساعة منها على الأكثر، ثم أذهب مباشرة إلى فيلم السهرة.

نشرة الأخبار لا تختلف كثيرًا عن أخبار الظهيرة. داعش تتبنى حادث تفجير الطائرة الروسية في سيناء، تداعيات ذلك على العلاقة بين مصر وروسيا، ثم التوسّع في ملف الإرهاب الذي صارت داعش عنوانه الرئيسي في الآونة الأخيرة.

أبحث عن فيلم الليلة... تعبت من أخبار الحرب والعنف وحكاياتنا في المنافي.

أمامي ثلاثة خيارات الليلة: «طعام صلاة حب» مع جوليا روبرتس، «قصر أمي»[13] عن رواية ذكريات الطفولة لمارسيل بانيول، «الحياة الوردية» الذي يتحدّث عن حياة إيديث بياف[14].

أجهّز عشائي الخفيف: بطاطا مسلوقة مع كمون وليمون وزيت، جبنة، شاي. ثم علبة «ياغورت» بالتفاح، ونقطة ضعفي الليلية، ألواح الشوكولا التي أخزّنها في الثلاجة، وتنفتح شهيتي عليها أثناء مشاهدة فيلم السهرة.

لم أكن أحب الشوكولا كثيرًا في حلب. لكنني تولّعت بها هنا، أنواع هائلة من الشوكولا: بالكراميل المحروق ـ بعجينة اللوز ـ بقطع المكسرات ـ الشوكولا البيضاء...

في حلب، كنا نضع صحن المكسرات الكبير، أو الشيبس أو البوشار. هنا، أضع ألواح الشوكولا إلى جواري، وأستلقي على الأريكة، وأتابع فيلمي مع قطع الشوكولا التي أتركها تذوب في فمي.

كأنني كنت نائمة، أو كأنني رأيتني لأول مرة، وأنا أتفرج على الساحرة ماريون كوتيار، وجدتني داخل الفيلم، وصرت أتفرج على ساره. تلك الفتاة التي منعتها أمها من الغناء، بل عاقبتها وهدّدتها بمزيد من الألم، إن تجرأت وغنّت أمام الناس. فجأة، أحسست بأن العبرة من مجيئي إلى فرنسا، ذلك الأمر الذي لم أفهمه في حينها بل دفعتني أختي لقبوله بمرح، لأنه يمكن أن أجد نصفي الثاني في هذه البلاد. مشاهدتي للفيلم جعلت قلبي يخفق. كنت كأنني أستعيد نفسي: أنا هنا لأغنّي!

رحت أتابع الفيلم، وفي رأسي تدور خطط لما سأفعله. بحسب

(13) Le Château de ma mere
(14) La Môme – ou La Vie en rose

قراراتي يتحدّد مصيري. يتحدد على ضوء قراراتي في هذا البلد. هنا أنا وما أكونه. لن تعاقبني أمي. بل هنا يمتدّ تاريخ طويل لخالتي المشهورة، قد أستفيد منه. خالتي التي يكاد يرتبط اسمها بدمشق لدى الفرنسيين، كارتباط صابون الغار بحلب، فأغلب الفرنسيين يعرفون أمينة دو داماس كما يعرفون صافون دآليب[15]. ولكن قبل كل هذا، عليّ أن أتخذ قراري وأن أبدأ البحث عن مدرسة لتعليم الموسيقى. عليّ صقل مهارة صوتي، بالتأكيد لم يفت الوقت بعد. سأبدأ حياتي الجديدة... سوف أغنّي، بل سأفعل مثل بياف العظيمة، سأغني في المقاهي والشوارع، بل سأغني في المترو كما تمنيت أن أفعل عند الظهيرة.

ليس من قبيل الصدفة أن ينتهي الفيلم بأغنية «جو نوروغريت ريان» (لستُ نادمة على أي شيء)، وظهور وجه إيديث الطفلة. كل تلك السنوات التي عاشتها إيديث، غير نادمة على شيء. تلقفت تلك الأغنية التي ما إن سمعت كلماتها حتى شعرت بأنها تمثّلها، لتكون عبرة لنا، لي ولأمثالي من المترددين، للذهاب من دون ندم في طريق الفن.

سبق لي أن تابعت دروسًا في الموسيقى الشرقية في حلب. وهذا ما لا يعرفه أحد من عائلتي. كان هذا سرّي مع لوركا، الذي رشّح لي أستاذ الموسيقى حسن بصلة، بينما كان لوركا يتمرّن على الدبكة. وحسن كان قد تتلمذ على يد الشيخ عمر البطش، فتعلّم منه فنون الموشّحات وفنون رقص السماح وعلوم الموسيقى والألحان. تعلمت غناء الموشحات وتطورتُ موسيقيًّا خلال سنة، كنت أذهب فيها للتعلم في بيت الأستاذ حسن في الجابرية.

---

(15) Savond'Alep

كان لوركا يمرّ عليّ ليصحبني. بينما تظن أمي أننا ذاهبان إلى السينما أو إلى مكتبة الجامعة أو للعشاء في مكان ما. كان يمرّ عليَّ كل يوم جمعة، في السابعة مساء. يوصلني ثم يذهب لحضور بروفات الدبكة في المسرح القومي. وأمرّ عليه حين أنتهي، ونعود معًا.

حتى سوسن لم تعرف بموضوع متابعتي لدروس الموسيقى، وتعلّم غناء الموشحات. سوسن عاطفية ولسانها يخونها، ستخبر أمي، وحينها لن أفقد فقط فرصة التعلّم، بل سيُعاقب معي لوركا، ستفقد ثقتها به، ولن تدعنا نخرج في أية مناسبة من دون تحقيق مطوَّل.

حين سمعتني سوسن ذات مرة أتمرّن على (يمرّ عُجبًا)، من دون أن أعرف أنها عادت إلى البيت ولم أشعر بها، وكانت أمي في بيت عمتي نزهة، دخلت عليّ سوسن شبه باكية. عانقتني وقالت: «حرام هالإمكانيات تضيع، شو هالصوت يا بنت... بتجنّني!».

تعلّمت المقامات بصعوبة، أتعبني مقام حجاز كار كردي، لكنني كنت أغني من دون أخطاء. وكان الأستاذ حسن يصفّق لي حين أغني (منيتي عزّ اصطباري)، ويقول لي: ذات يوم ستغنين أمام الجمهور، براعتك ستنتصر على كل المعوّقات، أنت فنانة يا ساره.

كان لوركا عرّابي الروحي. أخي وصديقي، ثم أصبح زوج أختي. كان الكائن الوحيد الذي مرّ في حياتي، الذي يؤمن بعمق بالحرية والفن. بل كان فنّانًا. لا أستطيع الحديث عن لوركا، فهو متعدّد الإمكانات. درس اللغة الإنجليزية في الجامعة، لأنه مُغرم بالمسرح، واختار اللغة شغفًا بشكسبير. لوركا يكتب النص المسرحي، يمثّل، ويرقص، ويغني. مجنون بالحياة، يطيل شعره كالبنات، يربطه كجديلة تسترخي على ظهره، وتتناقض برأي الكثيرين، لكن ليس برأيي، مع لحيته الكثيفة وشاربَيه.

للوركا عينان بلون أخضر فاتح، تلمع كعيون القطط الذكية. لديه شغف وفضول لمعرفة كل شيء، كأنه يقتحم العالم. كان لوركا أول من فتح أمامي أبواب القراءة، حين سخر مني وأنا أقرأ رواية أخذتها من مكتبة المدرسة، قال: غدًا أُحضر لك الروايات التي تُقرأ. هكذا اكتشفت هنري ميلر وأنانييس نن وغيرهما، وكانت عمتي متحفّظة على ذلك النوع من القراءة، مؤمنة بالأدب الروسي الملتزم ولكنها تحب دوستويفسكي الذي جعلتني أحبه أيضًا.

لا أنكر دور عمتي في دفعي صوب القراءة. لكن لوركا فتح عيوني على عالم مختلف من الكتب. لوركا هو منارة الحرية التي أضاءت لي حيرتي وارتباكي، إلا أنني أقلّ منه بكثير، لم أكن على مستوى انفتاحه وتحرّره. حتى إنني لا أتحدّث إليه كثيراً، منذ مجيئي إلى فرنسا، لم نتحدث سوى مرة واحدة، قبل أن يغادر إلى السويد. أنا جبانة أمام لوركا. يستطيع في كل مرة نتحدّث فيها، كشف جُبني وعيوبي أمامي. لم أقل له يومًا إنني معجبة بشجاعته في مواجهة نفسه، وفي تحدي العالم. في حريته في التعبير عن نفسه، وإنني أقلّ منه بكثير، ولا يمكنني أن أكون مثله. بل أخاف أن أكون مثله.

كنت أقول له: «Tudînê» فيضحك بملء صوته، سعيداً أنني التقطت العبارة بالكردية من عمتي التي صارت تستخدم بعض المفردات الكردية. ويردّ عليّ: «Tırsok»، إلى أن صرتُ أدعوه (دينو) ويدعوني (ترسوك). أي أدعوه بالمجنون، ويدعوني بالجبانة.

كان يجرّني إلى دروس الموسيقى، التي كنت أعشقها، وأخاف من أمي. هو الذي جعل حبي للموسيقى ينتصر على خوفي من أمي. لولا لوركا ما تعلمت إشارة موسيقية واحدة.

أف، إنها الساعة العاشرة والنصف، عمتي نزهة تتصل بي على السكايب... الصوت ضعيف بسبب ضعف الإنترنت لديها، نتواصل كتابة:

- شو أخبارك اليوم؟

- معدتي وجعتني ما رحت عالموعد.

- وجعتك بجد ولا حجّة حتى ما تشوفي هالا؟

- لا ... أنا بحب هالا.

- بس بتحبي العزلة أكثر... بعرف بتخافي من الزحمة.

- هلق شو هالتحاليل العميقة... احكيلي عنك... كيف الوضع عندك؟

- مثل كل السوريين اللي بالمنافي... انتظار فرج الله.

- عمو منّان ما أخد الإقامة؟

- لسه... أنتي شو... ما في شي جديد؟

- لا يا عمتو.. كمان مثلك، انتظار.

- يا ساره، أنت في مكان منيح، لازم تستقري وتهدّي. لازم تلاقي شغل بشهادتك، وتنسجمي مع وضعك، سوريا صارت بعيدة يابنتي.

- عمتي، والله مو بإيدي. ما عم إستوعب إني ما رح أرجع لسوريا، ما بدي إستوعب... بدي ضل حاسّة حالي موقّتة هون، لحتى أرجع.

- العمر عم يمضي بسرعة ساره، إنت صبية، لازم تعملي عيلة، لازم تكمّلي حياتك...

- ما فيني... ما بقدر أعمل أي شيء هون يخليني إرتبط بالبلد. فرنسا أعطتني الأمان وحقوق ما كنت أحلم فيها، بس هاد مو بلدي.

بحسّ متل لما كنا صغار، نروح ع بيوت رفقاتنا، ونُعجب بأمهاتهن، بفرش بيوتهن، بعلاقتهن مع آبائهن... بس في النهاية نعود إلى بيوتنا وأمهاتنا وآبائنا... رغم العيوب وعدم الرضا... هنّي أهلنا. وسوريا بلدي، ومكاني اللي بحس أنو إلي. فرنسا عظيمة، لكنني حشرة هنا، فرنسا ليست لي.

ـ شوفي خالتك... صنعت مكانها، ورفضت العودة.

ـ خالتي غير... خالتي اختارت فرنسا وهيّ بسوريا. أنا لقيت حالي مجبرة على البقاء بفرنسا. أنا جيت زائرة لا مقيمة. بشعر أنو انضحك عليّ. جئت لفترة وبقيت. خالتي قررت المجيء، وجدت حياتها هنا. ربما حين أعود إلى سوريا، أحنّ إلى فرنسا، وأعود إليها، ساعتها بيكون الوضع غير، أنا باقية فقط بضغط من أهلي وخوفًا من الحرب.

انتابني إحساس بالقهر. لماذا أكرر هذا الكلام مع عمتي، لماذا تحاول إقناعي بأن مكاني هو فرنسا؟ هل تريد مساعدتي عن طريق دفعي للتأقلم؟ هل تركلني وتطوي صفحتي وتتحرّر مني حين تحاول إقناعي بتأسيس حياتي هنا. أنا حسمت أموري النفسية، أنا باقية بانتظار انتهاء الحرب. ولو قبل موتي بدقائق، سأرجع حين تتوقف الحرب.

وماذا إذا مرضتِ؟ تقول عمتي لتعذّبني. أرد باستهتار: وقتها أرى... لن يخلو العالم من الحلول. كل شيء له حلّ، إلا هذه الحرب اللعينة.

كنت أريد أن أحكي لعمتي عن فريدريك... عن بكائي الليلي إلى درجة وصول صوتي إلى الجار... كنت بحاجة للتحدّث إلى عمتي

التي تفهمني من دون أن أتحدث... كانت تعرف أنه ليس يان ما يشغل بالي، وأنني أخترع الأعذار للهروب من الرجال... إنها محقّة تمامًا، أنا أقتل الرجل بداخلي، أشوّه الحكاية، أختلق سيناريوات للشجار، ثم أنسحب... أخلق القصة والحبكة والصراع والنهاية، بينها الآخر لا يعرف أي شيء، وليس حتى في لحظة البداية. أنا لا أسمح لحب الرجال أن ينمو في داخلي، أخاف... خوف طفوليّ غامض، كانت تفسّره سوسن بأنني امرأة مفصولة عن الواقع، لا يمكنني الاندماج في حياة كاملة مع الآخر... الزواج أو الحب اندماج مع الآخر، وتنازل عن الوحدة... ولذلك أتحدّث في النوم لنفسي.

من جهتي لا أشعر بأي دافع للارتباط سوى من أجل الإنجاب، وأنا لا أحسّ بهذه الحاجة الآن... ولدا سوسن كأنهما ولداي.

أكره الارتباط، أتساءل... كيف يُمضي أحدنا الوقت بحضور الآخر دائمًا؟ أشعر بالقلق لوجود أحد بجواري. كيف أنام و«هو» في سريري، لا أستطيع أن أنام وأحدهم يلمس جسدي، أن يراني في الحمام، أن يكون له حقّ على وجودي.. لا أستطيع.

كانت هالا تضحك من أفكاري، أنا مع الزواج، ولكن على أن يبقى كل من الزوجين في بيته. تقول هالا: ولماذا اسمه بيت الزوجية؟ أقول هذا هو المرض... بيت الزوجية الذي يلغي الفردية... إذا وجدت رجلًا أحبه ويقبل أن نتزوج من دون أن نعيش معًا، سأكون راضية.. والأولاد؟ تسأل هالا، فأجيبها: كالأبوَيْن المنفصلَيْن، نربّيهم بالتناوب إن رغب أو أربّيهم أنا وحدي إن لم يرغب.

مجنونة، تقول هالا. وسمير ينمّ عني لأبي. أبي يذهب في حالة شرود طويلة، حزينة، غامضة.

مرة دخل عليّ غرفتي، كان سكراناً، عانقني وقال: اسمعي يا بنتي، إذا لم تشعري بحاجة لرجل في حياتك، لا تفعلي هذا من أجل المجتمع. ثم بكى كالأطفال.

لم أفهمه! أكان أبي يخاف عليّ من العيش مع أيّ رجل غيره بحسب نظريات علم النفس؟ لكنه كان يحب لوركا كثيرًا...

كنت أظن أنني غريبة الأطوار. فالبنات حولي مختلفات. يبحثن بدأب عن الشريك. يكاد يكون أهمّ شيء في الحياة عندهن البحث عن علاقة مع رجل، علاقة تفضي إلى الزواج. إنه الهاجس الكبير لأغلب البنات. كنت أظن إذًا أنني لست على مايرام، لأنني لم أهتم بالرجال.

إلا أن لقائي بخالتي طمأنني. هي مثلي. حين شرحت لها أنني لم أشعر يومًا بذلك الحب للجنس الآخر، ولم يخفق قلبي لرجل، ولم أتحمس لطلبات الزواج. حكت لي:

كانت أمي تقول عني إنني بندوقة[١٥]، وتؤكد: لو لم أنجبك من بطني، وأنا متأكدة أن رجلًا غير أبيك لم يمسّني، لشككت في أنك ابنتي، أو ابنته.

كانت تأتيني مرارًا، ما إن بلغت، بطلبات الزواج من قريباتها، وصديقاتها خاصة. وكنت أسخر من الجميع: أنا أتزوج من هذا الأبله! أو من هذا المدّعي...! كان الجميع في عيني حمقى لايستحقون نظرة مني... وكنت أحتقر فكرة الزواج.

تعرفين يا ساره، الفنان والعائلة على طرفَيْ نقيض. أنا أعتقد بأن نفورك من الارتباط، سببه تمسّكك بحريّتك. وهذا برأيي ناجم عن حلم لديك لم تتجرّأي بعد على مواجهته.

---

(١٥) بنت حرام، غير شرعية.

كانت خالتي تحدثني عن علاقتي بالموسيقى والغناء، وكنت أرفض الانجراف وراءها. لقد ركلت خالتي حياتها الاجتماعية، تركت العائلة والأهل والأصحاب، تركت كل شيء من أجل المسرح. كنت أضعف من أن أنجرف خلف شيطان الفن. بل كنت أحيانًا أتحاشى فتح الأحاديث مع خالتي. كان حديثها عن مشروعي الخاص يشبه عندي استدراج فتاة عذراء إلى وكر بغاء. كنت أخاف من الحديث معها حول الفن، وندمت لأنني حدثتها يومًا عن حبي للغناء، وحلمي أن أكون مغنية أقف على خشبة المسرح مثل أم كلثوم وفيروز وأسمهان... وربما إيديث بياف..

عادت عمتي إلى الخط، فأعادتني من مخاوفي القديمة من خالتي أمينة التي كانت بمثابة الشيطان الذي يوسوس لي بالخطيئة. تشجّعني أن أذهب إلى الغناء، وأقطع صلتي بالعالم... عادت عمتي التي غابت بسبب انقطاع الكهرباء... وها هي من جديد.

بينما تكتب لي عمتي، كنت أغوص في أفكار وتساؤلات حول وضعي وما عليّ أن أفعله. هل أنا هنا بالصدفة، هل التقيت أمينة بالصدفة أم ثمة رسالة من وراء دعوة خالتي وتشجيع أهلي لم ألتقطها بعد. ما هذا النفور من خالتي، التي من المفترض أن تكون علاقتي بها خاصّة وقوية جداً، فهي امتداد الرحم، ونحن النساء نرث أمراض الأرحام، بينما أرمي نفسي في حضن عمّتي، ربما بسبب الألفة القديمة والتاريخ.

بحسب نظرية خالتي في القطيعة بين الفنان والعائلة، بين العواطف الفائضة والعواطف الفعّالة المنجِبة أو الموحية بالإبداع، بين الصدف البيولوجية، كما تسمّيها وتعتمد على شخص يدعى أندريه

بروتون[١٧] ـ لم أكن أعرف عنه شيئاً ـ فإن حياة الفنان الاجتماعية، ومولده في بيئة ما، أو بلد ما، هو حدث بيولوجي عابر، ليس مهماً، المهم أنه يتوجد في الحياة، ليؤدي دورًا مختلفًا عن الآخرين.

أجل، أنت غريبة الأطوار، تقول أمينة، وأنا غريبة الأطوار... وهكذا هو الإبداع، خروج عن الحظائر الاجتماعية والدوائر المألوفة.

لو أنني أمضي وقتًا أطول مع خالتي، ربما تحولت إلى «بندوقة» مثلها، كما تصفها أمّها. إلا أنني أجبُن عن ذلك.

أعود لأثرثر مع عمتي محاولةً التخلص من إغواءات أمينة.

عمتي التي كانت تتجوّل في السوق لساعات، وربما لا تجد ما تبحث عنه، فتعود في اليوم الثاني، مصرّة على إيجاد طقم فناجين قهوة بلون مناسب لأحمر كنبة الصالون، ها هي اليوم لا تجد فنجانًا لائقًا لتشرب فيه قهوتها.

اضطرت عمتي إلى السفر إلى الأردن عند أقارب زوجها المقيمين هناك، بانتظار أن يحصل على إقامته من السويد. أقاربه فقراء، وهي تشعر بحرج لأنهم استضافوها. تدفع لهم بعض النقود كمقابل رمزي للغرفة التي أفرغوها لها...

نسخر من أوضاعنا، عمّتي وأنا، وهي تحدثني كيف تنسى دائمًا أنها في عمان، وتقول الشام بدلًا من عمان، وحين تسأل عن سعر الأغراض التي تتسوقها، تنسى وتقول: كم ليرة؟

تحدثني عمتي عن عمان، وتصف لي الأمكنة، وتقارنها بحلب.

تتحدّث عن حلب كأنها الجنّة، كأنها أجمل مكان في العالم. تشعر بالقهر أنها غادرت. تقول لي وأصدّقها:

---

(١٧) يتحدث بروتون عن الصدفة الموضوعية، أما الصدفة البيولوجية فهو اصطلاح يرد فقط في هذه الرواية.

كنت أشعر بالأمان في حلب، رغم الحرب. هناك لديّ بيت يحتويني. حين كنت أدخل العمارة، وما إن أصعد الدرج حتى أشعر أن هذا المكان لي، هويتي. حتى درج البناية أنتمي له، أنتمي للشوارع، للمحلات، للباعة، للفرن.. هنا أنا غريبة. لا أعرف الشوارع ولا الناس... أحسّ بالخوف والقلق. وحين أتخيل أنني سألتحق بزوجي في السويد، أشعر بغصّة في القلب، كأنني سأدخل قبرًا ضيّقًا. أوروبا مكان غريب بالنسبة لامرأة في عمري، لم يعد لديها ما يكفي من الوقت لبدء حياة جديدة. حياتي هناك في سوريا. كل يوم، وأنا أشرب قهوتي في غرفتي التي لا تطلّ على أي مكان، أحلم بأن أعود لأجلس على شرفتي، حيث أثرثر لزَرعاتي، لشجيرة الفل، وعلبة الريحان، وتنكة القرنفل الأحمر، وعلبة المنثور، والكاوتشوكة الضخمة قرب الشرفة... علاقتي مع زرعات الشرفة طويلة، بعدد صباحات القهوة وأغاني صباح... لم أكن أسمع فيروز كما يفعل الجميع، كانت صباح غَرامي، صوتها يمنحني نشاط النهار... أين أذهب بكل هذا الحمل، إلى بلاد بعيدة وباردة، وصباحات قاسية.

لقد أجبرني زوجي على السفر، خاف عليّ من الاعتقال الكَيْدي، أو من إزعاجات وحدات حماية الشعب[18] التي اعتقلت أخاه في عفرين، وهدّدوا زوجي المنتسب إلى اليكتي[19] كما تعرفين. كان عمك منّان مهددًا من النظام ومن البي يه دي[20]، هربنا خوفًا من السجن أو التصفية... حسنًا... ماذا أنتظر اليوم؟ أنت شابة ويمكنك بناء حياة جديدة في فرنسا، أما أنا...

---

(18) YPG قوات شعبية كردية تابعة لحزب العمال الكردستاني.

(19) حزب الوحدة الديمقراطي الكردي.

(20) PYD, Partiya Yekitiya Demokrat حزب كردي سوري يتبع لحزب العمال الكردستاني.

تكرر عمتي هذا الكلام، بصياغات متعددة. تتحدث عن أحياء عمان، وتذكرني: «عبدالغني، بياع الخضرة اللي بطلعة الأشرفيه، هون بشارع فيصل، بعرف بائع كأنه أخوه لعبدالغني، اسمه عبدالسلام... حتى شارع فيصل هون، بيذكرني بشارع فيصل بحلب».

مثلها، أخذت عنها صعوبة التعرف على أي مكان من دون مرجعية المكان الأول. مكاننا الأول هو حلب، التي نستند إليها في تعريف كل ما يأتي بعدها.

تذكّرني عمتي بالشال الذهبي الذي رأيته في شاتليه وحدّثتها عنه. يشبه شالها الذي كانت تحبّه كثيرًا، شالها الذهبي الموشّى بقطيفات صغيرة من الورود البنيّة... كانت عمتي تضعه لسنوات، وكأنه اقترن بشخصيتها، إذ كانت البنات حين يتحدّثن عنها لمن لا يعرفها، يقلنَ: صاحبة الشال الذهبي. وفقدت عمتي شالها الذائع الصيت حين سقط منها في سيارة التاكسي من دون أن تنتبه. طلبت مني أن أشتري لها الشال الذي يشبهه. قلت لها إنني سأمرّ على حيي المفضل يوم السبت، وهناك أبحث، ربما أجد واحدًا أرخص، وإن لم أعثر سأعود إلى الشاتليه وأقتني لها شالها المنشود.

يوم السبت هو اليوم الوحيد الذي أمتلكه بالكامل، فأنا أعمل طيلة أيام الأسبوع، حتى الأحد.

أربعة أيام في الأسبوع، أقوم بحضانة كانيل من الثامنة صباحًا وحتى الواحدة ظهرًا.

بدأت بحضانة كانيل التي ولدت من حسن حظي في الشقة المقابلة لشقة خالتي قبل سنة ونصف، وكانت دارلين على علاقة طيبة بخالتي، فاقترحت عليّ حضانة صغيرتها مقابل خمسمائة يورو شهريًا.

دارلين تشتغل في البلدية، لا يلزمها أكثر من عشر دقائق للوصول إلى العمل. يبدأ دوامها في الثامنة والنصف، وتنتهي في الثانية عشرة والنصف، في طريق العودة إلى البيت تشتري الخبز لها ولي.

أتناول غدائي بين الواحدة والثانية، وأقضي وقتي بعدها بين تحضير دروس الأسبوع لتوما وماغالي وماكسانس وبين الكتابة. أكتب كثيرًا، لا أعرف ماذا أكتب عدا عن الكتابين الرئيسيين: كتاب المنامات وكتاب الحرب، سناء تقول إنها تصلح لأن تكون رواية، بعد أن أطلعتها على بعض الفصول...

أما يومَيْ الجمعة والأحد، فهما على شاكلة هذا النهار، أبدأهما بالكتابة، ثم دروس ماغالي وماكسانس.

اعتدت تمضية نهار السبت، عطلتي الفعلية، في المونمارتر. لا أملّ من هذا المكان. باريس القديمة، أو باريس الفعلية كما يسمّونها. كثير من السياح، وكثير من الناس، وإحساس الأسواق الشعبية الذي يأخذني إلى أسواق حلب.

أحب مونمارتر وما حولها. أحب البيغال، وباربيس، والطاحونة الحمراء.

بعد القهوة والحمّام وبعض التدوينات أخرج من البيت حوالى الساعة الحادية عشرة، وتبدأ رحلة التسكّع. أحب ساحة الفنانين في الأعلى، قرب الكنيسة المقدسة. أتناول طعامي هناك. ثمة محلات رخيصة وشعبية، أجرّب في كل مرة مكاناً جديداً، في الأسبوع الماضي جرّبت الكسكس في مطعم مغربي.

أشعر بالحرية والدفء في هذه الأماكن. ربما أدمج بين حميمية حلب وحرية الغرب في هذه الحارات. أدخّن، أشرب البيرة وأنا جالسة على درج الكنيسة أدندن أغنيات بالعربية.

حين أقف فوق، في أعلى الدرج، أطلّ على باريس، أتخيل حلب تتلألأ من بعيد، خلف باريس.

لا أحب الأحياء الفخمة في باريس... لا يهمني الشانزليزيه مثلًا... بل أحب الأحياء الشعبية، أحسّ بروح المكان فيها.

علاقتي بالمكان لا يمكن أن تكتسب أي حميمية من دون مرجعية... كل مكان جديد، لا يمكنه أن يدخل في ذاكرتي إلا عبر تعريفه عن طريق مقارنته بمكان أعرفه من قبل. أخاف من الأماكن الجديدة، وأشعر بالحذر وربما بالخطر... كما يتم تعريف الأجهزة التي نوصلها بالحاسوب عبر سيديهات مبرمجة. أعرّف المكان عبر تشبيهه بمكان مرّ عليّ.

فأنا أعرّف المكان الجديد بالاستناد إلى صورة المكان الذي أعرفه من قبل.

كأنني أطبق صورتَي المكانَيْن، ثم أجري المقارنات الخفيفة، لأستوعب الجديد.

البيغال مثلاً يشبه بحسيتا ـ محطة سان لازار تذكّرني بمحطة بغداد ـ شارع باربيس هو معادل شارع التل ـ مونتروي كأنها سوق الهال، خاصة البروكانت ـ الشانزليزيه تذكّرني بحي العزيزية ـ مونمارتر هي قلعة حلب بالنسبة لي ـ الدائرة السادسة عشرة تشبه حي الشهباء ـ مكتبة جورج بومبيدو تذكرني بالمكتبة الوطنية ـ ساحة الجمهورية مثل ساحة سعد الله الجابري... وهكذا.

حتى مع الأشخاص، أعرّف في رأسي الشخص الجديد الذي ألتقيه، بمقارنته مع شخص أعرفه من قبل يتقاسم معه بعض الملامح أو العادات أو الحركات.

عدا دارلين السوداء، فهي لا تشبه أحدًا أعرفه... لا يوجد في سوريا أشخاص من ذوي البشرة السوداء، كما في مصر أو السودان، فنحن نقع على المتوسط. ولكنني استطعت تعريف دارلين في رأسي، منذ رأيتها مع خالتي قبل ثلاث سنوات بتشبيهها مع دينزل واشنطن... لها لمعة عينيه!

أما كانيل الساحرة، فهي ربما الكائن الوحيد في حياتي الذي لا يشبه أحدًا مرّ عليّ من قبل، والتي احتلت قلبي منذ ولادتها، ربما لهذا أحبت دارلين أن أكون جليستها، أهتمّ بها وأحميها. ربما بسبب الحب الذي رأته يتدفّق من عينيّ صوب كانيل، التي ما إن تراني لا تكتفي بأن تضحك فقط، إنما تتهيج من الضحك.

الساعة الحادية عشرة

قررت الاستماع إلى بعض تسجيلات خالتي. كأن تأثري بفيلم إيديث بياف، وصورتي المتقافزة أمام عينيّ كمغنية تقف في المسارح، أو في المطاعم والبارات، طيّرا النوم من عينيّ.

كنت قد ابتعدت عن التسجيلات لفترة، فقد وجدتها مملّة. أعرف معظم القصص التي ترويها، ومع هذا أسمعها تلبية لوصيتها.

عندما كنت أجلس معها كانت خالتي تحكي لي غالبًا عن حياتها في سوريا، وحين أغيب لحضور دروس اللغة الفرنسية كانت تسجّل ما أوصتني بعدم الاستماع إليه إلّا بعد وفاتها.

كانت تبقى في البيت، ولا تغادره إلّا عندما تذهب إلى المشفى لعدة أيام في الشهر لتلقّي العلاج الكيميائي في مشفى سيمون فيي..

مللت من الاستماع إلى قصصها القديمة، وظروفها في سوريا

وحبها للفن وشعورها بالملل وانعدام أفق الإبداع في محيطها. قررت أن أذهب إلى آخر شريط:

«رفضت هدهد أن تخبرك من قبل، كانت خائفة».

أوقفت الشريط وذهبت إلى الشريط الذي قبله:

«سأخنقك أيتها العجوز الشمطاء... هل صدقتِ أنني أحبك؟ أنت عجوز قذرة، وأنا مستعد أن أعيش مليون مرة، لأقتلك في كل مرة».

أوقفت الشريط، وذهبت أيضًا إلى الذي قبله:

«كنت أنوس بين النوم واليقظة، برد في الليل رغم الصيف، وعطش فظيع... أذهب إلى التواليت، في الظلمة، أتكئ على الجدران، أصل حتى الباب المفضي إلى الحديقة، لا يمكنني الاقتراب أكثر، السلسلة في قدمي تشدّني، والباب موصد بشدة، بعض الضوء يتسلل من حواف الباب الخشبي، ضوء القمر... أقعي عند الباب وأبول... وأمسح بثوبي».

عدت إلى شريط سابق:

«أفقت لأجد نفسي موثقة بالسلاسل. يداي مربوطتان أمامي، ومكبّلتان، وساقي اليمنى مربوطة بسلسلة تربطها بالجدار، وأنا مستلقية على فرشة اسفنج، قرب الستارة، حيث زجاجات النبيذ.

أفقت تدريجيًا واستعدت وعيي، لأرى ماتيو أمامي يدخّن. نظرت إليه لأتأكد أنه هو، كانت عيناي مغبّشتين...

ـ ماتيو، هذا أنت؟».

كان الأدرينالين يصعد إلى رأسي. رحت أستعرض التسجيلات إلى أن عثرت على الجملة التي تقول فيها:

«بدأت القصة حين خرجت من الأوديون بعد عرض مسرحية الصوت الإنساني عن نص لجان كوكتو. وقفت أدخن مع بعض الصحافيين والنقّاد الذين حضروا العرض، ثم فجأةً رأيت شابًا يقع عند قدمي».

كنت متحفّزة لأعرف حكاية تلك الحالة التي غابت من دون أي أثر ثم عادت لتلقي عليّ بحملها وأنا أتساءل لماذا اختارتني؟

مجنون أمينة

بدأت القصة حين خرجت من الأوديون بعد عرض مسرحية الصوت الإنساني عن نص لجان كوكتو. وقفت أدخن مع بعض الصحافيين والنقّاد الذين حضروا العرض، ثم فجأةً رأيت شابًا يقع عند قدمي.

خفت للحظة، ظننت أن حيوانًا هاجمني، ثم بدأت أستوعب، حين شعرت بيدين تمسكان بساقيّ، وفجأة رأيت وجهه.

لا أبالغ إن قلت إنه ملاك. جمال خارق، عينان كبيرتان خضراوان، تلتمعان كعيني القطط تحت غرّة طويلة شقراء، وشعر كثيف أشقر طويل تتناثر خصلاته على وجه دائري ساحر...

- مولاتي...

نظرت في وجهه وقلت: انهض رجاءً...

نهض، وأخذ يدي وقبلها: أنا مجنون بك...

الأشخاص الذين كانوا معي كانوا مندهشين، وكأنهم يشاهدون عرضًا مسرحيًا، وكنت مأخوذة... لا أعرف كيف أصف شعوري، لكنه إحساس يشبه العيد أو التكريم...

كأنني على منصة كبيرة، والناس تكرّمني.
وقع قلبي بين ساقَيَّ حين تشبث بها هذا الشاب الملاك...
كنت سعيدة... وثملة قليلًا.
- أنا مجنون بكِ... اسمحي لي فقط بالجلوس معك لساعة واحدة... لا أريد أكثر.
ترددت قليلًا لكني كنت مأخوذة بتلك الفتوّة وذلك الجمال، فهززت رأسي موافقة، وأنا أحسّ برغبة في أن تلتقط كاميرات العالم تلك اللحظات وتوثّقها.
- هل أستطيع معانقتك؟
- تعال!
فتحت ذراعيّ، فعانقني، ودوّختني رائحته. خليط من روائح تبغ مع كحول مع عطر مع ذكورة.
لا أعرف فعلًا كيف أشرح هذا...
أنا أكره الرجال، أكرههم جنسيًا. أحبهم أصدقاء فقط، لكنني لا أبني علاقات طويلة. الرجل بالنسبة لي ضرورة سيئة كالسجائر والكحول. يضرّون بالصحة، لكن تناولهم يمنحنا تلك اللذة السريعة التي سرعان ما ننزعج من الخضوع لغوايتها.
لكن رائحته كانت ذكورية غير قارصة كرائحة الرجال.
رائحة ذكر حنون...
هل أحببته؟ هل داعب نرجسيتي؟
لا أعرف...
قال للجميع بصوت مسرحي: أعتذر عن حماقتي وتصرّفي بهذه الطريقة، أنا لست أرعن، بل معجب. أنا مجنون بأمينة، وأنا سعيد هذه الليلة لأنها قبلت التحدث إليّ، وسمحت لي أن أعانقها.

دعاني إلى كأس نبيذ في بار قريب من المسرح، في شارع كوندي[21]، ساعة واحدة كما اتفقنا، حكى فيها عن ملاحقته لي، أراني ملفات الصور التي يحفظها عن أعمالي، وقصاصات عن أخباري في الصحف، وأفيشات العروض...

ـ أنت صغير. أنا كبيرة عليك.

ـ لا يهمني، أنا مجنون بك...

أصرّ ماتيو، هذا اسمه، على مرافقتي حتى البيت. أوقفت سيارة أجرة، وصعد معي. نزلت أمام البيت، نزل وقبّل يدي، ثم عاد بالسيارة ذاتها.

نمت مستمتعة، مغمورة بفرح غامض.

كانت رائحته في ملابسي، ترك الكثير منها حين تعانقنا.

في الصباح، ما إن أفقت، حتى وجدت رسالة منه على هاتفي:

«صباح الخير أيتها البرنسيسة، أشكرك على الساعة التي منحتنيها البارحة».

حين غادرت المسرح في الليل، أحسست بأنني أبحث عنه. تضايقت للحظة من نفسي، فأنا امرأة أريد أن أكون حرة ولا أتعلق بأحد، لم أتعلق يوماً بشخص. كانت حياتي للمسرح فقط، التمثيل والغناء والرقص.

لم أفهم انقباضي المفاجئ، أهو شوق لماتيو، أم انزعاج من نفسي لأنني فجأة أحسّ بأنني أريد رؤيته.

دخّنت مع الأصدقاء، ثم أشرت لسيارة تاكسي، وبينما أنا متجهة صوب السيارة، وصلت يدٌ قبل يدي إلى مقبض الباب، أحسست

---

(21) Conde

برائحته قبل أن أراه، استدرت لأجده يقف خلفي. لا أعرف ماذا دهاني لأفعلها أمام الأصحاب الواقفين في الساحة، عانقته كأنني كنت أنتظره أو أبحث عنه.

صعد معي، أوصلني كالليلة الماضية، نزل من التكسي ليقبّل يدي ويرافقني حتى باب المبنى، ثم يعود بالسيارة ذاتها.

وفي الصباح، أصحو على رسالة منه:

«صباح الخير برنسيسة حياتي... أحبك».

طار عقلي من الفرح.

قاومت رغبتي في الاتّصال به، أو الكتابة له.

بعد العرض، ما إن خرجت من المسرح، حتى رأيته يدخّن بانتظاري.

قال لي: اليوم عيد ميلادي، أرجو ألّا تحرميني من قضاء بعض الوقت معك!

ابتسمت.

بسط كفّه أمامي، لأضع يدي في يده.

اصطحبني إلى مطعم دافئ في سان ميشيل. تناولنا العشاء وشربنا نخب الفن والحب والسلام.

ثم أوصلني بسيارة الأجرة، نزل وقبّل يدي، وعاد بالسيارة ذاتها.

تعلقت به...

صار جزءًا من يومياتي...

لم يكن رجلًا...

ولم يكن صبيًا...

كان بين الاثنين...

كنت أنفر من الرجال عاطفيًا... لكنه أشبع منطقة ما لدي لا أزال أجد صعوبة في تفسيرها. أحببت فيه شيئًا ما، شيء يقع بين البنوة والرجولة. لم يكن رجلًا بالكامل، لأنفر من سلطته أو تدخّله في حياتي، ولم يكن طفلًا تمامًا. كانت السلطة بيدي. أحببت هذا بسبب فارق العمر، تلك السلطة التي لو مارستها على رجل من عمري، لبدا فاقد الذكورة، ضعيف الشخصية. لكن أن أمارس السلطة على ماتيو الذي يصغرني بثمانية عشر عامًا تقريبًا، فهو أمر لذيذ.

كنت ألتذّ بتسيدي للعلاقة، وهو كان يحمل ولاء يشبه ولاء الابن لأمه أكثر مما هو ولاء رجل لامرأة.

كنت في منطقة وسط بالنسبة له: بين الأم والحبيبة، وكنت أستمتع بميزات الحالتين، ميزات الأم وميزات الحبيبة، وفوقها ميزات الحالة الثالثة التي أجهل تسميتها.

لم يكن رجلي ولم أكن امرأته.

لم يكن ابني ولم أكن أمه.

وكنا منشدّين أحدنا إلى الآخر.

كان يُشبعُ أمومتي، نعم هذا غريب وصعب الشّرح، وكان يشبع أنوثتي أيضًا.

كنت أعبث بخصلات شعره، أرتّب ياقة قميصه، أنتبه إلى تفاصيله، كأمّ. وأقبّله بشهوة غامضة.

لم نمارس الجنس. كنت أخاف من فقدانه. وهو لم يعبّر عن رغبة بممارسته. وإن كنا نتبادل القبل كعاشقَيْن أحيانًا حين نثمل، لكننا نتوقف عند ذلك الحد.

ثلاثة أشهر من النعيم، ومن الغرابة والدهشة والمتعة.

كنت أعيش في منطقة وردية، منطقة خالية من القمع الرجولي، ومن التطلب. كنت عشيقته وأمه وحبيبته، كنت كل هذه الأشياء التي يندر أن تجتمع لامرأة.

ينام في سريري أحيانًا، يمضي الليل بين ذراعَيَّ، يحتضنني فأنام بين ذارعيه، يأتيني بالكرواسان في الصباح، ويحضر لي القهوة...

كان يقوم على خدمتي ويرعاني كما يرعى الولد أمه.

لو كان الطفل الذي تركته بعمر شهرين صبيًا، لكان الآن بعمر ماتيو تمامًا، لكنني تركت طفلة هناك.

كأن ماتيو جاء يعوّضني عن أمومتي التي خسرتها... وعن الرجال.

عشت معه في منطقة خالصة الجمال، يمكنني تسميتها البرزخ.

يذهب معي إلى المسرح، ينتظرني، يعود معي، نسهر، نضحك...

كانت له نساؤه... وكان يمارس معهن دور الرجل القميء الذي أكرهه. كان رجلًا هناك، لكنه ما إن يدخل بيتي، حتى يستعيد طفولته أمامي، طفولته الناضجة، أو رجولته اليافعة.

أجل كنت سعيدة، لم أعرف ماذا أسمّي وضعي، كنت عاشقة أم أمًا؟ كنت أركل التعريفات والتأطير وأستمتع بدفء جسده الغضّ في سريري. إلى أن عرض عليّ ماتيو الذهاب إلى بيته الريفي قرب البحر في روسكوف.

قال لي: بيت قريب من الغابة، بيننا وبين البحر أقل من ثلاثة كيلومترات، حوالى خمس دقائق بالسيارة، وحوالى أربعون دقيقة سيرًا على الأقدام.

راقتني الفكرة، كان قد مرّ قرابة عامين منذ أن ذهبت آخر مرة إلى

البحر، يومها ذهبت مع أصدقاء إلى برست. لا تبعد روسكوف كثيرًا عن برست، حوالى الساعة بالسيارة.

كانت عروض المسرح في آخرها، وكان يعرف ذلك. بعد العرض الأخير، حزمت حقيبتي وغادرنا في الصباح الباكر، بسيارة ماتيو.

أمضينا يومًا سحريًا، تناولنا الطعام في مطعم على البحر، ثم تمشينا على الشاطئ. وعدنا قرابة العصر.

كان البيت شبه مهجور. في منطقة منعزلة فعلًا، لكنه مكان رائع. تركه له والده الذي مات منذ سنتين، وهو يعيش فيه وحده. حدّثني سريعًا عن عمله وحياته هنا. سألته لماذا ترك عمله هنا وبيته، وذهب إلى باريس. صدمني حين أجابني: من أجلك. لم أكن أصدقه... فرحت أسأله مجددًا: هيا، قل الحقيقة. ويكرر: هذه هي الحقيقة، تركت بيتي وعملي ومدينتي وجئت إلى باريس من أجلك أنتِ!

قبل العشاء، اقترح عليّ ماتيو النزول معه إلى القبو، لأختار ما أرغب من النبيذ المخزّن في الأسفل، إذ قال إنني أفهم في أنواع النبيذ أكثر منه.

نزلنا إلى القبو. شهقت وأنا أرى زجاجات النبيذ الهائلة مصفوفة خلف الستارة. شعرت بأنني أهوي، وكنت أصرخ ماتييووووو بصوت طويل، ثم فقدت الوعي.

نعم، كأنه فيلم بوليسي أو فيلم رعب.

أفقت لأجد نفسي موثقة بالسلاسل. يداي مربوطتان أمامي، ومكبّلتان، وساقي اليمنى مربوطة بسلسلة تربطها بالجدار، وأنا مستلقية على فرشة إسفنج، قرب الستارة، حيث زجاجات النبيذ.

أفقت تدريجيًا واستعدت وعيي، لأرى ماتيو أمامي يدخّن. نظرت إليه لأتأكد أنه هو، كانت عيناي مغبّشتين.

ـ ماتيو، هذا أنت؟

ـ ربما.

ـ ماتيو، ماذا حصل؟

ـ الحكاية طويلة، يصعب أن أرويها لكِ دفعة واحدة. لكن سأرويها اطمئنّي...

ـ ماتيو، لا أطيق هذا النوع من الألاعيب. لماذا تقيّدني؟ تعال فكّ وثاقي. هذا يؤلمني...

ـ لم تري شيئًا بعد أمينة... لم تتذوقي بعد الألم الذي أحضره لك..

ـ ماتيو!!!

كنت مندهشة، وكأنني في كابوس.

ـ ماتيو!!!

أنهى سيجارته، ونهض. صعد الدرج صوب الطابق الأعلى، أطفأ النور وتركني في الظلمة. كنت أصرخ باسمه: ماتيووو... حين سمعت صوت محرك سيارته.

كنت أنوس بين النوم واليقظة، برد في الليل رغم حرّ الصيف، وعطش فظيع... أذهب إلى التواليت، في الظلمة، أتكئ على الجدران، أصل حتى الباب المفضي إلى الحديقة، لا يمكنني الاقتراب أكثر، السلسلة في قدمي تشدني، والباب موصد بشدة، خطوط من ضوء القمر تتسلل من حواف الباب الخشبي، أقعي عند الباب وأبول... وأمسح بثوبي.

بيديّ الموثقتين أحاول إنزال سروالي كي لا أبول فيه... ثم

أرفعه، ونقاط البول تتسرب فوق ساقيّ، وأمسحها بالثوب... أجرّ السلسلة المربوطة بقدمي وأعود صوب الفرشة الباردة... وأجلس ساعات طويلة في العتمة، حتى يطلع الضوء ثم أسمع صوت محرك سيارة ماتيو.

حكاية ماتيو وأمه التي رآني فيها وعاقبها فيّ

عندما عاد في المساء جاءني بخبز وماء... كان متوتراً، وقد بدا كأنه في حيرة كيف يتصرّف، راح يدور في المكان وينفخ بين حينٍ وآخر. رحت أرجوه أن يفكّ قيدي وأعده بأنني سأنسى ما حصل. لكنه ظلّ صامتًا. وعندما عدت للتضرّع إليه صرخ بي أن أصمت. ثم بعد مرور بضع دقائق راح يحكي:

كانت ليتسيا الشابة المليئة بالضجر تعمل في مطعم ومقهى في مدينة روسكوف الصغيرة، وكان باتريك، الذي يمضي كل أيام الأسبوع في العمل في الصيد، يتوقّف فقط يوم الأحد عن الذهاب إلى البحر، ليحتسي البيرة مع أصحابه الكثر، سواء من العمل في المراكب حيث يلتقون يوميًا، أو من رفاق المدرسة الذين تفرقوا في مهن عدّة وبقي بعضهم في روسكوف، وغادر بعضهم إلى بريست، والبعض تركوا المنطقة إلى مدن أخرى، إنما كانوا يأتون من وقت إلى آخر لزيارة عائلاتهم في المدينة.

من أحد إلى آخر، جذب الضجر ليتسيا صوب مغازلات باتريك، الذي كان معجبًا بها وبصمتها وشرودها، فقد كانت تعمل كأنها آلة، تبتسم وتقدم الطلبات للزبائن، وتبدو غير مبالية بحياتها هنا.

خرج ليتسيا وباتريك معًا لأول مرة، بعد سنة من المغازلة المواظبة

من قبل باتريك... ثم حملت الصبية من دون تخطيط للأمر. وبعدها وافقت على العيش مع والد الجنين.

هكذا انتقلت للعيش مع باتريك في بيت والديه في روسكوف، بانتظار أن يشتري بيتاً مستقلّاً لهما عما قريب. وهكذا جاء ماتيو، ابنًا للضجر والصدفة والإعجاب الغامض، والحب من طرف واحد.

تركت ليتسيا العمل في المطعم، وتفرّغت لانتظار طفلها. وضعت الطفل، بعد سبعة أشهر من العيش المشترك، إذ كانت في شهرها الثاني حين ذهبت للعيش مع باتريك، من دون أن تمضي الكثير من الحوادث خلال تلك الشهور، بل كأن الضجر كان جزءًا من تكوين ليتسيا التي لم تفهم يومًا أي شيء من حياتها... لماذا وُلدت هنا في روسكوف؟ ولماذا تركت المدرسة باكرًا؟ ولماذا عملت في المطعم؟ ولماذا تزوجت من باتريك...؟

كانت حياتها سلسلة من حوادث غير مفهومة، لم تخطط لها، ولم تتدخّل فيها، بما في ذلك الحمل وولادة الطفل.

إلا أنها توقعت أن يأتي الطفل ببعض الحيوية إلى حياتها، فراحت تقرأ كتب تربية الأطفال، وتتسوّق الملابس الملائمة للطفل، وتقرأ عن تحوّلات الجسد والهرمونات في مراحل الحمل، وظلت دائمًا مفصولة عما يجري حولها، قليلة الكلام.

لم يغيّر باتريك من عاداته، حتى عادة الأحد في الذهاب إلى المقهى ذاته الذي تركت ليتسيا العمل فيه. حين كان يعود من العمل، كان يحدّثها طويلًا عن يومه، عن التفاصيل، وكأنه ينتظر أن تبدي اهتمامها بشيء مما يحدّثها به... لكن من دون جدوى.

لم يكن لها طلبات... كانت تقبل كل ما يعرضه من مقترحات

حول الطعام، وحول فرش البيت، وحول الخروج في نزهة... وتوافقه على كل شيء، وكأنها لا تهتم أبدًا بحصول أي شيء أو عدم حدوثه.

كان يتحدث طويلًا بعد الخروج من السينما عن الفيلم الذي شاهداه معًا، وكانت تستمع من دون تعليق، وحين يسألها تقول عبارة واحدة: «Pas mal».

لم يكن لوجود أي شيء أو غيابه أهمية لدى ليتسيا التي عاشت يتيمة الأب، مع أم كحولية تركتها معظم الوقت مع جدتها التي كانت تصحبها معها في لقاءاتها مع صديقاتها. أمضت ليتسيا جلّ طفولتها بين العجائز.

بعد ولادة ماتيو بشهرين، وجد باتريك البيت الذي كان يحلم بشرائه، والذي يتناسب مع المبلغ الذي جمعه خلال سنوات عمله. واشترى بيت أحلامه. ذلك البيت الذي كان يذهب إليه مع والده في العطلة، للصيد.

كان والد باتريك مولعًا بالصيد البري، لذلك اشترى هذا البيت القريب من الغابة، بل الملاصق للغابة، حيث الهدوء والعزلة. وحين سأل ليتسيا عن رأيها في البيت، وعرض عليها زيارته قبل شرائه، ردّت ليتسيا عليه بأن يفعل ما يرغب، وأنها لا تعترض على أي شيء يسبب له السعادة.

صارت ليتسيا تخرج من البيت، بعد خروج باتريك، تمرّ على جدتها التي شاخت كثيرًا لكنها تحتفظ بصحتها، تترك ماتيو لديها، مع كيس حفاضاته، وزجاجة الحليب.

تابعت ليتسيا ممارسة الضجر في المقهى الذي كانت تعمل فيه. تحتسي البيرة في الحادية عشرة صباحاً، وتتابع ضجرها حتى الرابعة

بعد الظهر، لتعود إلى بيت جدتها، تأخذ ماتيو، وتذهب إلى البيت، قبل عودة باتريك بساعات قليلة.

مضى الأمر سريعًا، حوالى الشهرين أو أقلّ... ولم تعد ليتسيا إلى بيت جدتها. تركت رسالة لباتريك، وقد شكّتها بدبوس أحكمت إغلاقه في ملابس ماتيو، وهي تسلّمه لجدتها، وتغادر.

وجدت الجدة الورقة بعد مغادرة حفيدتها بساعات، حين كانت تغيّر ملابس الطفل الذي بال وصار يبكي من برودة السائل... وظلت صامتة إلى أن جاء باتريك في الليل ليسأل عن زوجته التي لم يجدها في البيت. فاستلم الرسالة والطفل.

لم تمحِ الرسالة ما يهدّئ تساؤلات باتريك وقلقه: «غادرت إلى باريس مع الرجل الذي سينقذني من ضجر هذه المدينة. قل لماتيو حين يكبر إنني لست نادمة، وإنني لم أنجبه باختياري».

كان أبي لسنوات طويلة يجلبني إلى هذا القبو، يربطني، يشرب ويبكي ويحدثني: لو أنني ماعرفت أمك، لو أنني لم أنجبك، لو أني رميتك كما رمتك، لو أنني لم آخذك من جدتها...

لم يأخذني أبي من جدتها لأنه يحبني كما يحب الأب ابنه، بل ليعمل على تحريضي على أمي، ولينتقم منها من خلالي.

«سأربّيك حتى تكبر، لأنني واثق أنها ستعود نادمة، وحينها سأذلّها بك». هكذا كان يكرر لي.

كما كانت جدتي تربّي البطّ وتزقّه بالطعام لتكبير كبده، ثم تذبحه في يوم رأس السنة، لتستخرج كبده، كان أبي يربّيني ويزقّني بالطعام والتعليم، لأكبر، ثم يذبح أمي بي حين تعود ذات يوم.

حين بدأت أفهم حكاية صدمة أبي ومهانته، كنت أحلم بعودة أمي من أجله.

في البداية، كنت أحلم بعودتها من أجلي، أحلم بيدها على وجهي، بملامسة جلدها، بابتسامتها، بقبلتها... كنت ككل ولد، أحلم بأمي التي وزّع أبي صورها في البيت، لتلتصق جيدًا بذاكرتي، ويكرر: هذه التي هجرتنا، كلانا!

غير أنني صرت أتمنى أن تعود لتنقذني من عذابي مع أبي، وعذابي أمام عذابه. لم أعد أريدها لي. لا أريد أمًا تعتني بي، بل أريدها أن تعود إلى ذلك الرجل الفاشل اليائس الحزين...

كنا ننتظرها...

كان يخطط سيناريوات عودتها بصوت مسموع:

«ستأتي في عيد ميلادك، ستبكي أمامنا، ولن أسمح لها برؤيتك...».

أو يقول:

«ستصادفك معي في الطريق، وستهرع صوبك لمعانقتك، وأنت ستبصق عليها، أليس كذلك؟ إن سامحتها لن أسامحك... هل تفهم، ستبصق عليها».

«ستأتي في الميلاد، وتقول إنها نادمة وحزينة، وإن ذلك الرجل هجرها وتشعر بالوحدة والخوف، ستعود وسنتركها تتحدّث، وسوف نسخر منها معًا، نحن فريق واحد. أليس كذلك يا ماتيو؟».

ثلاثون سنة ، وأنا أحلم بسيناريوات أبي... هربت منه إلى جامعة رين، كنت أود الابتعاد أكثر، لكنه لم يسمح لي، بكى كالطفل بعد حصولي على البكالوريا. كنت أستطيع الدراسة في بريست الأقرب، لكنني فضّلت الابتعاد قليلًا.

كان يأتيني إلى رين، حيث سكنت في المدينة الجامعية، وقررت دراسة الفلسفة.

اختياري للفلسفة كان نتيجة لعلاقة أبي بأمي، ونتيجة لرحيل أمي الغامض. كنت أقرأ بعض الكتب من قبل، وأعجبتني أفكار العدمية عبر مناهج المدرسة، وتأثّرت بها. كان الحديث عن العدمية يشبه الحديث عني، أو عن أمي، التي تركت بعض الأوراق التي كانت تدوّنها من وقت لآخر وتعبّر فيها عن عدم أهمية أي شيء في حياتها، وعلاقتها بالضجر، وتفكيرها الملحّ بالانتحار بسبب تفاهة الحياة.

ذهبت إلى دراسة الفلسفة لفهم العالم اللامرئي، عالم الأفكار والهواجس. ورحت أتبنى يومًا العدمية ويومًا اللاأدرية ويومًا العبثية... كنت أعالج هجران أمي لنا، وأحاول أن أفهمه بالفلسفة والتساؤلات.

كنت ضحية أمي، طفلها المنبوذ. وضحية أبي، الذي أفرغ كراهيته وخذلانه فيّ... كنت ضحية مزدوجة لهجرانها، أمي وأبي.

لم أدخل في علاقة جادة في حياتي، المرأة في حياتي ليست أكثر من علاقة جسد عابرة، ما كنت أثق بأيّ من النساء.

مات أبي منذ سنة. وقد مضت على تخرّجي سنتان، ولم أشتغل بشهادتي. بل غادرت إلى باريس لسنة واحدة، مفكرًا بالتحضير للدكتوراه في إحدى جامعاتها. حين كان أبي يحتضر، كنت في باريس. عدت إلى روسكوف وبقيت إلى جانبه حتى رحل. ثم قررت العمل محله في المركب.

قال لي وهو يحتضر: هذا ما كنت أخشى حصوله هو أن أموت قبل معرفة النهاية... نهاية ليتسيا.

ثم ضحك وقال لي: أعلمني بالنهاية حين تعرفها، تعال إلى قبري واحكي لي ولا تنسَ، إياك أن تغفر لها وأن تأخذها يومًا بين ذراعيك.

مات أبي وهو حانق لأنه لم يلتقِ بأمي العائدة نادمة، أو متوسلة لرؤية ابنها. مات من دون أن يرى الألم والذلّ في عينيها. وصار حلمه حلمي، رؤية اليوم الذي تعود به ليتسيا نادمة.

ذات يوم، كنت أقرأ في مجلة مقابلة مع الممثلة المشهورة أمينة دو داماس[22]، خفق قلبي حين قرأت الجملة ذاتها التي قرأتها في رسالة أمي، والتي حفظتها عن ظهر قلب من كثرة ما عرضها أبي أمامي. كانت أمينة تقول في الحوار: غادرت إلى باريس مع الرجل الذي سينقذني من ضجر مدينة دمشق. أما عن الطفل الذي تركته، فأنا لست نادمة، لأنني لم أنجبه باختياري.

تقيأت بعد قراءة المقال، وصار وجه أمينة يلتصق بوجه أمي. ولأنني لم أعثر على أمي التي اختفت تمامًا منذ رحيلها إلى باريس، فقد صارت أمينة غريمتي التي سأعاقب بها أمي.

سأعاقب كل النساء اللواتي هجرن أطفالهن، وأزواجهنّ. من أجل حياة أفضل لهنَّ فقط. وهكذا جئت للعيش في باريس، لألتقيك وأقتلك.

بقيتُ ثلاثة عشر يوماً محبوسة في القبو.

كان ماتيو يُمضي النهار نائمًا، ثم يأتيني ليلًا بالطعام، يشرب أمامي، ويعيد الحكاية مع إضافات جديدة في كل مرة. يبكي ويتألم ويتهمني بأنني السبب في تدمير أمنه: لماذا خرجتِ بوجهي؟ لم أتخيل أنني قادر على ممارسة هذه البشاعة. أعرف أنني سيئ وشرّير بما أفعله بك، لكنني لا أستطيع وقف نفسي. أنا لا أشعر بالمتعة في تعذيبك،

(22) Amina de Damas

بل أتألم معك. لكنني صرت شخصًا آخر. صرت كأنني أبي. لماذا وثقتِ بي وجئتِ معي... اسمعيني، سأقتلك في النهاية. لكنني لستُ مستعدًا بعد لهذا. سأقتلك وأريحك من هذا الحبس، وسأريح نفسي. بينما الشخصان الرئيسيان لهذه الحكاية سعيدان الآن، ليتسيا التي لا أعرف أين هي، وباتريك الذي يستمتع من قبره بما أسبّب لك من ألم.

كان ماتيو يصعد مع إطلالة الفجر لينام في غرفته في الطابق الأعلى. كأنه ملّ من مغادرة البيت في الليل، ثملًا حزيناً، فأصرّ على أن ينام فوق. حيث يفصلنا الطابق الأول، طابق المعيشة. أسمع خطواته الثقيلة على السلالم الخشبية. أسمع صوت باب غرفته ينغلق... فأنام من التعب، والاطمئنان لانتهاء جلسة تعذيب الليلة.

الليلة الثالثة عشرة... نمت ثلاث ساعات تقريبًا، حين أيقظني صوت غريب قريب من أذني. استيقظت مذعورة، صوت يشبه فحيح الأفعى. نظرت حولي، ثم رأيت عينًا تطل عليّ من بين ثقوب الباب الخشبي.. همست لما خلف الباب متحدثة بالفرنسية:

- Viens.. aide moi.. je suisemprisonée.

بغتة سمعت صوت عواء.. كان منقذي كلبًا.

سمعت صوت صاحبه من بعيد يناديه، بينما هو يعوي كأنه يناديه. فهمت الموقف سريعًا. فرّ الأرنب المجروح صوب الحديقة الخلفية للبيت، حيث أستلقي. وحين قفز الكلب من فوق السور ملاحقًا الأرنب، شمّ رائحتي وحاول التعرف عليّ في هذا الخواء الملقى في البرية.

لحق صاحب الكلب بكلبه وقال مترددًا قلقًا من خلف السور:

- Il y a quelqu'un?

كنت أقول نعم، لكنه لم يسمعني.

لحظات مرعبة، من انقطاع الأمل. حين كان الرجل ينادي كلبه. يخطو الكلب ليلحق بصاحبه، فأهمس له من خلف الباب، خائفة من إيقاظ ماتيو:

- Non monchien.. Reste avec moi!

كان الكلب واقفاً ينبح بين كلينا، صاحبه وأنا. إلى أن حسم صاحبه الموقف وقفز فوق السور، وتقدم صوب الباب، حيث يقف الكلب، فسمعني. قلت له أرجوك أخرجني من هنا بسرعة، أنا مخطوفة، وأنت الآن معي في خطر. اتصل بالبوليس فورًا! ثم قلت بتوتر:

ـ لا أرجوك... أكسر الباب سريعًا وأخرجني، لا وقت أمامنا.

وافقني الرجل، كسر القفل بسهولة. ثم فكّ قيودي وحملني شبه عارية صوب سيارته التي تبعد قليلًا عن البيت. عبرنا، الرجل وأنا والكلب، أمام سيارة ماتيو المتوقفة قرب البوابة، ولحسن الحظ لم يستيقظ ماتيو فقد كان منهَكًا من السهر الطويل.

أخذني الرجل إلى بيته القريب من مركز المدينة في روسكوف. رفضت الاتصال بالبوليس. أعطتني زوجته ملابس من عندها، وأعطاني ثمن تذكرة القطار إلى باريس. أوصلني إلى مدينة مورليه بالسيارة، ومن هناك أخذت القطار إلى باريس. وصلت إلى البيت وليس معي شيء من أوراقي الثبوتية: بطاقة الهوية ـ بطاقة البنك ـ بطاقة الضمان الصحي... تركت كل شيء، حتى مفاتيح البيت. كلها كانت في حقيبة يدي في بيت ماتيو. تركتها وفررت بجلدي.

ساعدني فريدريك، جاري اللطيف، بالاتصال بعامل يفتح الباب ويغير القفل والمفتاح، ويعطيني النسخة الجديدة، ثم استخرجت لاحقًا وثائق جديدة: بطاقة البنك ـ بطاقة الهوية...

رغم الخوف الذي عشته... استعدت حياتي وعدت إلى المسرح، ولم أحكِ لكائن ما حصل لي.

بعد شهرين فقط، قبل منتصف الليل بقليل، سمعت جرس الباب يُقرع، وهذا أمر نادر وشبه مستحيل، إلّا في حالة الخطأ بالعنوان. فكرت أن أتصل بالشرطة، لكني ما كنت أتصوّر أن يكون ماتيو. فتحت الباب بعد تردد لأجد ماتيو أمامي.

لم أشعر بالخوف، بل كان شعورًا فيه شيء من الفرح الممزوج بالحذر. باغتني ماتيو قاطعًا ترددي، ساحبًا مسدسًا من جيب معطفه الداخلي، موجّهًا فوّهة مسدسه صوب رأسه، وقال:

ـ إما تقتلينني، أو أقتل نفسي على بابك، أو تسمحين لي بالتحدث إليك لربع ساعة فقط.

لا أدري لماذا لم أخف منه، بل قلت:

ـ نتحدّث ولكن ليس هنا، اسبقني إلى البار في آخر الشارع، سأغيّر ملابسي وألحق بك.

انفتح باب المصعد قبالتي وخرج منه جاري فريديرك ومعه الكلب، قال جاري وهو يوزّع نظراته بيني وبين ماتيو:

ـ أمينة، عزيزتي، أنت بخير؟

هززت رأسي مبتسمة، فقال:

ـ ليلتك سعيدة! وأقفل بابه وهو يدقّق النظر في ماتيو الذي بدا مرتبكًا. وشدّ كلبه بقوة، إذ كان يحاول الاقتراب من ماتيو بفضول الكلاب.

نظر ماتيو إليّ غاضبًا وقال:

ـ إذا لم تأتِ سأقتل نفسي أمام مدخل عمارتك، أقسم لك.

ـ لا... هيا أسرع وأنا قادمة.

ارتديت ملابسي وخرجت بسرعة، حتى إنني نسيت أن أغلق الباب. كنت متأكدة أنه نزل، وأنه توتّر من نظرات فريدريك. وبعد دقائق كنت أدخل البار وأجلس على طاولته.

ارتشف جرعة من كأسه وبدأ الحديث:

حين أفقت من النوم، ونزلت إلى القبو ولم أجدك، أحسست بالارتياح. بل شكرت الظرف الذي أجهله، وساعدك، بل ساعدني لإنقاذك وإنقاذي مني. أمينة، لم أكن في وعيي. هل تتخيلين رجلًا مثلي أمضى ثلاثين سنة يسمع الكلام ذاته في كل ليلة: الانتقام من الأم النابذة.

أحسست بالراحة بعد ذهابك... وأمضيت كل هذا الوقت محاسبًا نفسي. أنا رجلٌ مشوّه، شوّهني أبي الذي بدلًا من أن يحتضنني راح يزرع الحقد في نفسي.

تحدث ماتيو كثيرًا، وكان يشرب كثيرًا، وبغتة نهض وخرج. لحقته، فرأيته مقرفصًا على الأرض يتقيأ على الرصيف.

نهض والألم بادٍ على وجهه. نظر إلي ضابطًا دموعه:

ـ اغفري لي... سأختفي من حياتك... فقط اغفري لي.

اقتربت منه وهو يرتعش، من السُكْر أو ربما من البرد أو الألم أو التوتر... لا أعرف تمامًا. وضعت يدي على كتفه بحنان اندلق بغتة من ماضي مشاعري، وقلت:

ـ أنت الآن أفضل؟ أعني بعد عقابك لأمّك عبري، هل تحررت؟

وتبسّمت له.

ـ أظن أنني الآن شخص آخر... فقط أحتاج لغفرانك لأبدأ حياة

جديدة. كانت حياتي مبنية على فكرة الانتقام من غياب الأم. كنتِ أنت دوائي، وأحمد السماء أنك لم تتأذي كثيرًا.

كان وجه ماتيو مضاءً في العتمة. أضواء الشارع انعكست على وجهه، فتألقت عيناه بوميض خلع قلبي صوب ماضينا الدافئ. شعرت بحنين عنيف لحضنه، لرائحته في سريري. أحسست بالأمان، صدَّقته، رأيته ضعيفًا كعصفور مُصاب... شبكت ذراعي تحت ذراعه، وصحبته إلى البيت.

نام ماتيو في سريري مجددًا... قبّلني طويلاً قبل أن يغفو. قبّلني من عنقي وذراعيّ وظهري وبطني وساقيّ... كان يهمس لي: أنت قديسة، أنت ملاك.

وتدريجًا، استعدنا علاقتنا.

تقبّلت فكرة أن أتلقى العقاب عن أمه، إذا كان هذا يعيد له إنسانيته. ربما أنا أستحق هذا العقاب... ثم إنني لم أمت ولم أتشوّه جسديًا... والأيام كفيلة بإغلاق الندوب العالقة. علاقتي بماتيو، الجمال الذي يمنحني إياه، تستحق أن أبدأ معه من جديد. لقد تغيّر ماتيو... أجل، لقد استعدت ليس فقط ماتيو الذي كنت أحب، بل ماتيو جديدًا أجمل وأصحّ وأسلم.

ذات ليلة... دخل عليّ غاضبًا. قال بطريقة جديدة عليّ:

ـ ماذا بينك وبين هذا الفريدريك؟

ـ لا شيء، هو جاري فقط.

ـ لماذا ينظر إليّ بعدوانية؟ أحسّ بأنه يحتقرني كلما رآني، ثم إنه لا يلقي التحية عليّ، حتى كلبه، أشعر بأنه سيقفز علي ويلتهمني لولا أن صاحبه يشده بقوة كلما التقاني.

ـ أنت تبالغ، فريدريك لا يعرفك، وهذا طبعه، إنه بارد مع الغرباء. فهو لم يتحدّث إليّ إلّا بعد مرور خمس سنوات على سكني في جواره.

دخلنا في جدل سخيف، هو يصرّ أن فريدريك يكرهه لأنه يغار منه ولأنه يحبني، وأنا أؤكد له أن هذا طبع فريدريك... إلى أن ضجرت وصرخت به:

ـ اخرس... لقد أوجعت رأسي بكلامك التافه.. إذا لم تكن سعيدًا معي، أخرج الآن.

لم أتوقّع رد فعله:

ـ أنت تحبينه إذًا؟ تدافعين عنه؟ تريدينني أن أغادر لأنك لا تقبلين الحديث عنه. هذه أول مرة تطردينني، هذا يعني أنني محقّ، أنت تحبينه إذًا؟!

ـ اخرس ماتيو... هيا، غادر من هنا، أنت مملّ الليلة.

كنت أدفعه صوب الباب وأسير خلفه، فجأة استدار نحوي، ووضع يده على عنقي وهمس:

ـ سأخنقك أيتها العجوز... هل صدقتِ أنني أحبك؟ أنت عجوز قذرة، وأنا مستعد أن أعيش مليون مرة، لأقتلك في كل مرة.

ـ ماتيووووو...

خرج صوتي لمرة واحدة طويلة. دفعني صوب الجدار. ارتطم رأسي، وكدت أفقد الوعي حين شعرت بالدم يسيل باردًا من الخلف.

فتح ماتيو عينيه وهو يرى الدم، بدا عليه الخوف، لكنه هزّني وهو يقول:

ـ اشرحي لي، كيف لم تشتاقي يومًا لابنك الذي تركته في بلدك وهو طفل صغير، ولم تندمي حتى..

كان متوترًا، وقد اتضح لي أنه ليس مجرمًا، بل مجرّد طفل يبحث عن أمه...

- لم يكن ابنًا، كانت ابنة، قلت له.

- ابنًا أو ابنة لا يهم... كيف تتركين طفلتك... اشرحي لي قبل أن تموتي... أريد أن أعرف إن فكرت أمي بي ذات يوم أو اشتاقت لي أو ندمت... أرجوك!

كنت أتأوّه من الألم، أعتقد بأن صوت شجارنا وصل إلى بيت فريدريك الذي يسمعني حين أغني بل ويقول ممازحًا: أسمع خطواتك وأنت خارجة من الحمام، ليست ذاتها حين تدخلين البيت.

رنّ هاتفي المحمول، ولم يسمح لي ماتيو بالرد. ثم رنّ هاتفي الأرضي، وأيضًا لم أتمكن من الرد. رنّ جرس الباب. أحكم ماتيو يديه حول عنقي:

- حدثيني قبل أن تموتي... قولي إنك تحبين ابنتك.. قولي إنك نادمة..

لم يكن يمكنني الكلام، أحسست بالاختناق، صرت أرفسه محاولة التخلص من ثقله على عنقي... شعرت بالموت يقترب مني. مرّت لحظات كانت ساعات بالنسبة لي، أيقنت أنني ميتة لا محالة. كيف صدّقته؟ كانت صورته أمامي وهو يرجوني أن أعبّر عن ندمي على ترك طفلتي في دمشق تمتزج بصورته وهو يشرب ويبكي وأنا مربوطة أمامه في القبو... حين بدأت أفقد الوعي قليلًا ويتحوّل المكان حولي إلى غبش كامل، وصارت الغرفة تسبح في الضباب أو الدخان الأبيض، انفتح الباب فجأة، وعلا صراخ، وسمعت أصواتًا كثيرة:

- ارم سلاحك...

- توقف...
- سأقتلها وأقتل نفسي... ابتعدوا...
بم..
صوت إطلاق نار...
سقطت يدا ماتيو عن عنقي، وسقط رأسه في حضني.
سال دمي من رأسي المجروح وسقطت بعض القطرات على جبين ماتيو، الذي كان ينزف من الرصاصة التي استقرت في رأسه.
شددته إلى صدري وبكيت... شهق بين يدي، وشهقت من الألم.
مات ماتيو بين يديّ.

الشريط الأخير

والآن يا ساره، وصلنا إلى آخر الحكاية.
ربما هو بالصدفة الشريط الذي سجّلته في الساعة الثانية وخمسين دقيقة. وأظن أنني سأموت في الثانية والخمسين من عمري، أي هذا العام.
الآن تفهمين، لماذا كنت أماطل في سرد حكايتي. كنت أركّز على حياتي في سوريا، على معهد المسرح، صداقاتي وطموحاتي. ثم أطلت في الحديث عن جيرار..
نعم، كنت أكسب الوقت الذي صار يمضي بطيئًا، وأنا أنتظر، بل أتمنى، أن أصل إلى النهاية. كنت قررت ألّا أفشي بسرّي قبل وصول النهاية، لتعرفينها بعد أن أكون فارقت الحياة.
لم أرغب أن أخبركِ بما ستعرفينه الآن، وجهًا لوجه.
لم يكن ذلك خوفًا من مواجهة ما فعلت، بل ما كنت أريد أن

يبدو الأمر كأنه ابتزاز عاطفيّ: المرأة المريضة بالسرطان تنظر في عينيّ الصبية المتمتّعة بالصحة نظرة انكسار وتحكي بتأثّر حكايتها المؤلمة، لترتمي الصبيّة في حضنها كما لو أننا في فيلم هنديّ، أو واحدة من تلك الروايات التي تستدرّ الدموع...

كما أنني قلبت الأمر على وجه آخر، وقلت لنفسي، ربما تغضبين وتلمّين أغراضك وتمشين. وهذا أيضًا ضعفٌ منكِ وانكسار لي.

لم أرغب أن أضعك أمام حالة الاختيار وأنا على قيد الحياة.

ربما بدأت تعرفين الآن ما كان مخفيًّا عنك طيلة هذه السنوات؟

نعم، إذا بدأ قلبك يخفق بالخوف أو القلق، فهذا صحيح يا ساره: الطفل الذي تركته في سوريا بعمر الشهرين، والذي تحدّثت عنه دائمًا بصيغة المذكر، كان بنتًا... كنتِ أنت يا ساره.

لماذا أخبرك بهذا؟

أنا لا أنتظر منك أن تغفري لي، ولا أن تحبيني كأم، ولا أن تتغير حياتك بسبب هذه الحقيقة التي لا أعرف كيف ستنظرين إليها. فقط أريد أن تفهمي. لا أريد للحقد أن يدخل حياتك، فتتحوّلين إلى شبه ماتيو.

حتى لو لم يحدّثك أهلك، ربما يأتي يوم تعرفين بطريقة ما... لا أريد لظاهرة ماتيو أن تتكرر... أريدك أن تفهمي ما حصل، حتى لا تكرهي يومًا النساء والأمومة، لتنجبي ذات يوم وتعيشي حياتك من غير عُقد.

لكنني اليوم أريدك أن تعرفي، لسبب واحد فقط: أن هذا هو حقك.

حسنًا، أنا لا أطلب منك أية مشاعر الآن. ولن أنتظر منك أن تسامحيني على ذنب لم أقترفه.

ستغضبين؟ أظن ذلك، لكني آمل أن تسمعيني بهدوء. فأنا لا أبرر... أنا أشرح فقط.

لست نادمة يا ساره على حياتي التي اخترتها. لقد عشت امرأة سعيدة. أما ماتيو والسرطان وتركك وأنت طفلة، فهي أجزاء من حياة واسعة، لا بدّ من حدوث أمور كهذه أو غيرها فيها، لتكون الحياة جديرة باسمها، هكذا هي، تعطي وتأخذ.

كان ماتيو سرَطاني في آخر الحياة. لا أنكر أنني استمتعت بالعلاقة معه، حتى عبر ذلك الألم غير المتوقَّع، كان ثمة شيء من الدراما التي كنت أشتغل عليها في شخصيات الأخريات اللواتي أتقمَّصهنّ على المسرح.

لا أعرف إذا كان أحدنا يختار مصيره ونهايته بنفسه، عن وعي أو من دونه. لكنه من اللافت للنظر، أن يهاجمني سرطان ماتيو اللذيذ بتلك المأسوية الجديرة ببطلات الأولمب. لهذا أحببت سرطاني الروحي، الذي أعتقد بأنه السبب في سرطان دمي أو نتيجته.

حين رأيت دم ماتيو على يدي وقد فارقت روحه الحياة، تسمّم دمي، وأصبت بالسرطان.

لن يهمني ما يقوله الأطباء عن أسباب السرطان، أعرف أنه ماتيو، وأنها نهاية مأسوية تليق بالأبطال الدراميين في القصص التي تتحوّل إلى أساطير، فالأساطير لم تكن كذلك في زمنها، لقد تحوّلت لتكون كذلك.

كان ماتيو سرطاني، ولكنه في الوقت نفسه كان جرسي. جرس الإنذار الذي نبّهني قبل أن أرحل من الحياة وأترك صفحة غير مفهومة خلفي.

ماتيو كان الجرس الذي جعلني أفكر بلقائك لإخبارك. لم يكن قرارًا سهلًا لي، ولا لهدهد، ولا لوالدك أيضًا. تلك الحرب اللعينة ساعدت في اتخاذ قرار دعوتك إلى هنا.

لست نادمة أنني تركتك، لأنني صنعت حياتي وسعادتي ومجدي. فكّرت بكِ كثيرًا، ولطلما تساءلت ما إذا كان هذا في صالحكِ، وتساءلت عن مدى أنانية، أو ربما بشاعة، ما أقدمت عليه. لكن يجب ألا أخفي عنكِ، ومهما كان رأيكِ أو ردّ فعلكِ، أنّ شغفي كان أقوى من كل تلك المشاعر.

أنا أحب المسرح أكثر من أي شيء آخر. أكثر من الحب بين المرأة والرجل، وأكثر من أمومتي.

اسمعي... حين حملت بك، لم أكن أنتظر ذلك. وقع هذا بعد زواجنا على الفور، وكنتُ صغيرة وغير مستعدة للأمومة. لكن وليد رفض أن أجهض... وجئتِ.

لا تظني أنني رفضتك، أنا لم أعرفك لأرفضك. كنت أرفض الأمومة آنذاك.

لن أحدّثك عن الأمومة، فأنا لم أركِ، ولن أزعم أنه كانت لدي مشاعر تجاه كتلة لحم وجدتها فجأة في حياتي، وحين عرض علي جيرار المجيء إلى باريس والعمل معه في فرقته، لم أتردد لحظة. كنتِ قطعة لحم صغيرة أمامي، ولم أكن أملك أية مشاعر نحوك.

من حقك اليوم ألّا تملكي أية مشاعر نحوي. أنا لا أطلب منك المشاعر، بل أنتظر منك أن تفهمي الحياة بعيدًا عني... أن تفهمي حياتي بعيدًا عن حياتك.

أنا لا أعتقد بأنني آذيتك. تركتك عند وليد، وأنا أعرف أنه

رجل عاقل ومسؤول، لم يكن طائشًا أو متهوّرًا مثلي. كنت أعرف أنه سيحبّك وسيسعى لإيجاد بديل لك عني. سيجد لك أمًّا أفضل مني. وهذا ما حصل.

فالأمومة لا تنشأ في لحظة الولادة. إنها مسار يبدأ من سعادة الأم بالإحساس بفرح تكوّن الجنين في رحمها. من الفرح بالنظر إلى بطنها وهي تتكوّر. من السعادة الغامرة بوليدها وهو يتحرّك في داخلها.. حتى ألم الولادة سعادة للأم... أما أنا فلم أعِش كل ذلك، حملت ولم أكن أريد ذلك. عشت مرحلة الحمل وأنا أتمنى لو أستطيع التخلّص منه. عشت كل الآلام من دون أن أستمتع بمشاعر الأمومة...

نسيت، أو كنت أرغب أن أنسى، كل تلك المرحلة. لكن، ولا أقول ذلك لأستدرّ عواطفكِ فأنا لم أعد أمامكِ، ولن أرى بكاءكِ، أو غضبكِ.. لكن، شيئًا واحدًا لم أنسه: أنتِ.

لم أتوقع آنذاك أن يتزوج وليد من هدهد. كانت هدهد صبية رومانسية وشاردة على الدوام. وكانت مولعة بشاب آخر.

لكنها تزوجت وليد... هي التي شعرت بك وتولّدت لديها مشاعر إزاءك حين رأتك. وحين راحت تهتم بكِ بدافع المسؤولية في البداية... مسؤولية راحت تتحوّل إلى مشاعر. صرت أكثر قناعة بأن الأمومة ليست البيولوجيا فقط.

هذا ما حاولت شرحه لماتيو... لكنه عاش ذلك الخلل، بسبب والده الأحمق. لهذا قتلني ماتيو. قتلني حين مات بسبب خلل الأمومة... أظن أن ماتيو جلب لي السرطان. لم أحتمل دمه بين يديّ. لكنني تنبّهت إلى ضرورة أن أشرح لكِ.

كان يمكنك أن تكملي حياتك من دون معرفة هذا التفصيل

الصغير برأيي. ماذا يعني أنكِ ولدتِ من امرأة أخرى، وعشت معها شهرين فقط، بينما أمضيت سنواتك الثلاثين مع امرأة أخرى، عرفتْ عنك كل شيء، تقلّباتك المزاجية، أوضاعك الصحية، نقاط ضعفك، ارتباكاتك العاطفية، مواعيد نومك، ليالي قلقك، مواعيد طمثك... إنها هي التي شاركتك خارطتك الوجودية، وهي أمك.

إلا أنني فقط قررت أنه من حقكِ أن تعلمي... فربما ذات يوم، أموت أنا، وتموت هدهد، وتعرفين بطريقة ما، ربما بتحاليل الـ«دي أن آي» أو لأيّ سبب أجهله الآن، ستكونين وحيدة ومصدومة وما مَن يقدّم لكِ الإيضاحات المطلوبة، ولا مَنْ يجيب عن أسئلة قد ترميك في الحيرة والشك.

لهذا قررت أن أخبرك. بعد موتي، ولكن قبل موت هدهد لأنها الأقدر على تقديم الأجوبة عن تساؤلاتك التي ستلي هذا الاعتراف.

لست نادمة على خياري. لأن الحياة لا تهتم للندم، والحياة منحتني السعادة في الفن.

وآمل أن تختاري سعادتك أنت أيضًا في شيء تحبينه. لن أنصحك، أعرف أنك لن تهتمّي، وأنك ربما ستهزئين من نُصحي. فقط تذكري أنك تحبين الموسيقى.

فكري طويلًا وخذي وقتك. ولست مضطرة لقبولي أو رفضي في حياتك.

حين تنتهين من سماع هذا التسجيل. اتصلي بالمحامي. هو ذاته صاحب الحساب المصرفي الذي تحوّلين له إيجار البيت كل شهر. ستجدين لديه كافة الوثائق التي تحيلك مالكة لهذا المسكن، ووارثة لحسابي المصرفي وحقوقي المادية والمعنوية في المسرح. وحتى الإيجار الشهري الذي كنت تسددينه لحساب المحامي، سيعود لك.

هذا حقك القانوني، لأنك ابنتي ووريثتي الوحيدة.

إن كان يحق لي هذا، أو لا، سوف أقوله، ولا أقصد أبدًا التأثير عليك، لكن الوقت القليل الذي قضيته معكِ كان ممتعًا بالنسبة لي. كان وجودك بمثابة هدية وسعادة إضافية قدّمتها لي الحياة في آخر أيامي، لا كأمّ، بل كإنسانة تلتقي بصبية ذكية وجميلة ومليئة بالحيوية والذكاء والطموح.

كنت سعيدة بلقائك يا ساره.. آمل ألا تسبّب لك هذه التسجيلات أيّ ألم، بل آمل، وأتمنى، أن تكون مدخلًا لك صوب الحرية. أنت الآن امرأة حرة... ستطرحين على نفسكِ سؤال الهوية. لا تتعجّلي الإجابة. عيشي هنا واستمتعي، وكوني ما ترغبينه.

الحديث عن المنفى هراء يا ساره!

قد أبدو كاذبة إذ أقول أحبك... ربما هذا ليس من حقّي، لكنني سأقول أحببت الأيام التي عشتها معك. أحببت تلك المشاعر التي عشتها وأنت بجانبي.

مهما يكن رأيكِ، ومهما تكن مشاعركِ نحوي إلّا أنني في الختام أقول: أحببتك.

الساعة الثالثة صباحًا

كأن طبولًا تقرع في رأسي. كأنني سأموت بعد قليل. نبضات قلبي صارت غير منتظمة. حمل كبير فوق صدري. نفَسي يضيق. أحتاج إلى أحد في هذا الليل. اخترت الوحدة وها أنا سأموت وحدي. لا أستطيع أن أحتمل هذا وحدي! هل أطرق الباب على فريدريك وأبكي على صدره. هل أطرق باب بيته وحين يفتح الباب، أرتمي

على العتبة وأفرفر كالدجاجة، فيحتويني، يفتح لي زجاجة نبيذ، أبكي وأحدّثه عن ضياعي، عن هذا الخواء الذي يقتلع حياتي من داخلي. كأنني لم أعِش. ماذا يعني أن كل حياتي كانت كذبًا!

كما الحرب التي تلتهم كل شيء، وتُفقِد الأشياء معناها فتصبح عبثًا. كما يمكن أن ينهار كل شيء ويتلاشى في أي وقت، البيوت، والذكريات، والمدّخرات التي يُمضي أحدنا سنوات عمره يجمعها ليحسّن حياته، والأواني الزجاج والأدوات الفاخرة التي نرثها من الجدات والأمهات ونخشى استعمالها كي لا تتضرّر، والتفاصيل التي نحشو بها البيوت، وخزائننا الخاصة... الحرب تبتلع كل شيء، تذيبه. لا يعود لأي شيء معنى، لا الدراسة، ولا الشهادات، ولا النجاح... الموت فقط هو اللغة السائدة. العدم. الحرب التي تعدم كل شيء.

هكذا أشعر... الحرب تشتعل في رأسي... كل شيء في داخلي توقّف. فقط أحتاج لأحد يواسيني. العالم ضيّق جدًا. لا أحد هنا. هل أتصل بهالا؟ ربما هي لم تنم بعد، هالا تتأخر في السهر.

أتصل بهالا، هاتفها مقفل. ربما نامت. أرسل لها رسالة.

سوسن ليست على الفايبر.

عمتي ليست على السكايب.

أفتح الفايسبوك، ربما أجد أحدًا أعرفه على الخط...

يضيء الواتس آب عند اسم أمي، تكتب لي:

ـ ساره، بعدك سهرانة هلّق؟

كيف أبكي عبر الواتس آب؟ أكتب لها:

ـ أنا عم موت...

ـ ليش يا أمي، سلامتك، اتصلي بالإسعاف يا بنتي.

ـ أنا مو بنتك.
ـ ساره... شوصاير عليكي، خوَّفتيني..
ـ أنا بكرهك... بكرهكن كلكن، ليش خبيتو عليّ.
ـ ساره.. نحن ما نمنا الليلة من القصف. أنا كمان ممكن موت في أي لحظة. قمت أتوضأ وأصلي الفجر، تعرفين أنني أجمع عادة صلاتَيْ الفجر والصبح. لكنني لم أنم.. الظروف قاسية على الجميع.. ما تعانينه الآن كبير وأنا معك، لكنه أفضل من المعاناة التي نعيشها هنا... لست نادمة على ذهابكِ. أنا رايحة أتوضأ. شفتك عالخط قلت اطمّن عليكي. قلبي حسَّسني أنك مش مرتاحة. ارتاحي شوي. بتوضّا وبرجعلك، رح يأذّن الصبح عنّا بعد أقل من ساعة.
أشعلت سيجارة وحاولت أن أهدئ نفسي قليلًا.. عادت أمي بعد دقائق، واتصلت بي عبر «الفايبر».
ـ ساره، بعدك فايقة يا بنتي؟
ـ ليش ما خبرتوني كل هالسنين؟ هلق فهمت ليش ما كنتي تحبّيني.
ـ أنا ما كنت حبك؟ متأكدة من كلامك؟
ـ لا، مش هيك قصدي... لكنك كنت تميّزي بيني وبين سوسن وسمير... كنت لاحظ أنكِ بتحلفي بحياتن... ولا مرة حلفتي بحياتي.
ـ لأنّو هذا مش من حقّي.. مش من حقي راهن على حياتك... إذا بدك تعرفي يومًا ما قديش حبيتك، اسألي عادل.
ـ مين عادل؟
ـ الشخص اللي كنت مضطرّة اختار بينك وبينو، وتركتو.

اسمعيني يا ساره، اسمعي حكايتي بعد ما سمعتي حكاية أمينة..

أنا وأمينة كنا مختلفتين في الشكل وفي العقلية وفي معظم اختيارات الحياة.. لكننا كنا أختين بينها محبة ووشائج كثيرة... كانت هي أكثر جرأةً مني... الحكاية بدأت مع ذلك الغرام الجارف الذي وقع فيه وليد، والدكِ. حين أحب تلك الصبية المجنونة أمينة.

كانت أمينة فتاة تبدو عابثة بوهيمية... تطلق ضفائرها الطويلة، وتفرقع ضحكاتها... تمشي كأنها قبيلة نساء.. بقلاداتها الكثيرة وتنانيرها الطويلة... تعيش حياة تضجّ بالحركة والحياة.

أما هو، وليد، طالب السنة الأخيرة في كلية الصيدلة، والذي يعمل متطوّعًا للحصول على الخبرات في صيدلية الجاحظ، فقد غرق في بحر جاذبية تلك الصبية الفاتنة، الملينة بالألوان، التي تمر أمام الصيدلية كلما ذهبت إلى المكتبة... وعصرت قلب وليد بالأسى والشوق والغرام...

كلما رآها تمر، مصحوبة دائمًا برفاق ورفيقات، تتميّز بينهم بضحكتها العالية الموسيقية وألوانها... كان يقول لنفسه: «مؤكد أنها فنانة. هي ممثلة على الأغلب». وكان يدعوها بينه وبين نفسه: سعاد. كانت سعاد حسني الدمشقية.

وجاءته الفرصة حين دخلت يومًا إلى الصيدلية لشراء مخفّف لألم الرأس. تخلّى وليد عن ارتباكه وبادرها بالقول:

غريب أن يؤلمكِ رأسكِ. أدهشها تعليقه، نظرت في وجهه الجميل وقالت: «لماذا، أيبدو لك رأسي فارغًا لا يشغله شيء؟».

«بل ضحكاتك العالية وطريقة مشيكِ وشكلكِ... كل هذا يوحي بأنكِ سعيدة ومرحة».

أعجبتها تعليقاته فتبسّمت وهذا شجّعه على دعوتها إلى لقاء في كافيتيريا الجامعة. لم يطل الوقت كثيرًا. كان شابًا جميلًا ومن عائلة ثرية. كان يجسّد طموحها، أو الأحرى ما تحلم به، شابٌ منفتح يمكن أن يفتح لها أبواب تحقيق حلمها في التمثيل... وكان مسحورًا بشخصيتها المنطلقة..

وتزوّجا...

زواجًا شرعيًا لم يثبتاه على الورق، بانتظار انتهاء امتحاناته، والذهاب إلى حلب، حيث عائلته، ليثبتوا الزواج في المحكمة.

غضبت أمه وأخته حينما أخبرهما أنه تزوج هكذا، من دون أن يعرّفهما إلى عروسه ومن دون أن يفرحا بزواجه في حفل كبير.

«شهران فقط»، قال لأمه، «وأجلبها إليكم، تحتفون بها، ونسجّل الزواج رسميًا».

لكن الأمر لم يجرِ كما أراد له وليد.

بعد سنة عاد إليهم، بأمينة وطفلتها. قدّمني إلى عائلته على أنني أمينة، زوجته التي أحبها والتي قرّر أن يعيش معها خارج التقاليد. ولم يُدخل العائلة في تفاصيل هروب تلك الزوجة، أم ابنته، وحلول أختها محلها... وهكذا تعاملت العائلة معي على أنني طالبة المسرح التي فتنت ابنهم.

«كان شهر تموز... صيف بيجنّن، رجعت من حديقة الجاحظ...»

وراحت أمي تحكي كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة لتتحدّث عن عالمها الذي كانت تحبه. عالمها الذي تركته وما زالت غير مصدّقة أنها انفصلت عنه...

منذ أول موعد غرام... بعد سنة من الرسائل والنظرات

والابتسامات المكبوتة وعضّ الشفاه بدل القبلة واللقاءات الصامتة في الطريق من البيت إلى المدرسة... التقينا... أخذت له المنديل المطرَّز والشال كما في الروايات القديمة... واتفقنا على الزواج... سيخطبني بعد التخرج، ونتزوج بعد سنتين من الجامعة. كان ذلك أول حب حقيقي في حياتي.

ثم في يومٍ انتهى كل شيء فجأة.

في ذلك اليوم عدتُ إلى البيت، وجدت العائلة مجتمعة وكأنّ على رأسهم الطير كما يُقال. كان وليد يحمل لفّة صغيرة، بدوتِ فيها كأنك دمية. وكانت أمي تبكي وأبي يضرب أخماسًا بأسداس.

حين دخلت كان والدك يقول:

ـ سأتركها لديكم حتى أخبر أهلي. يجب أن أمهّد الطريق لأنقل الخبر إلى أمي وأختي. عائلتي تنتظر بفارغ الصبر لقاءنا أنا وأمينة وطفلتنا. كيف أذهب بالطفلة من دون الأم!

قال أبي فجأة:

ـ خذ أختها على أنها هي... فقط لبعض الوقت، حتى نجد حلًّا.

صرخت أمي:

ـ ما هذا الجنون!! ثم حين يعرفون الحقيقة لاحقًا، سيحقدون علينا، هذه أمور لا يمكن التمثيل فيها ولا التعامل بخفّة.

نظر والدك إليّ وأنا لا أزال واقفة في العتبة، ثم نهض وتوجّه صوبي، ووضعك في حضني.

كانت تلك أول مرة أراكِ فيها... وحين عرفت ما حصل أخذتك ودخلت بك إلى غرفتي، ولم أنبس بكلمة. كنت ضائعة وغاضبة. راحت الأرض تدور بي والأفكار تتلاطم في رأسي... مَنْ

سيتحمّل...؟ مَنْ سيدرأ الفضيحة عن أهلي والعائلة؟ مَنْ سيمنع الحزن والموت والألم عن والديّ اللذين أحبهما جدا؟ مَنْ...؟

رحتِ تصرخين. ضممتكِ إلى صدري فهدأتِ... هكذا بدأت حياتي معكِ.

مرّ أسبوع من الحيرة المعذّبة في حياتي لم أرَ مثله من قبل ولا من بعد. أهلي يدورون في البيت ويضربون كفًا بكف، يتساءلون عن أمينة. أصغر حركة خلف الباب الرئيسي لبيتنا تجعلهم يقفزون ويهرعون إلى الباب عسى يصلهم خبر جديد!! لكن لا خبر، وحده وليد، أبوكِ، يخرج من البيت محاولًا البحث... لكنه يعود أكثر إحباطًا.

كنت أرى في نظرات الجميع أنني وحدي مَنْ يملك الحلّ. وكنت أرتجف وأفكر بعادل. كانت تضرّعات أمي، وخاصة نظرات أبي تجعلني ضعيفة وبائسة وفي حيرة رهيبة. ومن الجهة الأخرى كنتِ أنتِ التي كنت أعرف أيّ عذاب ستعيشينه إن لم أتخذ ذلك القرار الذي تسألني عنه العيون كلما التقيتها.

أخيرًا، بعد أن انقطع الأمل بعودة أمينة، وكنت أحمل لك زجاجة الحليب، دخل والدكِ الغرفة ورائي. لم ينظر إليّ ولم أسأله ماذا يريد. وقف صامتًا للحظات، ثم قال تلك الكلمات التي كنت أسمعها في نظرات كل مَن في البيت:

ـ هدهد، أعتقد أن لا سبيل لدرء الفضيحة إلّا عن طريق زواجنا، وأنا موافق على أيّ شروط تضعينها.

قال كلماته وخرج. عندما فتح باب الغرفة ليخرج لمحت والدتي تقف خلف الباب وقد وضعت كفّيْها على خدّيْها وأبي يقف وراءها على بُعد خطوتين ينظر في الأرض.

اتصلت بعادل بعد أسبوع، وكان صوتي يرتجف على الهاتف. كان يتصل بي طيلة ذلك الأسبوع ولا أرد.

ـ هل يمكن أن نلتقي؟

ـ ...

ـ هدهد... حبيبتي... ماذا حصل؟ أنا خائف جدًا.

وطال الصمت وهو يرجوني أن أرد. أخيرًا قلت:

ـ تعال إلى الحديقة، المكان الذي التقينا فيه من قبل. وسأشرح لك.

ـ هدهد، أخبريني شيئًا وإلّا أحس بأنني سأموت.

وبكيت على الهاتف.

وظلّ يلحّ، وفي صوته خوف العاشق من مصيبة تمنع عنه معشوقته:

ـ نلتقي وأشرح لك. ثم أقفلت الخط.

عندما التقينا ذلك اللقاء الأخير أحضر لي رواية (مائة عام من العزلة)، ومعها عقدًا من حبات العقيق.

كنت أتخيل وجه أمي يشرق بالفرح وهي تروي لي، تمامًا كذلك الفرح الذي كان يظهر على وجهها وهي تغنّي أغاني الحب وحدها، غير منتبهة لوجودي... كم أتمنى لو أنني معها في هذه اللحظة، تحدّثني عن ذلك الغرام... قاطعت أمي:

ـ آه.. فهمت الآن قصة العقد الذي لم يفارق عنقك، حتى في الحمام.

ـ لا، كنت أنزعه داخل الحمام، أستحمّ، ثم أضعه مجددًا... نعم لم أخرج يوماً من دون ذلك العقد، منذ أن وضعه عادل في عنقي... كنت أشعر في قرارة نفسي، بأنني حين سأموت ذات يوم، ستفنى جثتي، لكن هذه الحبات ستبقى داخل كفني، ولن تفنى...

كان توتّري يخفّ، بل تملكني إحساس أنه عليّ أن أخفّف عن تلك المرأة التي تخلّت عن حياتها لأجل حياتي. قلت:

ـ كنت أتخيل أن عقدك يحوي حبات الزبيب... لم أقل لك هذا يومًا، لكنني لطالما اندهشت من ملامسته في طفولتي.

ضحكت أمي وقالت:

ـ نعم، مرة أصرّيت على عضّ الحبات وبكيتِ حين وجدتِها قاسية..

شرحت لعادل ما فعلته أختي والظروف التي أمرّ بها أنا وعائلتي، وأبلغته أني مضطرة للزواج من زوج أختي، وأنه لا يمكنني تحمّل نتائج الفضيحة التي ستحصل إن لم أفعل ذلك وانعكاسها على عائلتي وعلى والدَيَّ تحديدًا.

بالطبع رفض الفكرة في البداية وقال إنه من الظلم تحميلنا، أنا وهو، نتيجة طيش أختي وهربها... لكن ذلك لم يغيّر في قراري..

بكينا طويلًا أنا وعادل، وطالبني بالتفكير مجددًا.

عدت إلى البيت من ذلك اللقاء، والأرض تدور بي وأحسّها تنزلق من تحتي. أحسست بتأرجح غامض، قدماي ترتجفان... أشعر بأنني أفقد توازني... أرى البيت ينقلب بي ويتشقّق... لون دخّاني ينتشر في المكان، فلا أرى حولي سوى الدخان... أغوص، أهبط، أنزل، أنزحلق... أنا تحت... فوق...

فجأة، أفقد الاتصال بي وبالعالم: أفقد وعيي. منذ ذلك اليوم صارت تلك الغيبوبة تنتابني من وقت لآخر.

تزوجتُ والدك. هو لم يمسَّني، وأنا ما كنت لأقبل.

كنت أنام في غرفة، وهو ينام في غرفة أخرى.

ثم التقيت عادل قبل أن يهاجر إلى أميركا. كان عمرك ستة أشهر. أخذتك معي إلى حديقة الكواكبي لأجعله يرى كم هو مهم السبب الذي جعلني أترك أحلامنا الجميلة وأقبل العيش مع وليد. كشفت له عن وجهكِ وقلت: انظر في عينيها، هل يمكن لأحد أن يترك هذا الكائن البديع لأيّ سبب في الكون!

نظر عادل إليكِ، أخذكِ في حضنه وطبع قبلة على جبينك، فابتسمتِ له وأشرق وجهك. قال لي: تعالي معي إلى أميركا، نأخذها معنا ونربّيها ابنة لنا.

طبعًا لم يكن ذلك ليخطر لي على بال. كان حبك قد تغلغل في جوارحي وما كان يمكنني أن أفكّر في أن أبعدكِ عن والدك الذي صرتِ كل شيء في حياته.

حزنت كثيرًا وأنا أدرك أن هذا آخر لقاء بيني وبين عادل، كان حب حياتي، وكانت أحلامي كلها معلّقة على هذا الحب. مررت بمرحلة كآبة فظيعة ويأس وإحساس بظلم شديد أفرضه على نفسي وعلى عادل، لكنكِ كنت تنتزعينني من يأسي وكآبتي وتعيدينني إلى حب الحياة.

بعد سنة ونصف من سفر عادل... بدأت تصبحين دمية رائعة أكثر من قبل، أصبحتِ حياتي. وتوقفت حياتي عليكِ. كنت كل شيء بالنسبة إليَّ.

كانت التحضيرات التي نقوم بها أنا ووالدكِ لعيد ميلادكِ الثاني تجمعنا بفرح. وكنتِ حين تنادينني ماما أحسّ برعب في داخلي من أن أفقد هذا النداء. الفرح كان يجتاح البيت، جدّكِ كان قد أحضر لكِ هديّتك قبل شهرين من يوم عيدكِ. ثم أحضر هديّة أخرى وراح هو

وجدتك يعملان على تزيين البيت مثل ولدين يلهوان. في ذلك اليوم، قبل شهرين من حلول يوم ميلادكِ، حمّى اللعب اجتاحت البيت كله، كان أبوك ونحن نلعب بك. كانت الضحكات تنطلق من القلب. بعد أن تعبتِ وغفوتِ في حضني في الصالون، وبعد أن خرج جدّاكِ، حملتك لأضعكِ في سريركِ، ودخل والدك الغرفة ورائي. كان يقف خلفي. احتضنني من الخلف وقال بكلمات رقيقة:

ـ ألم يحن الوقت؟

ارتبكت فجأة، وتضرّجت أنوثتي بالرغبة والخجل.

أضاف: سننجب طفلة جميلة مثلها، انظري إليها، هل نتركها وحيدة، ألا تستحق أن يكون لها أخ أو أخت؟

كنت أسمع صوتك المرح. وأخذني وليد على أنغام صوتك المليء بالحياة والفرح.

وهكذا جاءت سوسن... ودخلتُ الحياة مجددًا من باب زواجي الفعلي، لا الورقي فقط، من زوج أختي.

أختي التي سرقت حياتي.

لم أعش حياتي. عشت الحياة التي اختارتها أختي ثم تركَتْها.. لم أختر حياتي: لا زوجي ولا أقاربه ولا حلب التي تركت دمشق بسببها.

سُرقت حياتي مني. وعشت غيرها. عشت حياة غيري وذهبت حياتي التي حلمت بها وبنيتها في مخيّلتي. كنت أتابع حياتي التي ذهبت، أتخيلها كيف تسير... حياتي التي كان ينبغي أن أعيشها مع عادل. كنت أمشط شعر سوسن وأنا أتخيلها ابنة عادل، وأن عادل سيمرّ على المدرسة لاصطحابها في طريق العودة ويدخلان معًا

بينما أعدّ الطعام. كنت أتخيل سمير يذهب برفقة والده، عادل، إلى الحلاق... كانت حياتي مع عادل تجري بموازاة حياتي مع وليد. كنت أمنح تفاصيل عيشي، وولدي، لعادل... وأفيق حين يدخل وليد، وكان وليد شخصًا طيبًا، لذلك عندما يظهر في الصورة، وأراه أمامي، يذهب عادل. لكن عندما يغادر وليد المكان الذي أكون فيه معه، يعود عادل، أستعيده لأسرق حياتي التي سُرقت مني... وأفكّر هل إن سرقة ما سُرق منا حلال أو خيانة، لا أعرف!!!

بعد كثير من الكلام، والعتاب، والدموع... قالت: لقد حان وقت الصلاة، هيا نامي قليلًا وسنكمل الحديث لاحقًا...

بالفعل أنا متعبة ويجب أن أنام، وهي تحتاج الصلاة. حاولت النوم. إنها الرابعة في باريس، الخامسة في حلب.

أتمدد على الأريكة، أطفئ هاتفي. أطفئ الضوء، أسحب الغطاء فوقي، أحاول الذهاب صوب الاهتزاز السابق للإغفاء، رأسي مثل الطبل، أرتّب الحكاية من جديد، بعد أن أجمع قصة خالتي التي سمعتها في التسجيلات، مع قصة أمي التي سمعتها للتو.

تتداخل الأزمنة... وتمتزج الحكايتان، حكاية الحب بين أمينة ووليد، وحكاية الحب بين هدهد وعادل.

أحاول إعادة صوغ الحكاية كأنني أكتبها.

كأن هذا ما ينقصني!

أصلًا أنا لا أعرف أين أعيش، ولست متأكدة من أي شيء في حياتي! أحاول التأكد في كل يوم من أنني في باريس، وأن أمي تعيش في حلب، وأن خالتي التي ماتت، وليست أمي، إذ أظن أن أمي ماتت وأبي وحده في حلب... أضيّع الحوادث.

الآن عليّ قلب كل شيء، والعودة إلى البدء، لأتعرّف إلى واحدة جديدة هي ساره أخرى، أمها أمينة لا هدهد...

لا، لا أريد أن أكون في هذه الحكاية.

أريد أن أنام، وأصحو في الصباح لأجد نفسي في حلب، مع هدهد، نشرب القهوة ونضحك، وتسخر مني: أيّ حرب وأي قصف وأيّ باريس؟

الفصل الرابع:

ما لا تعرفه ساره عن وليد وعن عادل

لو أن ساره اتّصلت بعمتها نزهة، وتحدّثت إليها، كما كانت تفعل، حين تحتاج إلى نُصحها، لعرفت الكثير عن وليد. إلا أن استغراق ساره في حزنها، جعلها تختار من دون وعي منها، التشبث بحالة الضياع، وعدم الرغبة في معرفة تفاصيل حياة الآخرين، وعلى الأخص، حياة وليد وهدهد، وكأنها تنتقم من تكتّمهما، ومن قبولهما إخفاء الحقيقة عنها، ومن تواطؤهما.

لو أن ساره حكت لعمتها، لحدّثتها نزهة عن القصص الثقيلة التي ترزح على صدرها. حين حصلت على ذلك الدفتر، الذي كان وليد يدوّن فيه يومياته عن أمينة. أمينة الأولى، الحقيقية، لا أمينة التي حملت هدهد اسمها.

كان وليد يحتضر، ولم يكن متأكدًا من نجاته أو موته. وكان ذلك الدفتر غاليًا على قلبه، إلى الحد الذي خاف من إتلافه، فيقتل حكاياته من دون سبب كافٍ لذلك.

كان وليد يدوّن في ذلك الدفتر السرّي، ثم يضعه في درج خزانة السرير، قرب رأسه، ويقفل عليه، ويحتفظ بالمفتاح بين مفاتيحه التي لا يمكن لأحد الحصول عليها. وكلما سألته زوجته، عن ذلك الدفتر، يجيبها: «أسراري

المالية... ديوني على الآخرين، وديون الآخرين عليّ... حين أموت، لا تموت حقوقكم ولا حقوق الآخرين».

وكان دائمًا يتكدّر حين يتصوّر بعد وفاته، أن زوجته لن تجد ذلك الدفتر، ولن تعرف، كما تظن، حقوق عائلتها لدى المدينين أو حقوق الدائنين عليها وعلى عائلتها.

كل شيء كان مكتوبًا في ذلك الدفتر، الذي طلب وليد من أخته أن تحتفظ به، بينما كان يحتضر، عاجزًا عن التدوين: «خذيه معكِ، أخفيه. حتى أنت لا أسمح لكِ بفتحه. إن متُّ أتلفيه، وإن شُفيتُ تعيدينه إليّ».

لم تعرف هدهد أن نزهة أخذت الدفتر من وليد. هرّبته كأنها تهرّب كنزًا غاليًا وهي تحتضنه وتربط عليه زنّارها، تحت ملابسها، قاطعة به الحدود، مخفية إياه حتى عن زوجها وابنها وكل البشر حولها.

حين مات وليد، لم تجرؤ نزهة على إتلاف الدفتر. لكنها خانت وصية أخيها، وراحت تقرأ فيه. ولو أنّ ساره اتصلت بعمتها، لأزاحت عنها ذلك الثقل الذي يرزح على قلبها، وذلك التردد الطويل: أحكي لساره؟ لا أحكي لساره؟ ولو أنّ نزهة عرفت أن ساره الآن تعرف الحقيقة من خالتها، لأرسلت الدفتر إلى ابنة أخيها، لتكتمل الحكاية، التي عرفت ساره جزءًا منها عبر خالتها. تقول نزهة في نفسها: من حقّ ساره أن تتعرف على مشاعر أبيها، ومن حقّ أخي أن تعرف ابنته حجم معاناته.

لكن ساره لم تتصل بعمتها، ولم تعرف نزهة أن ساره تملك نصف الحكاية. وربما هي بدورها، نزهة، تملك النصف أيضًا، عبر ما قرأته في مذكرات وليد.

إذا أُتيح لأحد ما، وهذا لن يحدث على الأغلب، أن يجمع بين

تسجيلات أمينة، ومذكرات وليد، ستتخذ الحكاية شكلًا آخر، شكلًا أكثر عدالة، وأكثر وضوحًا، وأكثر اتساعًا.

في مذكرات وليد الصادمة لنزهة، يبدو الألم والانكسار، فقد كان وليد يجلد نفسه، يحبس نفسه لساعات في غرفة النوم، في فترة القيلولة، إذ يعود من العمل، يتناول طعام الغداء، ويدخل غرفة التعذيب، التي تتحول في الليل، إلى غرفة الزوجية.

لا أحد يدخل على وليد في الظهيرة، ولا أحد يقطع قيلولته المُدّعاة، حيث يدوّن تلك المذكرات.

بعض المقاطع المأخوذة من دفتر وليد:

أكتب لك يا أمينة. في كل يوم، منتظرًا أن تقرأي ذات يوم هذه الكلمات.

أعرف أنني شخص قميء. لكن الأمر ليس بيدي. أحببتك أنت، وحصل هذا لمرة واحدة في حياتي. ولن يتكرر هذا الحب أبدًا.

أصلّي حتى لا أفكّر بك... أسهر مع الأصحاب أحيانًا، أشرب، أحاول نسيانك... فأعجز.

منذ رحيلك وأنا أبحث عنك. رأيت برنامجًا على الآرتي بعد رحيلك بسنتين، كانوا يتحدّثون عنك. كان البرنامج باللغة الفرنسية التي لا أعرفها.

أعرف تفاصيل حياتك إلى حد كبير.

في السابع عشر من شباط سنة 1997 تزوجتِ من الموسيقار الإيطالي الأصل، أنطونيو بيلوني.

في الخامس والعشرين من شهر آب، في السنة ذاتها، انفصلتما.

في التاسع من أيلول، قلتِ للصحافة إن ذلك الزواج مجرد إشاعة. وإن الوسط الفني مليء بالإشاعات. وإن أنطونيو صديق عزيز، ليس أكثر.

لديّ أرشيف كامل عنك.

في هذا الأرشيف، حفظت كل أخبارك وصورك. أخبار عروضك المسرحية، وأصحابك، وسهراتك، وحواراتك...

نعم كنت أركض خلفكِ يا أمينة. أنا أحبك حتى الآن. أحبك في كل يوم، وأشعر بالازدراء نحو نفسي، إذ أحبك أنت الغائبة، البعيدة، المختفية، المُتخليّة، الرافضة لي وللحياة معي، لا تلك المرأة الطيبة التي تحمل اسمك، وتحتضن أولادي.

أشعر بالذنب صوب هدهد، ولكنني لا أشعر نحوها بالحب الذي أحمله لكِ. أشفق عليها، وأشفق على نفسي أحيانًا، لأني مولع بك. وأحاول أن أعاقب نفسي على هذا الولع.

حاولت الانتحار ذات يوم. وفشلت...

لم يعرف أحد هذا... ظنّوا أنه مجرد تلبّك معوي. غسل الطبيب أمعائي، وسكت عن سرّي. ولم يقل صديقي الدكتور غسان، إنها محاولة انتحار، وأن هدهد التي اتصلت به، أنقذت حياتي.

فكرتُ في السفر إليكِ. راودني ذلك الحلم طويلًا، لكنني قاومت. يمكن أن أصف لك قرار المقاومة بأنه شعور بالواجب. كانت مشاعري ممزّقة بين شوقي لك، وبين واجبي صوب عائلتي: أولادي الثلاثة.

كنت واثقًا أنك لا تفكرين بي، ولستِ نادمة. وإلا فجميع الأبواب مفتوحة أمامك للعودة، وخاصة، الباب الأكبر الذي يحقّ لك دومًا استخدامه: ابنتك ساره.

كيف أغامر وأسمع لهذا المراهق الذي يوسوس لي بالسفر إليك، فتعامليني مجددًا باستعلاء، وتذهبين إلى عالمك الواسع: معجبوك من الكثير من الرجال، والنساء. ماذا لو أنني غامرت وذهبت إليك، ثم لم

تقبلي حتى بلقائي؟ أنت قادرة على هذا، أراه باديًا في طريقتك الفوقية في الحوارات. أنت امرأة قوية ومشهورة الآن، فهل أفقد المتبقّي من كرامتي وكرامة أولادي وأحضر إليك؟

فكرت في أن الموت قد يخلّصني منك، من تعلّقي بك، من استحضار تفاصيل حبنا وزواجنا الذي انتهى سريعًا. يخلصني من رائحتك في السرير، رائحتك أثناء الحب، رائحتك بعد الحب، رائحتك في الحمام، أقسم لك أنني أتذكر رائحة شامبو (الهامول) للأطفال الذي كنت تستحمين به، وإنني أذوب في الحمام، كلما فتحت قارورة الشامبو ذاته، الذي كانت هدهد تستعمله للأطفال. وحين شممت رائحة الشامبو ذاته من ساره وأنا أحضنها، بكيت من الألم.

أنت معي في كل دقيقة، أنت معي في الراهن، ومعي عبر صور الماضي التي عشناها معًا، أتخيلك في الماضي، وأتخيلك معي الآن، وقد تغيّرتِ وأصبحت أكثر جمالًا، لا بد أنك تذهبين إلى الكثير من أماكن التجميل الفاخرة التي نسمع عنها، وترتادها النجمات... أنت أجمل مما كنتِ عليه حين كنا معًا، فكيف أحتمل كل هذا البُعاد.

لهذا أحبس نفسي في كل ظهيرة، لأكتب لك هذا الكلام المكرر، الذي يكاد يكون نفسه في كل يوم: حبيبتي أمينة... ماذا تفعلين الآن؟ متى تعودين إلى رشدك وترجعين إليَّ؟ هل من المعقول أنني لا أخطر في بالك؟ وساره؟ ألا تشتاقين لساره؟...

نعم إنه الكلام ذاته، أكتبه وأنا أبكي كطفل لا يصدّق أن أمه هجرته. أنا طفلك الذي لم ينضج يا أمينة. أبكي وأكتب لك في كل ظهيرة، متخيّلًا أنك ستأتين ذات يوم. تدخلين بصمت. أسمع صوت جرس الباب، ثم صوت طرقات على باب غرفتي هذه، وأفتح لأراك أمامي... تجتمع

العائلة مجددًا ونشرح للعالم بأسره تلك الحكاية. أتخيلك عائدة تصحّحين ذلك الهجران. تحتضنين ساره، ونبكي كثيرًا، وتبكي العائلة، كما في الأفلام والمسرحيات التي تمثلين فيها...

سأكتب لك دائمًا، أخبرك عما يحدث لنا في غيابك، عني وعن ساره. حتى حين تعودين، تعرفين عني كل شيء، كأنك هنا، كأنك لم تغادري ذات يوم.

ستأخذين هذا الدفتر، وتلمع عيناك بالفرح وأنت تقرئين التواريخ، كما لو أنت كنتِ معنا، ودوّنتِ ذلك بنفسك:

- تاريخ تسجيل ساره في المدرسة...

- تاريخ مساعدة ساره على كتابة واجب المدرسة المنزلي: اليوم بدأنا بحرف الألف، من دون همزة.

- اليوم الذي كتبت فيه ساره حرفين متّصلين، الباء والألف، با... أعلّمها وأكتب ممسكًا بيدها، يدانا على الخط المستقيم، نحاول ألا نحيد عن السطر، نكتب معًا: بابا... وتضحك ساره سعيدة بذلك الاكتشاف.

- نتائج الصف الأول...

ستعرفين الكثير عن حياتي الجنسية مع هدهد، ستقرئين مثلًا:

- حين آخذ هدهد في أحضاني في السرير، أتخيلها أنت... ثم أبصق على نفسي في الحمام، لأنني أخونكما معًا، أخونها حين أتخيلك مكانها، وأخونك وأنا أنام معها.

وأنت يا ساره... أنت أيضًا لا تعرفين الكثير عني. ربما تلتقين ذات يوم بأمينة، وتعرفين منها الحكاية كاملة. يرتجف قلبي من الفرح والخوف معًا. هل يمكن أن يحدث هذا؟ أن تلتقيا معًا، وتقرآ ما كتبت لأمينة.

نعم يا سارتي... بدأت بالكتابة لأمك. لأشركها بحياتنا التي غابت

عنها. كان ثمة يقين لديّ، بأن أمينة ستعود... وكنت أتهيأ لهذه اللحظة، عبر الكتابة.

اليوم خطرت في بالي فكرة أخرى. بعد عشرين عامًا تقريبًا من رحيل أمينة، فكرت في الكتابة لك أيضًا.

كما أحببتُ أمينة الغائبة، أحببتك أنت. أحببتك حبّين، حب الأب لابنته، وحبّي لابنة أمينة. أحببتك الحب الذي أحببت به سوسن وسمير، وأحببتك لأنك من رائحة أمينة.

أخاف وأنا أعترف لك بهذا... أخاف أن تكرهيني. لا تعتقدي أنني لم أحبك لأجلك، بل لأنك منها، بل خذي الأمر على أنه حب مختلف: أنت الجزء الغالي الذي تركته حبيبتي معي. تركته لديّ.

كنت أموت من الخوف، ذلك الخوف المؤلم اللذيذ، وأنا أراك تكبرين، وتشبهينها.

ابتسامتك تشبه ابتسامة أمينة، ملامحك، بل حتى صوتك.

اغفري لي يا ساره، هل تغفرين لي: حين كنت أعانقك أحيانًا، تذكرين هذا؟ كنت تتضايقين وتُبعدينني عنك: «أف، خنقتني، كنت تقولين».

أجل، لأنني أمسك بقطعة من أمينة. كنت تعويضي عن الخسارة المطلقة. كم عليّ أن أشكر الحياة لأنها منحتني إياكِ. وكم أنا ممتن لأمينة لأنها تركتك معي.

كنتِ تلك النبتة الصغيرة، التي يزهر قلبي أمامها، ويمتلئ حبورًا، بانتظار الشجرة التي ستكون أمينة الأخرى.

لم أحُك، لم أحذفك، لأضعها محلك... لا أعرف كيف أصف هذا، لست بديلة عنها من دون شك... لكنك هي بشكل ما... هي الصغيرة، أنت أمينة الصغيرة.

انظري إلى هذا الدفتر يا صبيّة، دوّنت فيه أهم الحوادث التي وقعت لك: تواريخ لقاحاتك - تواريخ زياراتك الطبية للعيادات والمشافي - وغابت بعض التفاصيل عني لأنني رجل.

كنت أشعر بتقلباتك... وأخمّن أحيانًا أنك في طورك العصبي، وأرغب في معانقتك والقول لكِ: «صغيرتي أصبحت صبية ويؤلمها بطنها!». كنت أرى الأقراص المهدّئة للألم التي تتعاطينها، وكففت عن سؤالك، لأنك تغضبين ويحمّر وجهك: «بطني عم توجعني، خلص، أف!».

كنت مزهوًّا بك، كزهو البستاني الذي يرى شجرة التفاح تطرح ثمارها. تفاح؟ هذا ما خطر في بالي.

كنت أحيانًا أشتهي الذهاب معك للتسوّق، كما فعلت مع أمينة خلال فترة زواجنا القصيرة جدًا. ولكنني كنت رجلًا خائفًا، بل رجلًا مجروحًا.

لقد هجرتني أمك وذهبت مع رجل آخر. هذا يحطم ذكورتي. لذلك كنت فاترًا أحيانًا، مقلًّا في تعبيراتي.

هجرتني أمك وأنا أحبها، وأغفر لها ذلك الهجران في كل يوم، بل أراها هي الخاسرة حين أراك أمامي في كل يوم، وأتخيل حجم خسارتها لهذا الجمال. جمال التفّاحة تتورّد يومًا بعد يوم!

أنت بحضور حياتي. الشمس والبهجة والضوء... هل أهذي؟

إذا كانت لي أمنية في الحياة، قد تعادل أمنيتي بلقاء أمينة، فهي أن تقرأ إحداكما هذه التدوينات، أو الأجمل أن تقرآها معًا:

أن تعرفا في أي يوم نطقت ساره. تعرفان ماذا قالت؟ لا، لم تقل ماما أو بابا كما يتوقع الأهل. قالت: حليب. لم تلفظها هكذا طبعًا، لفظتها: آبيب.

متى كانت أول مرّة تقصّين فيها شعرك... أخذتك يومها مع سمير، أنتِ أصرّيتِ على الذهاب معنا إلى حلّاقنا. تصصت شعرك كالصبيان، وكنت فرحة بهذا. وكادت هدهد تجن من الغضب.

هنا، ثمة الكثير من التفاصيل: حمل هدهد بسوسن. حين مشت ساره. فطام ساره. فطام سوسن... متى وضعت سارة حمالة صدر لأوّل مرة... كيف أصابت الغيرة سوسن! كل شيء عن الأولاد، العمل، الحب خاصة... الحب في كل يوم. الحب الذي أكتبه لكما، ولا أستطيع البوح به لإحداكما، الأولى غائبة، والثانية ستتعجّب لماذا هي بالذات من دون أختها وأخيها! إلاّ أنني أحلم أن تقرأا هذا الدفتر ذات يوم.

حبيبتاي ساره وأمينة، أو أمينة وساره:

منذ اليوم، سأكتب لكما معًا، إذ حقّق الله أمنيتي، أنكما التقيتما. أنت في الطريق الآن إلى فرنسا يا ابنتي. وأنا واثق أن أمينة ستخبرك الحقيقة.

حين أموت، ستأخذان هذا الدفتر من نزهة... ستكون نزهة قد قرأت قبلكما... ولن أكون خجلًا آنذاك... حين أموت، سأكون أكثر تحررًا من الخجل: خجل حب الرجل المهجور.

راديو زمن الحب الأول

كما لن تعرف ساره عن قصة الحقيبة، بسبب القذيفة، ولن تعرف ما كتبه وليد في دفاتره، فإنها لن تعرف في المقابل عن سيرة الحب الذي وُلد من جديد، كأن الزمن يطوي صفحاته الثلاثين، ويعود لما قبل رحيل أمينة وولادة ساره.

كانت ساره في باريس، وقدمات وليد، ورحل كل من سوسن وسمير. وظلّت هدهد وحيدة، تتحمّل رعب الحرب التي لم يعد أحد يعرف مآلها في سوريا، وفي حلب خاصة، حيث تعيش هدهد.

فكرت هدهد في العودة إلى بيت أهلها المُغلق منذ سنوات بعيدة في دمشق، ولكنها لم تستطع التخلي عن بيت حلب، حيث أنجبت سوسن وسمير، وصنعت تاريخًا جديدًا هنا.

حين سقطت مئذنة الجامع الأموي في الرابع والعشرين من شهر نيسان 2013، لم تستطع هدهد التحكّم في انفعالاتها، ورغم التحذيرات من التعرض للقنص أو لإطلاق النار، حيث تحوّلت المنطقة إلى خط جبهة عسكرية يتبادل فيها جيش النظام والجيش الحر القتال، فإن هدهد ذهبت في صباح اليوم التالي، يوم الخميس على غير عادتها، للاطمئنان على أم سعدو التي تسكن بالقرب من الجامع.

بعد موت وليد في السنة التالية، ذهبت هدهد إلى بيت أم سعدو، التي لم تنقطع عن زيارتها رغم الخطر، حيث كانت تذهب عبر الحارات القديمة الضيقة، وعبر الأسواق، من جهة باب قنسرين خاصة، لأن طرف طريق القلعة كان مرصودًا بقناص يستحيل أحيانًا تحاشي طلقاته. وكادت ذات مرة تُصاب بشظية وقعت على بعد خطوات منها، وقد قررت في تلك المرة، إحضار الحقيبة إلى البيت. أغلب الجيران غادروا المدينة، وصار الخروج من البيت مغامرة حقيقية.

اتصلت أم سعدو بحفيدها، أو بشكل أدق، بحفيد ابنتها. حيث أنجبت نجلاء، ابنة بوران، صبيًا وحيدًا، حصل على امتيازات لم تتحقق لصبية غيره، إذ كانت نجلاء الشقراء، التي تكاد تكون نسخة عن أمها، ولكن بصيغة شقراء، قد تزوجت من ابن عمها المحامي نجاد بدور وأنجبت ذلك الطفل الساحر الذي كانت تتقاذفه النساء بينهن، فهو الصبي الذكر الوحيد في عائلة معظم نسائها ينجبن البنات.

كانت ساره قد صارت في الثامنة من عمرها تقريبًا، حين وضعت نجلاء بكرها طارق. ولم تتوقف هدهد عن شراء السكاكر والشوكولا من أجل الصغير طارق، كما كانت تفعل باقي النساء القاصدات لأم سعدو، لكسب ودّ (شقّور) كما ساد لقبه بين النساء.

ساعد طارق هدهد في حمل الحقيبة وإيصالها بسيارته حتى بيتها، إذ لا يخفى على أحد صعوبة التنقّل بين قسمي حلب الشرقية والغربية، وكان طارق خبيرًا بالطرقات، والتسلل هربًا من الحواجز والقنّاصين، وعليه وحده كان يمكن لأم سعدو الاعتماد لتوصيل هدهد والحقيبة بأمان وسلام، بإذن الله، كما قالت أم سعدو.

شاخت أم سعدو، وهي تقترب من الثمانين، وتجمّع حولها عدد كبير من الأحفاد، تحفظ اسم وتفاصيل وميزات كل واحد منهم... وكان طارق دومًا يحتلّ الصدارة في عالمها الداخلي، وتسرّ له: لولا شقارك الذي ورثته عن آل بدّور، لجزمتُ أنك نسخة عن جدّك. فقد أخذ طارق الكثير من الصفات، كما تقول فريال، عن زوجها، تلك التركيبة الحالمة بفعل الخير من دون انتظار أي مقابل، والمخاطرة من أجل الآخرين... كان طارق بشكل من الأشكال، الخزّان العاطفي الذي تضع فريال فيه كل مشاعرها، وكانت تتكتّم على هذا، حتى لا تثير حنق أحفادها الآخرين، فتحوّله إلى (يوسف) جديد، يرمونه في جب الكراهية. وكان طارق يعرف ذلك الحب الاستثنائي الذي تُغدقه عليه جدته. حيث عرف في بيت هذه الجدة، الكثير من الحب والدلال، لا منها فقط، بل من صديقاتها وقاصداتها عبر كل تلك السنوات. وكان طارق قد نما وترعرع في ذلك البيت، ولم يفسده الحب والدلال، بل ألقى في نفسه الشعور بضرورة ردّ الحب، إلى ذلك العالم الذي أحاطه بالرعاية والأمان العاطفي.

حين وصل طارق إلى مدخل الشقّة، أصرّت عليه هدهد أن يدخل، لكنه انسحب ما إن وضع الحقيبة في الصالة، وبينما هو يستدير مغادرًا، لمح صورة ساره على الجدار، وميّزها بين أربع صور، واحدة في الأعلى، للأب، وثلاث صور في الأسفل، لصبيتين، وشاب، فقال متسائلًا: أولادك؟

ـ نعم، ساره، في فرنسا الآن، وسوسن في تركيا، وسمير في هولندا.
أجابته هدهد وهي تشير إلى الصور بالتسلسل، وأضافت:
ـ والمرحوم زوجي.

نزل طارق الدرج متذكّرًا ذلك اليوم حين أصيب بجرح في رأسه، وتمكّن من الفرار، وحين توقفت سيارة السيتروين الحمراء، وصعد مع عارف وباسم... وتذكّر القميص الأسود الذي أخذته مارسيل، ما إن رأته على طارق، حين غادروا جميعًا إلى بيت طوني، لتغيير ملابسهم، كي لا يدخلوا بيوتهم بالدماء، ويثيروا مخاوف الأهل، مستفيدين من سكن طوني وأخته وحدهما، قادمين من الحسكة ليدرسا في كلية الطب. إذًا استولت الجميلة مارسيل على سترة طارق، أو بالأحرى قميص ساره.

ساءت الأوضاع بشدّة في السنة الأخيرة: انقطاع دائم للمياه والكهرباء، وشحّ في المواد الغذائية، وغلاء هائل في الأسعار وهبوط متواصل في سعر الليرة السورية...

كأنها تعود إلى سنوات بعيدة، تتدفأ على الحطب الذي تشتريه بأسعار مرتفعة وتضعه في مدفأة المازوت، في بيوت غير مهيأة لاستعمال الحطب، وتطهو على موقد الكاز القديم (البابور)، وتستعمل راديو البطارية القديم.

كان القصف عنيفًا في تلك الليلة، قصفٌ لم تتعرض له حلب بهذه القوة منذ بدء الاشتباكات. كانت أصوات القذائف تملأ البيوت، والكهرباء مقطوعة، وهدهد وحيدة، تنوس بين الخوف والحنين لكل من غادروا، حين فتحت الراديو وسمعت (صافيني مرة) فذهبت إلى عالم مختلف، وراحت تدندن مع عبدالحليم: لما تكون ناوي تجافيني، تولّلي وإن كان، وإن كان عليك اللوم... ونامت محتضنة الراديو وكأن القصف حولها يحدث في بلد آخر.

عبر ليالي القصف المتتالية في الآونة الأخيرة على حلب، واشتداد المعارك بعد مشاركة الطيران الروسي، تحوّلت الحياة إلى عروض حربية يومية. كانت هدهد وحدها وتكاد لا تخرج من البيت والكهرباء مقطوعة... ولم يبقَ لها سوى أن تعيش مع ذكرياتها التي تأخذها إلى الزمن الفائت.

استعادت هدهد تفاصيل لم تخطر في بالها: لون الحذاء الخمري الذي كانت تنتعله حين التقت بعادل في المكتبة أول مرة، الأغنية التي سمعتها في راديو سيارة والدها في مساء ذلك اليوم، وهي عائدة معه إلى البيت: «ضي القناديل»... كانت الساعة تشير إلى ما بعد الثامنة، وقد ملأت أضواء الشوارع والموسيقى معًا قلب هدهد النابض بمشاعر جديدة، فكأن الأغنية مخصصة لتلك اللحظة، حيث: ضي القناديل والشارع الطويل... تذكرت لهفتها وهي تعود إلى المكتبة في الأسبوع التالي، بعد أن وعدها والدها، أن يصطحبها مرة في الأسبوع، لشراء بعض الكتب، ثم تتّجه وحدها صوب مكتبه القريب، وتنتظره حتى نهاية الدوام.

تذكرت بهاء، المحامي المتمرّن، الذي لم يخطر في بالها يومًا خلال تلك السنوات. كان لطيفًا وأنيقًا، وكادت تنجذب نحوه، لولا انشغالها المفاجئ بعادل، الذي ملأ أحلامها وتحولت معاني كلمات الأغاني التي كانت تسمعها لتتطابق مع تصورتها عنه.

«أمانة يا ليل»، التي سمعتها بعد ثاني لقاء بعادل. ظنت آنذاك أن الصدفة جمعتهما من جديد. لم يخبرها عادل، أنه كان يمر في كل يوم، بعد انتهاء دوامه في الجامعة، على أمل اللقاء بها.

كأنه كان على موعد معها، حين وصلت مرتدية ثوبها البني الطويل، بكمّين منفوخين، مطرّزين بفراشات صفراء وزرقاء... كاد قلبه يهوي وهو يتأملها داخلة المكتبة، تنقّب عن شيء ما، بل عن أحد ما، وأحسّ بأنه الشخص الذي تبحث عنه هدهد.

كان قد أحضر معه رواية دوستويفسكي (الجريمة والعقاب) ليقدمها هدية لها، إذ قالت له في اللقاء السابق إنها لم تسمع عن دوستويفسكي قبل اليوم، وكانت تجد صعوبة في لفظ اسم الكاتب، فتلفظه: ديستوفيسكي... وحين لمحته، تضرّج وجهها باللون الأحمر الفاضح، ولمّا ناولها الكتاب، استغربت: كيف تعرف أنني سأمر؟ فادّعى، والارتباك يسيطر عليه، أنه حمل الكتاب بالصدفة في ذلك اليوم، إذ كان قد أعاره لصديق، وقد أعاده له اليوم، وهو يقترح على هدهد قراءته.

تذكّرت لون قميص عادل البني. وكادت تقول له إن ذلك اللون يناسب بشرته السمراء، ولكنها سكتت مخفية الكثير من الكلمات التي رغبت بقولها له في غيابه.

تذكّرت البائع في المكتبة، بل تذكّرت الحج أبو حميد، حارس البناية في مكتب والدها، تذكّرت حين تعثرت على الدرج وهي عائدة من المكتبة، وهرع أبو حميد لنجدتها، إذ رآها تصعد الدرج، وفجأة تتعثّر فتكاد تسقط...

تذكّرت تفاصيل كانت تظن أنها انتهت، لتحيا مجددًا، وكما يسجّل أحدنا تسجيلًا على تسجيل سابق، فيمحو النسخة القديمة، أحسّت بأن الماضي يعود ويحتل الحياة الآن، وكأن الراهن يغيب خلف التسجيل الجديد لتفاصيل الزمن الفائت. ليست تلك مراهقة الخمسين كما يصفها العوام برأي هدهد، بل إعادة عيش الزمن، وتذوّق ما لم نعطِه حقّه في ذلك الوقت.

تقول هدهد إننا في سن الصبا، نريد أن نسرع لنكبر، وحين نقترب من سن الخمسين، نحلم بالرجوع إلى سن الصبا الذي أسرعنا لتخطّيه.

الخمسون هي خلاصة العيش وزبدة الحكمة. وهي في الآن نفسه مأخوذة بالعودة لعيش زمن الصبا. ها هي، رغم القصف حولها، وتهديد الموت في كل ساعة، وأصوات سيارات الإسعاف، والطيران الحربي،

تتنهّد مستمتعة بـ: سونة يا سونسون جيتلك أهو... بحلم بيك... كل دقّة بقلبي، بتسلم عليك... حيث كانت هدهد، تكتب تلك الرسائل، على موسيقى أغاني ذلك الزمن، الجميل.

عودة إلى الصبا

بعد وفاة أمي، أغلقت باب البيت نهائيًا ولم أعاود فتحه، فلأمينة حقّ في الميراث أيضًا. لكن دفعني الحنين، لاتخاذ قرار الذهاب إلى بيت ساروجة المُغلق منذ خمس وعشرين سنة تقريبًا. ورغم صعوبات التنقّل من حلب إلى دمشق، لم أتمكن من ضبط رغبتي الجارفة في زيارة بيت صباي، وتفقّد الفتاة التي كنتها هناك ذات يوم.

عشرون ساعة أو أكثر، استغرقت الرحلة من حلب إلى دمشق، حيث توجّه الباص إلى مدينة إدلب، ثم صوب مدينة السلمية ثم صوب حمص... بسبب الالتفافات الطويلة، والتوقّف أمام الحواجز العسكرية المتنوعة، وإغلاق الطرق النظامية القديمة... وصلت إلى دمشق، كأنني قادمة من بلد آخر، أو من قارّة أخرى...

رحت أتفقّد حياتي التي تركتها هنا. أثوابي التي لم تعد على مقاسي، كتبي، سريري، أغطية السرير، المخدّات، الستائر... كل شيء يحمل رائحة ذلك الزمن، بإخلاص هائل، كأن السنوات التسع والعشرين لم تحرّك شيئًا في هذا المكان.

أمضيت أكثر من شهرين في البيت. ذهبت إلى الأسواق والحمامات، مستعيدة عيون الطفلة ثم الصبية هدهد، وزرت مكتبة النوري، وصعدت إلى مكتب والدي، وكانت مفاجأتي كبيرة، إذ وجدت بهاء يعمل في المكتب ذاته.

كأنني هدهد ابنة العشرين سنة... بل وأقل من ذلك. قبلت دعوة بهاء على العشاء في أحد مطاعم باب توما، ورحنا نتحدّث عن تلك السنوات. بدأ الحديث من لحظة دخول بهاء إلى المكتب، ليجد أبي ميّتًا، ثم راح يحكي لي عن زواجه، وبناته الثلاث، وعمله، وذكرياته مع والدي. كنت أستمع إليه كأنني أعيش زمنًا آخر، أو أنني أمثّل في فيلم قديم، سبق وعشت حوادثه، في حياتي الحقيقية.

لو لم تسقط القذيفة في ذلك النهار، لكان هناك المزيد من القصص التي تجهلها ساره. وبالأخص الاتصال الذي أجرته أمينة بعد سنوات طويلة.

ما لا تعرفه ساره عن ذلك الاتصال

لأن القذيفة أسرعت بإنهاء حياة هدهد، بعد أن جلبت الحقيبة من بيت أم سعدو، وكذلك رسائل عادل من بيت أهلها، فإن ساره لن تعرف ذلك التاريخ، تاريخها الشخصي الذي سيندثر تحت الحطام. ولأن القذيفة أودت بحياة هدهد، بعد موت وليد، فهي أيضًا لن تعرف عن ذلك الاتّصال الذي جرى لمرة واحدة، بعد ثلاثين سنة من الغياب.

لن تعرف ساره، أنه لم يكن اتصالًا واحدًا، ولكنها مثل هدهد، التي لا تعرف أيضًا أن أختها قد اتصلت بوليد من قبل. ستعتقد هدهد أنها أول من تلقّى ذلك الاتصال، وأنها وحدها تحدّثت إلى أمينة في عصر ذلك اليوم، حين كانت وحيدة في البيت، ورنّ جرس الهاتف.

لكن أمينة كانت قد اتصلت بوليد من قبل، حين حصلت على رقم هاتف المعمل، بعد أن بحثت عنه كثيرًا عن طريق بعض معارفها بين باريس ودمشق، وكانت تظن طيلة تلك السنوات، أن وليد لا يزال مقيمًا في دمشق.

لكن وليد الذي اهتزّ كيانه من الصدمة عندما سمع الصوت الذي انتظره لثلاثين سنة، تلعثم في الكلام، ولم يستطع قول شيء مما كان يريد أن يقوله على مدى ثلاثين عامًا، أما أمينة فقد ذهبت إلى هدفها وقالت له: «أريد رؤية ساره قبل أن أموت، فهل تحقق لي هذه الأمنية؟».

صمت قليلًا مداريًا ارتباكه ثم أجاب: «يجب أن تطلبي هذا من هدهد، وحدها تملك حقّ الردّ على هذا السؤال».

هدهد؟ اندهشت أمينة... وعندما طلبت منه رقم أمينة، اختصر كثيرًا الكلام معها، إذ شعر بأنه يفقد القدرة على التنفّس، لكنها فهمت أنه تزوّج من هدهد... وأعطاها رقم المنزل.

عندما رنّ هاتف البيت، كانت هدهد غارقة في إعداد طبخة (اليبرق)، وكانت ساره في العمل، وسوسن في بيتها. وريثما غسلت هدهد يديها من آثار الأرز واللحمة الناعمة والثوم والبهار، ونهضت عن كرسي المطبخ، لتردّ على الهاتف في الصالون، كان الاتصال قد انقطع.

عاودت هدهد لفّ ورق (اليبرق)، وصفّفته في الطنجرة الكبيرة، ووضعته على نار هادئة كنار الشمعة، ليستوي ببطء حتى الساعة الثالثة، موعد اكتمال وصول الجميع: وليد وساره وسوسن ولوركا وهافال ونايا.

حين خرجت إلى الصالون بعد أن نظّفت طاولة المطبخ، وانتهت من غسيل الأطباق وتنظيف المجلى، رنّ الهاتف مجددًا وكانت إلى جواره، فالتقطت السماعة منذ أول رنّة، ليأتيها صوت أمينة، وترتجف هدهد كأن زلزالًا يأخذ البيت يمنة ويسرة:

ـ هدهد...

عرفت هدهد صوت أمينة، واحتبس صوتها في صدرها...

ـ هدهد... أتسمعينني؟ أنا أمينة.

ـ ....

ـ هدهد... أرجوك أجيبيني... أعرف أنك أخرجتني من حياتك نهائيًا، صدقيني هدهد لم أتوقّع أن تتزوجي من وليد بسببي.

ـ...

ـ هدهد... أرجوكِ أنا مريضة... السرطان ينهش جسدي بسرعة، وقد أموت في أية لحظة، أرجوكِ هدهد، أريد أمرًا واحدًا من الحياة قبل مغادرتها... هدهد، هل أنتِ هنا؟

استجمعت هدهد بعض الشجاعة لترد:

ـ نعم، أنا أسمعكِ.

ـ أرجوكِ يا هدهد... أريد رؤية ساره لمرة واحدة، أرجوك يا أختي، أريد أن أراها قبل أن أموت... لن تحرميني من هذا أليس كذلك؟ أنت أطيب من أن تفعلي ذلك... إن لم يكن من أجلي، فمن أجلها هي، أعرف أنك ضحّيتِ من أجلها... من يعرف، ربما تعرف ذات يوم أنني اتصلت أريد لقاءها وأنت تحرمينني وتحرمينها من هذا!...

ارتفعت حرارة هدهد، التي صارت تشتعل كلما غضبت، وقد انقطع طمثها منذ شهور قليلة، وامتلأت بغضب لا يتسع له الحديث على الهاتف. تصوّرت لو أن أمينة أمامها الآن لصرخت بها، لصفعتها ربما، أو لبكت قهرًا على كل تلك السنوات...

ـ سأخبر ساره وأترك لها القرار... ثم أضافت بعد لحظات: لكن ساره لا تعرف أنني لستُ أمها!

ـ حسنًا... سأحافظ على هذا... أشكرك هدهد، وأرجو أن تسامحيني!

ـ أسامحك على ماذا؟

سألت هدهد بلهجة ساخرة... لكن أمينة، على الطرف الثاني من الخط، صمتت طويلًا. ذلك الصمت الذي يبدو ثقيلًا حين يتواجه شخصان فلا

تُسعفهما اللغة، ويبدو أكثر ثقلًا وغرابة حين يكون هذان الشخصان على الهاتف، فيسكتان، ويخطر لكل منهما أن يقول للآخر: أنت هنا؟ أو أنتِ هنا؟ لكن أمينة وهدهد معًا، لم تجرؤ إحداهما على كسر الصمت، وبقي الخط مفتوحًا، صامتًا، إلا من سعال أمينة...

تسأل هدهد نفسها: أسامحكِ على ماذا؟ بعد ثلاثين عامًا من القطيعة، هل يمكن لمكالمة هاتفية أن تختصر الحياة التي ضاعت من هدهد، لتشرح لأختها ما فعلته بها.

أسامحك على ماذا؟ راحت تكرّر هدهد في نفسها، عاجزة عن نطق الكلمات، مُصغيةً إلى صوت سعال أختها الجاف عبر الهاتف.

ـ هدهد، أقسم لك أنني لم أتخيّل أنك ستتركين عادل وتتزوجين وليد. كنتِ تنفرين من وليد...

ظلت هدهد ساكتة، بينما أمينة تتحدث... عادت هدهد إلى ذلك اليوم حين قالت لأختها: لا أفهم كيف تزوجتِ من وليد؟ رائحة عرقه مزعجة، وشعر صدره مقرف! وردّت أمينة الله يخلّيلك أحمد زكي (وتقصد عادل)، أنا بيعجبني وليد بيشبه رشدي أباظة... وضحكتا معًا.

قالت أمينة بصوت منكسر:

ـ هدهد، أنا موجوعة الآن... لم أعد قادرة على الكلام، سامحيني. سأغلق الخط، وأتصل بك بعد أسبوع، هل هذا وقت كافٍ لتتّخذي قرارك؟

ـ القرار لساره... سأُعلمها.

ـ لكن ساره لا تعرفني، أليس كذلك...

ـ سأخبرها أن خالتها تريد رؤيتها...

لم تتمكّن أمينة من متابعة الكلام، كانت تتألم، فاكتفت بشكر أختها وأغلقت الخط...

بعد انتهاء المحادثة الهاتفية راحت هدهد تدور حول نفسها. ثم تدور في غرف البيت من غرفة لأخرى. تتأمل صور العائلة على الجدار الرئيسي مقابل مدخل البيت. كانت ترتجف كأنها أصيبت بمرض مفاجئ. ارتفعت حرارتها، وأحسّت ببعض الدوار. وقفت على الشرفة للحظات، ثم دخلت تكرر الحركات نفسها بقلق بالغ: تتفقّد النار تحت طنجرة اليبرق، تعيد مسح طاولة المطبخ، تخرج إلى الصالون، تمشي جيئة وذهابًا... ثم انفجرت بالبكاء.

كانت مشاعرها متضاربة بشدة. لقد شلّ صوت أمينة قدرتها على التفكير، لكنها، وكأنها عادت من سفر بعيد، راحت تسترجع كلمات أختها التي لم ترها أو تتحدّث إليها منذ ثلاثين عامًا. أحسّت بالعجز عن ضبط مشاعرها. كانت في حيرة شديدة. كيف يمكنها التعرّف على مشاعرها الآن؟ ثلاثون عامًا من المشاعر المتعارضة كلما خطرت لها أمينة. تارة تشعر بالحنق عليها لأنها دمّرت أحلامها، وتارة تشعر بأنها تؤدي رسالة عليها إتقانها وكأن هذا دينٌ عليها. كانت تشعر بالفخر، إذ ترى أختها تظهر على شاشات التلفزة الأجنبية، ثم تحسّ بالغيرة، لأن أمينة تعيش مترفة وحرّة، بينما هي خضعت للشروط الاجتماعية وأذعنت للتقاليد. وفي هذه اللحظة بالذات، وهي تدخل المطبخ للمرة العاشرة على الأقل لتتفقّد طنجرة اليبرق، التي تتركها عادة لساعات على نار هادئة تنضج على مهل، وهي تراقب ماء الطنجرة الذي بدأ يتبخّر وبدأت لفائف اليبرق تنتفخ دلالة على نضج الأرز في داخلها، تشعر بشعورين متداخلين، كأنهما سهمان موجّهان ضد بعضهما: تشعر بالأسى لأنها علمت أن أمينة مصابة بالسرطان، وأن أيامها في الحياة صارت معدودة، وتشعر بالتخفّف من القهر، وكأن حملًا سقط عن كاهلها، وكأن الحياة أصدرت حكمها العادل.

لكن سرعان ما انتابها شعور، جعل تنفّسها يتباطأ، وشعرت بالذنب صوب أختها، إذ اكتشفت كما لو أنها شمتت بمرض أمينة! كما لو أنها ضبطت نفسها متلبّسة بتلك المشاعر الوضيعة، فراحت تبكي وتضرب رأسها بيديها، وتقول بصوت مسموع: ليس ذنبي، ليس ذنبي... لم أتمنَّ لها الشرّ يومًا.

حين عاد وليد، كانت هدهد تتمدّد على السرير على غير عادتها، وراحت تشكو من ألم شديد في رأسها، ولم تخبره باتصال أمينة. أما هو فكان يعرف سبب مرضها، وتصرّف كأنه ليس على علم بأي شيء.

بعد يومين، تمكّنت هدهد من فتح الموضوع مع وليد، وقررا مفاتحة ساره برغبة أمينة بلقائها.

حين اتصلت أمينة بعد أسبوع، كان وليد في المنزل، ورفضت هدهد الرد على الهاتف، وهكذا كان وليد من أبلغ أمينة قرار ساره بالموافقة. وعلى الفور أبلغته أمينة أنها ستقوم باستخراج أوراق وثيقة الاستقبال[23] من البلدية، لتحصل ساره على تأشيرة السفر بموجبها.

(23) Attestation d'accueil



الفصل الخامس:

7 **نوفمبر** 2015

قبل الساعة السابعة صباحًا

أريد أن أنام، أريد أن أنام، رأسي مشتعل بأفكار تتجاذبني وحوادث لم أكن لأتصوّر حصولها... بلدي لم تعد بلدي، وأمي ليست أمي... أنا متعبة، أريد فقط أن أنام...

أشعر بالتأرجح. أريد أن أغفو. لكن الصور والكلمات التي تغزو رأسي تبعد النوم عنّي.

تختلط في رأسي صور لا أعرف من أين تأتي. صور غريبة، يختلط فيها العنف بالسخرية. أرى عيونًا تحدّق بي، وجوهًا مقطوعة، وأسمع كلمات غريبة وموسيقى صاخبة... كأنني أصنع فيلمًا غرائبيًا من دون معنى ومن دون أي تسلسل أو رابط بين أحداثه.

أتأرجح، أحسّ بالخدر، أشعر به بشدة... أحسّ بأن المكان يمشي بي، وأن الكنبة تدور.

أستسلم، وأعرف أنني صرت على العتبة. أستسلم للمرحلة

القادمة. سأغفو. لكن عقلي يرى كل شيء. أحلم لو أنهض لأكتب ما أتذكره للتو[24]...

يرن جرس الباب...

أهرع من السرير مذعورة، إنها دارلين، ولكن هل معقول أنني نمت كل هذا الوقت، وأنها الساعة الثامنة؟ كيف لم أستيقظ على جرس المنبه، دارلين تصرخ بي وهي تحتضن كانيل:

- Dépeche- toi Sara.

أنظر إليها باستغراب، لا أفهم ماذا تريد، أهز رأسي متسائلة.

- Tu n'as pas encore compris!! c'est la guerre... bouge toi.. vite vite!

تصرخ دارلين، وأنا لا أفهم: الحرب هنا، أتذكر أن الحرب في حلب، فهل أنا ودارلين في حلب؟

- Nous sommes à Alep?

- Mais non.. c'est ici.. la guerre est là, à Paris.

ولكن كيف؟ تشدني دارلين من يدي وتحتضن كانيل باليد الأخرى وتسرع نازلة الدرج.

أجدني أقف بملابس النوم. حافية، أحمل كانيل، لا أعرف لماذا تركتها دارلين معي، هل فعلت ذلك لتتأكد من الطريق أولًا؟ ركضت قبلي وطلبت مني أن أنتظر مع كانيل، أسمع أصوات الطيران القوي، يكاد يصم أذني... أرفع رأسي صوب السماء، عدد هائل من الطائرات وحمم من القذائف التي تهدم وتشعل نيرانًا ملتهبة. تسقط قذيفة فوق دارلين. أبكي مرتعبة، أحتضن كانيل بشدة وأركض هاربة.

الناس في الشارع يصرخون ويستغيثون بالفرنسية. أنا إذًا في باريس. الحرب وصلت إلى باريس.

---

(24) وصف مكرر.

عجوز تخرج من المقهى بثوب ممزّق والدم يغطي جسمها، حافية تتمتم مذهولة:

- On a pensé que la guerre est terminée il y a longtemps... mon Dieu... ce n'est pas encore fini.... Je voudrais vivre en paix!

أين أذهب، هربت من الحرب في حلب، وها هي الحرب الآن في باريس.

أسمع صوتًا يصرخ بي وكانيل لا تزال في حضني:

- ساره، تعالي من هنا.

أستدير، فأجد شابًا وسيمًا يقف خلفي، نظيفًا ومرتبًا، كأن الحرب لم تمسّه.

- تعالي معي.

يمد يده ويسحبني من يدي، يتكلّم بالعربية الفصحى.

- من أنت؟

- أنا يان... تعالي معي.

- أين نذهب؟

- إلى باريس.

- ألسنا في باريس؟

- لا، هذه ليست باريس... باريس في الشارع الآخر، تعالي معي.

- هل تعرف الطريق؟

- طبعًا، تعالي.. هيا.

أمشي مع يان تحت القصف والنيران المشتعلة حولنا، والأصوات التي ترعد في الأرض والسماء، حمم تسقط فوقنا... بيوت تتهدّم، غبار، جثث... ضجيج سيارات إسعاف... قطعنا الشارع، وانعطفنا إلى الشارع الخلفي، لأجد نفسي في شارع مضاء باللوحات الكهربائية،

أسماء محال بالفرنسية، لافتات إعلانية وصور بنات جميلات، ماكياجات وحمّالات أثداء وبارفانات تضاء صورها في اللوحات الملوَّنة الإلكترونية... زينة وأضواء وألوان... كأننا في الشانزليزيه.

ضحكت مبهورة غير مصدِّقة وأنا أمسك بيد يان وكانيل في حضني، وقد اختفت دارلين:

ـ لم أتخيل أن باريس قريبة هكذا!

ـ بلى... انظري... لا حرب هنا.

فرحت أن الحرب انتهت وكانيل معي...

رن رن رن

إنه جرس السابعة إلا ربعًا.

أفيق مذعورة.

لا حرب هنا.. كانت آخر جملة قالها يان.

أجلس للحظات مكررة لنفسي تلك الجملة. أتحدّث إلى نفسي، لأكرّس في نفسي تلك الحقيقة. أقول بصوت مسموع كأنني أتمتم تعويذة صباحية لمؤمن يبتدئ نهاره بالصلاة والتعاويذ:

ـ أنا في باريس...

لا حرب في باريس...

لست في حلب...

الحرب في حلب...

لا حرب هنا...

عادة أنهض من السرير في السابعة تقريبًا، أحضر قهوتي وأبدأ بالتدوين، ثم يتوالى نهاري. لكنني الآن مرهقة، أشعر بثقل في رأسي

وجسدي، كأنني عائدة من معركة. ليست لدي رغبة بالتحرك من السرير. أريد أن أنام.

لا أزال أفكر في كانيل التي لن أراها اليوم.

يوم السبت تقضي دارلين نهارها مع والدتها. أشعر بخوفٍ لا أفهمه على كانيل. هل أتصل بأمها لتأخذ حذرها وتنتبه. لكن كانيل ليست من أفراد عائلتي، ولا أعرف شعور الأمومة، إلا أنني أشعر بالقلق الغامض على الصغيرة. لدي شعور غامض يشبه شعور الأم التي أضاعت طفلها.

إحساس يشبه ربما شعور الأم التي تترك طفلها وحده، تخرج لإنجاز عمل سريع والعودة قبل أن يفيق أو قبل أن يكتشف غيابها. أو المرأة التي تركت الطعام على النار، خرجت سريعًا لدى الجيران أو لدكان قريب، وستعود للتو. أو أنها تركت الغسيل يدور في الغسالة، وستعود مع توقيت توقّف الماكينة... مثل كل هؤلاء، أشعر بأنني تركت أمرًا معلّقًا، أو نسيت أمرًا ما، أو فقدته، وعليّ أن أعود[29].

كأن كانيل ابنتي التي أُخذت مني، وعليّ استرجاعها.

ربما تلك الطفلة التي وضعتها دارلين في حضني هي ساره الصغيرة. ساره التي هجرتها أمينة وتركتها عبئًا على هدهد التي تحطمت حياتها بسبب ولادة تلك الطفلة.

أشعر بالذنب من ناحية هدهد، ومن ناحية عادل أيضًا.

سأحاول أن أنام مجددًا، ربما أتناول بعض الأقراص المنوِّمة التي كانت تستخدمها خالتي للتغلب على ألمها.

سأنام، ساعة، ساعتين، ثلاثًا... ربما حتى آخر النهار. ربما حتى

(29) وصف مكرر.

الغد، ربما أنام ولا أصحو أبدًا... أحسّ بأني متعبة وقد تبعثرت حياتي.
أن أكتشف أن ما عشته كان خداعًا... يعني أن كل حياتي كانت وهمًا.
سأنام، ولكنني سأبعث رسالة نصية إلى يان على هاتفه، لأعتذر عن موعدنا اليوم.
أفتح هاتفي، أرسل الرسالة إلى يان، ثم أضع الهاتف إلى جانبي، وأغرق في ألم رأسي.

ماذا لو أن كل هذا لم يحدث! وأن رولا ستمرّ بعد قليل وتُسمعني نغمة يسقط ديغول عبر زمور سيارتها... فأخرج ضاحكة ونتوجّه إلى الشهباء ثم إلى العمل، كما نفعل في كل صباح منذ السنة الأولى في الجامعة وحتى التخرج والعمل معًا.
ماذا لو أنني أفتح النافذة فأرى حلب؟ أرى جاراتي المتلصّصات من خلف النافذة... أرى سيارة أبي المركونة قرب مدخل العمارة.
لو أنني أغمض عينيّ فأراني أتجوّل في حارات حلب القديمة، بحسب نظرية خالتي عن حقيقة المكان التي تظهر حين نغمض أعيننا. لو أنني الآن في حلب، ولم تقع هذه الحرب، ولم تسقط قطرة دم واحدة.
لو أن العالم لا يحتاج إلى الحرب... لو أن هاتفي يرن الآن فيوقظني من أوهامي... لو أن جرس المنبّه يرن فأفيق... لو أن أمي، أمي التي عرفتها طيلة حياتي، أمي التي وحدها في حلب، تلمس ذراعي بلطف، أو تضع يدها على جبيني وتهمس: ساره، ساره، فيقي!
لو أنني أفيق الآن!
أو لو أنني أنام الآن... فأستيقظ في بيت حلب.

ربما عليّ التوقّف عن كل شيء. تأجيل الحياة. القطع مع العالم. فقط أمنح نفسي الوقت لإعادة ترتيب حياتي وفق هذا اليوم الذي قلب كل شيء. أحتاج إلى الكثير من العزلة لأبدأ سيرة حياتي من جديد، بدءًا من اسم أمي الذي عرفته منذ يوم واحد فقط، وانتهاء بمحل الإقامة الذي لست متأكدة منه بعد. من أنا وأين أنا وماذا أفعل هنا وما هو بلدي الحقيقي ومن هم أهلي؟ الكثير من الأسئلة العالقة، التي تضطرب في داخلي وتفقدني الوعي بنفسي وبالعالم... أغلقت هاتفي، وحاسوبي، وجهاز التلفزيون. لن أخرج لشراء الطعام، لدي المعكرونة والأرز والبرغل والقهوة والسكر... لديّ ما يكفيني لأقتات كما في الحروب. لن أحتاج إلى الخبز والشوكولا. بل لديّ ترف الماء والكهرباء..

أشعر بالتأرجح.

تختلط في رأسي صور لا أعرف من أين تأتي. صور غريبة، يختلط فيها العنف بالسخرية. أرى عيوناً تحدّق بي، وجوهًا مقطوعة، وأسمع كلمات غريبة وموسيقى صاخبة... كأنني أصنع فيلمًا غرائبيًا من دون معنى ومن دون أي تسلسل أو رابط بين حوادثه.

أتأرجح، أحسّ بالخدر، أشعر به بشدة.. أحسّ بأن المكان يمشي بي، وأن الكنبة تدور. أستسلم، وأعرف أنني صرت على العتبة. أستسلم للمرحلة القادمة. سأغفو. لكن عقلي يرى كل شيء. أحلم لو أنهض لأكتب ما أتذكره للتو...[26]

هل أنا نائمة؟

ما هذا؟ تقول أمي ضاحكة وهي تضع رأسي على ركبتها،

---

(26) وصف مكرر.

ونجلس أعلى التلة، وننظر معًا صوب السهل العميق، المُزهر، المليء بشلالات الماء: هذا وادي البنات.

أرفع نظري صوبها: ماذا يعني؟

في كل نيسان، يفيض الوادي بالبنات.

ترد عليّ أمي، أقلّب نظري بين الوادي وبين أمي، من دون أن أفهم شيئًا.

ـ انتظري... بعد قليل ستنبثق البنات وستفهمين.

راحت أمي تدندن لي وهي تعبث بشعري: ساره اللي جدايلها شقر، فيهن بيتمرجح عُمر..

سقطت خصلة من شعري فوق عيني، لأكتشف أن شعري أشقر. أتفاجأ... ثم أركّز صوب الوادي، بانتظار انبثاق البنات كما قالت أمي.

تعبث أمي بكلمات أغنية فيروز، لتطبقها عليّ، أنا ساره ولستُ يارا.

نساء كثيرات، جميلات، يظهرن من الطرف الآخر للوادي، ينزلن حاملات سلالًا صغيرة مليئة بالورد.

تتحدث إليَّ أمي من دون أن ننظر إلى بعض، عيوننا معلّقة هناك، تحت...

ـ الآن ترين كيف تخرج البنات... وكيف تجمع النساء بناتهن، كأنهن تقطفن الثمار الناضجة التي تُطلقها الأشجار... الآن، يُطلق الوادي البنات.

أستغرب أنني شقراء، فأسألها:

ـ لماذا شعري أشقر؟

ـ لأنك ورثت صفات والدك. شعره الأشقر وعيناه الخضراوان.
ـ شعر أبي بني وعيناه بنيتان.
ـ لا، أنت لم تريه بعد.
ـ كيف؟
ـ أتحدث عن عادل.
أكاد أرفع رأسي عن ركبتها وأنا متفاجئة:
ـ عادل أبي؟
تضغط على رأسي بلطف، حتى لا أفقد جمال المشهد الذي سيولد للتو.
ـ ألم أخبرك؟
ـ قلتِ إن أمي هي خالتي، ولكنك لم تقولي إن عادل أبي. هل تزوجت أمي أي خالتي من عادل.
تضحك أمي وتقول:
ـ انظري، بدأت الولادة.
بغتة... تتفتّق الأرض، وتظهر رؤوس صغيرة، سرعان ما تُدفع من باطن الوادي، وتنطلق أجساد البنات الصغيرات.
تجول السيدات بسلالهن المُغطاة بالورد، وتلتقط كل امرأة طفلة، تضعها في السلة، فوق الورد، وتنزع منديلًا أبيض شفافًا عن كتفيها، تغطي به الصغيرة التي اختارتها، ثم تعود من حيث نزلت للتو. تصعد بالسلة المليئة بالثمرة المنتظرة...
ـ ماما، ما هذا؟
ـ وادي البنات... لقد قطفتك من هنا.
ـ لكنني وُلدت في شهر نوفمبر؟

ـ لا، أخذتك من الوادي في شهر أبريل.
أرفع رأسي وأصرخ بها:
ـ كل هذا كذب؟ حتى تاريخ ميلادي... من أنا أرجوكِ أخبريني.
ـ أنت ساره الغالية... التي أحبّها أكثر من روحي.. والتي أحبها عادل منذ رآها.
ـ أنا لم أعد أريدكم. الحمد لله أنني في فرنسا. سأنساكم جميعًا. لم أعد أريد هذه العائلة. لا أنت ولا إخوتي ولا عادل، ولا حتى حلب.
ـ من قال لك إنك في فرنسا؟ ألم تشفي بعد من هذا الوسواس؟
ـ أنا لست في فرنسا؟
ـ أبدًا، ولم تذهبي يومًا إلى هناك.
ـ وأمينة؟
ـ أمينة ماتت... لكنها تلك التسجيلات اللعينة التي أرسلتها لك من باريس قبل موتها، جعلتك تتوهمين الكثير من الأمور.
ـ أمينة أمي، وأنا أحبها. وأكرهك. أنت تغارين منها. أنت امرأة فاشلة. أمينة ناجحة، وأنا فخورة بها.
أنهض وأركض نازلة صوب الوادي، تصرخ أمي:
ـ ساره، أين تذهبين؟
ـ سأجد ابنةً تحت... ستكون عائلتي، وسأسميها أمينة.
ـ ساره... انتهى الموسم هذه السنة. عليك الانتظار حتى نيسان القادم.
ـ اخرسي... أنت عمياء؟ انظري جيدًا... هناك طفلة تحت. وحدها، لم يرها أحد.
ـ ساره...

أمي تصرخ وأنا أركض نازلة وأسمع هاتي... أسقط وأتدحرج... أتدحرج طويلاً إلى أن أرتطم بجسد الصغيرة. أحملها بين يديّ، وبغتة يسقط الظلام. أحدهم قطع الكهرباء عن الكون. أحمل الصغيرة وأبكي، فأسمع صوتها:

ـ ماما لا تبكي، نحن بخير ما دمنا معًا.

(بقطفلك بس هالمرة...).

ـ أحب هذه الأغنية!

ـ هذا هاتفي يا ابنتي... أين هو؟

ـ هنا، في القماط..

أمدّ يدي تحت قماط الصغيرة، أبحث عن الهاتف، الموسيقى لا تتوقف: بقطفلك بس.. أين هاتفي يا أمينة؟

أشهق وأكاد أسقط حين أجدني على الأريكة، وهاتفي يرن...

إنه يان.

لم أردّ عليه.

مَنْ هذه الطفلة مجددًا؟ وما قصتي مع الطفلات اللواتي أحملهن في كوابيسي؟

أنهض، أحضّر القهوة.

الساعة الثانية عشرة ظهرًا

أشرب قهوتي بصمت يحيط بي. منذ سنوات بعيدة لم أصحُ هكذا، ولم أجلس هكذا أشرب قهوتي بصمت... لا أحد معي، من دون موسيقى، من دون كمبيوتري، من دون كتابة ولا تقليب صفحات الصحف في الإنترنت.. أجلس بصمت، لكن رأسي لا يهدأ.

لا أزال أشعر بألم في رأسي، وأحس كأنني خارجة من حفل صاخب، أو شجار عنيف، أو معركة، وأحتاج للتنفّس، أحتاج لأفهم ما حولي.

أخرج إلى الشرفة... الطقس بارد... لا حركة في الشارع... إنه السبت، يوم عطلتي الوحيد في الأسبوع. الناس تتأخر في الاستيقاظ في صباحات السبت والأحد. الشارع هادئ. كأنه صباح يوم جمعة في حلب. أرتدي ملابسي وأخرج لشراء الخبز.

أشتري الخبز أيام الجمعة والسبت والأحد. أما بقية الأيام فإن دارلين تجلب لي الخبز معها وهي عائدة من العمل. يومَا الجمعة والأحد أشتري الخبز وأنا عائدة من دروس اللغة مع ماغالي وماكسانس. يوم السبت فقط أخرج من البيت خصيصًا لشراء الخبز. لكنني في العادة، حتى حين كانت خالتي هنا، أخرج قبل الساعة الثامنة. أشتري الكرواسان والخبز.

هذا اليوم أخرج متأخرة... إنه منتصف النهار... ومع ذلك أشتري الكرواسان والخبز، وكعادتي الشبيهة بالفئران، أنقر الكرواسان في الطريق من المخبز، ثم أنهي ما تبقى من الكرواسانات الثلاثة وأنا في المصعد، وأصل إلى البيت متخمة.

أحضّر القهوة مرة أخرى... رأسي متعب ومليء بالضجيج.

الساعة تشير إلى الواحدة.. أصرّ على أنني لن أفتح الكمبيوتر ولن أطّلع على الأخبار، ولن أتصفح الفايسبوك والتويتر، ولن أفتح التلفزيون.

أشعر بما يشبه الترنّح... هل أنا مريضة؟

كأنني في حلم... أفيق وأنام... تداهمني حكاية عادل بقوة.

هو الوحيد الذي لا أعرف صورته من بين الذين يضجّ بهم رأسي. صورته تسيطر على مخيلتي، أتخيله نحيفًا أسمر... في الحلم تقول أمي إنه أشقر... وإنه أبي.

أفكّر به كثيرًا، كأنني كنت أعرفه، وفقدته، وأتذكره الآن. ترى هل كان أشقر كما ورد في الحلم؟ هل عيناه خضراوان؟ أتخيله طويل القامة، له صوت دافئ مثل صوت يان.

سأسأل أمي عن شكله، وملامحه، وصوته... وسأتصل به. أنا مدينة باعتذار طويل لهذا الرجل الماركيزي.

أمي تتصل بي على الفايبر:

- هل هدأتِ الآن؟
- وعادل؟ ماذا حلّ به؟
- هل يهمّك هذا؟
- نعم، لقد حملني في حضنه، وقبّلني، وتركَكِ معي... لقد حطمتُ حياته بمولدي.
- لا لا.. لا تقولي هذا.. هذا لم يكن ذنبك.
- هل تعرفين عنه أي شيء؟
- نعم.. إنه هنا.
- هنا أين؟ في سوريا؟
- أجل، بل في حلب.

يرقص قلبي، ورغم كل القلق أحسّ بموجة من الفرح، كأنني أستعيد حبيبًا ضائعًا.

- عن جد؟
- نعم.

ـ وكيف هو الآن؟ هل تغيّر؟ هل لا يزال يحبك؟ حدثيني عنه.
ـ اتصل بي منذ سنة. بعد وفاة والدك بيومين. اتصل بي من أميركا ليعزّيني وأخبرني أنه سيعود إلى سوريا. قلت له إنها فكرة حمقاء، الناس يهربون من الحرب. فقال: «أنا طبيب، ذهبت إلى بلاد عدّة أثناء الحروب، ولم أجرؤ على المجيء إلى سوريا، بسبب ألم روحي الذي لم أشفَ منه طيلة هذه السنوات. لكنك الآن وحيدة. يجب أن أكون قريبًا منك. أنت وسوريا كل ما أفكر فيه». هل تتذكرين شيماء يا ساره؟
ـ أخت جارتنا لمياء أم جميلة وماجد؟ طبعًا، كانت أول مرّة أنتف فيها حاجبيّ على يدها. كانت تأتي لزيارة أختها أم جميلة. وتزورنا، وكنا نحبها نحن البنات... كانت ماهرة في التجميل وتحضير عجينة السكر لإزالة الشعر... لكن ماذا بها؟
ـ زوج شيماء هو أخ زوج خزامى أخت عادل...
ـ أف... فهمت... كانت شيماء تنقل أخبارنا لخزامى؟
ـ تمامًا، وخزامى تخبر عادل... كان عادل يعرف كل شيء عنّا... كان يتابعنا من هناك، من أميركا، كأنه معنا.
عاد عادل بعد موت أبي، استأجر منزلًا في حلب، قريبًا منّي، حوّله إلى عيادة، ينام فيه في الليل، ويعمل في النهار. يتصل بي كل يوم. وأرفض أن نلتقي. أخاف من التغييرات التي طرأت عليّ، أخاف أن يراني كبيرة ومسنّة.
قلت: أنت صبية، امرأة خمسينية يعني في قمة النضج والاستقرار العاطفي... تزوّجيه يا ماما...
اعتقدت أمي أنني أقول ذلك لأتحرر من ذنبي الذي أحسّه

نحوهما. لكنني فعلًا أُعجبت بتصرّفه حين قرّر العودة في زمن الحرب ليكون قريبًا من المرأة التي أحبها، والتي أخلص لها وانتظرها ولم يتزوج طيلة تلك السنوات الثلاثين.

أشعر بأنني أمام قصة جديدة من قصص الحب الشهيرة، قصّة من طراز الحب في زمن الكوليرا. الرجل الذي أهدى حبيبته رواية «مائة عام من العزلة»، وكان مستعدًا لمائة عام من الهجرة والمنفى ليعود إليها ويعيش الحب في زمن الحرب والجثث والقذائف والبراميل..

مَنْ هو عادل هذا الذي دخل حياتي فجأة، وجعلني أشعر بالحب صوبه؟ كأنه أبي المُستعاد.

أحس كأنني أعيش في رواية «البحث عن الزمن الضائع» لبروست، وأمدّ يدي صوب فصل: الزمن المستعاد.

هل أنا ضائعة الآن؟ أم إنني كنت ضائعة ووجدت نفسي الآن؟

في هذه اللحظات، أشعر بأنني ضائعة، لم أعد أميّز بين الحلم والواقع. لم أعد أعرف من أنا.

الهاتف الأرضي يرنّ عند أمي، فتقول:

ـ عادل يتصل بي على الخط الأرضي.

ـ بلّغيه سلامي.

ـ سيكون سعيدًا بك... لن يصدق أنك الآن تعرفين كل شيء دفعة واحدة. سيتصل بك من دون شك... أعرفه.

تذهب أمي... أسمع رسالة يان على هاتفي:

ـ ساره، لا يزال هناك ثلاث ساعات على موعدنا، إذا شعرتِ بأنكِ أفضل، اتصلي بي. أنا لا أريد إضاعة الوقت... أنا بحاجة فعلًا إلى هذه الدروس.

هل انقلبت حياتي اليوم؟ هل انقلب العالم؟ هل سيسير نهاري كما كان مفترضًا له قبل البارحة، هل أتصل بيان لأثبّت موعدنا في الساعة الرابعة. هل سيأتي ويشهق وهو يتأمل الصور على الجدار: أمينة دو داماس! ثم سيضيف، كما أتوقع أن يحدث مع كل شخص يدخل هذا المكان. أن أسمع كلامًا من نوع: أنت أيضًا معجبة بأمينة؟ أنا من أشد المعجبين بها... امرأة رائعة. وأنا ماذا سأقول؟ هل أقول إنها خالتي، وهي وضعت الصور، لأنها كانت تسكن هنا... وأخبرهم أنها أمضت أيامها الأخيرة في هذا المسكن الصغير، بعد الشهرة والأضواء والشقق الفاخرة والسفر في الدرجة الأولى والسجادات الحمراء ومهرجانات السينما والمسرح والأضواء والاستعراض... أم أقول إنها أمي التي تركتني في عمر الشهرين؟

أنا مترنّحة ومتعبة... إنها الأرجوحة.

أتذكر شيماء... لا يمكن لشيماء أن تمرَّ هكذا بشكل عابر في حديثي مع أمي. شيماء الأنثى التي طرقت أبواب مخيلاتنا نحن البنات الثلاث: جميلة وسوسن وأنا.

كانت شيماء تعمل كقابلة قانونية، ولديها عيادة لتوليد النساء. وكان لدينا الكثير من الأسئلة والتوجّسات حول أجسادنا، سواء من ناحية أدائها الفيزيولوجي، أو من الناحية الجمالية.

كانت شيماء مصدر البوح الأكبر في حياتنا... كانت عرّابتنا غير الشرعية. كنا نتعلّم منها تفاصيل الاعتناء بنظافة الأماكن الحساسة... حين كانت سوسن تُعاني من حرقة أثناء التبوّل، وتخجل من الحديث أمام أمي، وترفض الذهاب إلى الطبيب... جلبت لها شيماء أقراصًا تذيبها في طست الماء، وتجلس فيه..

كنا نشعر بالفضول حين نرى أمي وعمتي وأم جميلة، يضحكن متهامسات مع شيماء... كانت شيماء بوابة العالم السري، الفاصل بين البنات العازبات، والسيدات المتزوجات. كانت حارسة ناجحة للبوابة، قادرة على إقامة صداقة مع الطرفين، من دون خيانة أسرار طرف لمصلحة الآخر.

كانت لنا أسرارنا معها، ولها أسرارها مع أمي وعمتي وأختها لمياء.

لا أعرف ماذا أفعل، ترن في أذني الكلمات. يرن الهاتف ولا أنظر مَنِ المتّصل. أجلس وأعصر رأسي بين كفّيّ. يستمر رنين الهاتف ألقي نظرة عليه، إنها هالا. أفكر أن أردّ عليها، لا بدّ أنّ هناك سببًا لإصرارها العنيد.

أتلقى رسالة، إنها منها: «ردّي عليّ ولا تتصرّفي بحقارة... أحتاج للحديث معكِ...». أتصل بها وأسمع صوتها الغاضب وترشقني بكلمات لا أفهم منها شيئًا..

تعرف أنني أمر بأزمة، وإلا ما اتصلت بها الساعة الثالثة صباحًا. والآن أعرف أنها في وضع سيئ، ولكن مهما يكن لا أظن حالي أفضل... أخيرًا أقرر أن أذهب إليها. أضحك وأقول لنفسي: اجتمع المنحوس على خايب الرجا.

لا أعرف ما الذي دعاني لارتداء المعطف الأنيق، معطف خالتي الفرو البيج. بدوتُ امرأةً بورجوازية بهذا المعطف... قررتُ تبديد العالم وتدمير كل ما حولي، ابتداءً من معطف المناسبات الاستثنائية، الذي سأبتذله في المترو، وأنا أرتديه فوق بنطالي الجينز وحذائي عالي الساقين.

أغادر البيت لألتحق بهالا في المقهى الذي تنتظرني فيه في بيلفيل. هالا الحمقاء، اختارت مقهى (الحمقى) الذي كانت تغني فيه إيديث بياف. أصل وأجدها تضع زجاجة نبيذ أمامها وقد تبقى منها القليل فقط.

ـ تسكرين في منتصف النهار؟

ردت عليّ بعدوانية:

ـ أراكِ تتصرفين كالفرنسيين!

ـ لا أبدًا... تعرفين أنا ليست لديّ بروتوكولات، لكنني استغربت فقط أن تشربي في هذا الوقت.

ـ ماذا تشربين؟ نبيذ؟

هززت رأسي، وأحضر النادل كأسًا لأُنهي المتبقي من الزجاجة. لكن هالا طلبت زجاجة ثانية.

كانت هالا حزينة، وحين تكون حزينة تنطلق بذاءتها اللغوية. تبدأ بسبّ كل ما حولها، وتستعمل كلمة (خراء) في كل جملة، ثم تصعّد لغتها، فتذهب إلى الشتائم الجنسية.

استفاضت هالا بالحديث. أكثر من ساعة وهي تحكي عن صدمتها بغنوة التي باعت الثورة من أجل علاقة غرامية مع شخص سلّم الكثير من الشبان للمخابرات. وحكت لها كيف أنها اكتشفت علاقتها تلك بالصدفة حين لمحت صورته على شاشة كومبيوترها مع رسالة: وينو القمر؟

عندما سألتها عنه ارتبكت، فصرخت بها:

ـ يا شرموطة... ما لقيتي حدا تشرمطي معه غير ابن الزانية..

جننت لّما قالتلي: «ثورتنا ماتت... كانت حلمًا جميلًا سرقه

الإسلاميون». الشراميط اللي مثلها ما كانوا عرفوا أوروبا لولا الثورة!
بقيت صامتة أستمع إلى حكاية سمعت أمثالها من قبل... لم أكن في مزاج مناقشة هذه المسائل... عندما لاحظت أن هالا أفرغت توترها تبسّمت لها فردّت ببسمة، وصبّت لنا كأسين مترعين..

حين أنهينا زجاجة النبيذ الثانية، تذكرت هالا أن تسألني:
ـ وأنت كيفك؟ ثم استدركت:
ـ كان هاتفي مغلقًا... سمعت رسالتك في المترو. غادرت بيت غنوة وانتظرت في الشارع، حتى سار أول مترو في الصباح. في المترو تذكّرت هاتفي وفتحته. ذهبت إلى المحطة لأحجز تذكرتي اليوم إلى بروكسل... هه، ثم رحت أدور في الشوارع إلى أن تعبت وجئت إلى هنا... ماذا عنكِ، لماذا اتصلتِ بي في تلك الساعة؟
ـ لا شيء... فقط كنت أشعر بالحاجة للحديث معك.
لم أحكِ لهالا عن تطورات حياتي، فأنا لم أستوعبها بعد... وهي لم تكن في وضع يمكّنها من سماعي أو الاهتمام بما سأقوله. ولم تلحّ في السؤال. لم تنتبه إلى عينيّ المتورّمتين ووجهي غائب الملامح العالق في الاستفسارات... بل كأنها استراحت من عبء سماعي، فراحت تتابع كلامها بتوتر وببعض الاستعراض اللغوي، وبطريقة أداء كأنها على خشبة مسرح. أحسست بأنها تحاضر بي، وأنها بحاجة إلى جمهور، فتركتها تفعل، وأنا أعيش الخراب الكامل... داخلي متهدم وكومة أنقاض ليست لدي القدرة على تجميعها في ركن واحد لأتنفّس مشهدًا جديدًا أو حالة تُخرجني من كومة الخراب:
ـ تعرفين يا ساره كم منحت الثورة أشخاصًا لا أهمية لهم في

الحياة. غنوة وأمثالها ـ أخذت جرعة من كأسها وأدارت النبيذ في فمها طويلًا ثم ابتلعته وكأنها تمنح نفسها الوقت للتفكير بما ستقوله ـ حتى أنا يا ساره، لولا الثورة، ما كنت هنا، ولا حلمت يومًا بالمجيء إلى أوروبا. الثورة رفعت أشخاصًا من القيامة النفسية والفكرية والاجتماعية، ووضعتهم في المقدمة. الثورة كانت طوفانًا ضخمًا قلب كل شيء، لكنه لم يكن طوفانًا عادلًا كما هي الطوفانات العشوائية المجنونة. طوفان الثورة ألقى بالبقايا السيئة صوب الخارج، وابتلع أفضل السوريين. الذين ماتوا من أجل الثورة، هم أنبل منّا جميعًا. أولئك ماتوا ونحن فزنا بحياة آمنة في الغرب. أما الباقون هناك، فهم ينتظرون هبّات الطوفان، التي إما تبتلعهم وتقذفهم صوب الموت، أو ترميهم على شاطئ النجاة: أوروبا الفاخرة.

ترينا هنا نحتسي النبيذ الراقي، ونمشي في الشانزليزيه وشوارع لندن ونيويورك وأمستردام وجنيف... أكثرنا لم يكن يحلم بالسفر خارج مدينته حتى. هناك أشخاص أعرفهم، لم يغادروا قراهم طيلة حياتهم، صاروا الآن في ألمانيا وسويسرا والسويد... هذه هي الثورة التي دافعنا عنها ومات من أجلها أجمل شبابنا واغتُصبت أحلى بناتنا... لنملأ بارات أوروبا بشملنا.

بدأ صوت هالا بالارتجاف، أحسست بأنها ستحكي عن أمها، فحين تتحدث هالا عن أمها، تتحول إلى كائن آخر. تصبح رقيقة جدًا وضعيفة بل وجميلة. أعني أنها تزداد جمالًا، يرتجف صوتها، وتتلعثم وتنطق الكلمات بشكل مختلف، كأنها تعود إلى طفولتها... قالت وهي شبه باكية: لقد توسّلت أمي أن تأتي لتعيش معي، تعرفين معنى أن يكون أهلك هناك، تحت وطأة الموت، تتوقعين خبر موتهم بسبب

الحرب في كل لحظة. وأنتِ... أمي ترفض ترك بلدها، هل تعرفين السبب؟ أظنني قلته لك ألف مرة، ومع ذلك أكرره. أمي متمسكة بجاراتها، وتعتقد بأن الجارات هنّ النعيم. لا تستطيع أمي العيش بعيدًا عن جاراتها، حيث يدرس أولاد الجيران في بيوت بعضهم، وتعتني بهم الأمهات كأن الجميع أبناء كل أمّ منهن. تفيق أمي لتجهّز القهوة وتدعو جاراتها، أو تفيق على جرس الباب ورائحة قهوة الجارات، لتنضم إليهن. لماذا أقول هذا؟ ما الذي دعاني لأحدثك عن أمي؟ هل أعني أصالتها وزيفنا؟ هل أعني أنهم النسخة الأصلية من السوريين الذين لم يتركوا بيوتهم رغم الحرب وذعر الموت، بينما نحن هنا خلف الأمان، لا بل لنكن أكثر صدقًا، أغلبنا لم يكن مهددًا، هنا خلف مزايا الحياة في الغرب.

تركتها تهذي حزينة، مصدومة، خائبة.. وقد ارتخيت قليلًا بتأثير النبيذ منتظرة الوقت الذي ستقرر فيه هالا النهوض للّحاق بقطارها. لا جدوى من تعليقي على كلامها، لا جدوى من القول إنني حين كنت أقول ما يشبه هذا الكلام، كنتم تهاجمونني أنت وأصدقاؤك... بل كنتم توجّهون لمن هم مثلي الشتائم.

نظرت إليّ هالا وكأنها قرأت للحظة ما يدور في رأسي..

لم أردّ على هالا... كنت فعلًا في حالة من الشلل النفسي وعدم الرغبة في قول أي شيء.

أحسستُ فجأة وهي تدفع النقود للنادل، كأنها تتحدّث إليّ في الحلم: أنسى ما عشته هناك، وأظنه كابوسًا بعيدًا... أعتقد بأنني سمعتها تقول هذا في أحد أحلامي! هل هي تحلم الآن؟

عادت إليّ تفاصيل تظاهرة التروكاديرو. تذكرت غضب تمّام

وملامته لهالا، محذّرًا إياها من غنوة. كدت أقول لهالا: أنتِ لم تري الكومبيوتر بالصدفة. أنا أعرفك. ما جدوى أن أضع أمام هالا حكاية فهمي لها، وأنها عنيدة، وراحت تطارد غنوة وتراقبها، لتتأكد من خيانتها؟! هي هالا، التي تحبّ النهايات الواضحة، ولا تمرّ من قرب الحوادث، من دون تدخّل.

بعد ساعتين غادرنا مقهى المجانين، حيث كانت إيديث بياف تغني هنا... رحنا نغنّي متأبطتَيْ الذراعين: «الحياة الوردية». كان يبدو أننا ثملتان... كنا نتمايل ونضحك... ندخّن ونترنّح.

توقفنا أمام محل لتصفيف الشعر ونحن في الطريق صوب المترو. رأيت بيروكة شقراء في الفيترينة... تذكرت أغنية أمي: ساره اللي جدايلها شقر.

- سأشتري البيروكة الشقراء. قلت لهالا.

دخلنا المحل. وضعت البيروكة، وتحوّلت إلى ساره الشقراء في لحظات.

- انتظري... خذي جرّبي هذا.

أخرجت هالا أحمر شفاه كانت تضع منه. جرّبته، فلم أعرف وجهي في مرآة مصفف الشعر.

خرجنا من الصالون وهالا تضحك وتقول:

- تشبهين بائعات الهوى.

- وماذا ينقصني لأبيع الهوى؟

- ينقصك التخلص من هذا الغشاء الحاجز..

ترد هالا ساخرة، ونضحك.

ـ حسنًا، الآن سأرتمي أمام أول عابر طريق وأطلب منه تمزيق هذا الحاجز...

ـ تمام، هذا هو الكلام..

تعانقني هالا سعيدة بدخولي حالة التهتك النفسي على الأقل، نضحك بجنون. نطفئ سيجارتينا ونهبط مترنّحات صوب المترو... أشعر بأن العالم كله ينظر إلينا... نضحك ونغنّي ويعلو صوت هالا بالشتائم البذيئة بالعربية.

في المترو، تشتم هالا النظام والمعارضة... ثم تنفجر بالبكاء، وتضع رأسها على كتفي. الركاب ينظرون إلينا من دون قلق، ثمة تعاطف في نظراتهم، على الأقل لم يحاول أحدهم الابتعاد عنّا خائفًا، فالمشهد لا يثير الخوف. عربيتان ثملتان، ترتديان ملابس أنيقة، وتضعان حمرة شفاه فاقعة كالعاهرات اللواتي يشتغلن في أماكن رخيصة، تضحكان وتبكيان، لتقلبا قليلًا الصورة النمطية عن العرب الذين يقرأون الأدعية في المترو، أو يهتفون «الله أكبر» ثم يقتلون ضحاياهم، كما تترسّخ الصور في أذهان الغرب يومًا تلو الآخر.

عربيتان تتحدثان ببذاءة، تحرّفان اللغة العربية المحشورة في أدمغة الآخرين على أنها لغة الحرب والإرهاب، لتترنّما بها، لغة أغانٍ لم يسمعها الغربي من قبل، لغة الثمالة، لغة الحزن، ولغة الفقدان...

لم تتوقّف هالا ونحن نغادر المترو متجهتين صوب مخرج القطارات من ترديد الشتائم، وبغتة صارت تعيد الجملة مُلحَّنة، تدندنها وتضحك بصوت يطغى على ضجيج المترو.

كنت ثملة، لكن وضع هالا كان أسوأ... وصلنا في آخر لحظة إلى

العربة الخامسة، صعدت بصعوبة وهي ثملة، تجرّ حقيبة ظهرها... مشى القطار، ونزعت بيروكتي لألوّح بها لهالا.

ثم وضعت البيروكة مجدداً، وقررت السير من محطة الشمال (غار دو نور) ، حتى باربيس. هي محطة واحدة، آخذ منها الخط رقم 2 الذي يذهب إلى كليشي.

كنت في وضع أسوأ بعد لقائي بهالا... أحسست بأن هذا النوع من الصداقة الذي ينشأ في المنافي لا يشبه الصداقة التي نبنيها في الوطن. هنا كل واحدٍ غارقٌ في همومه. هالا لم تشعر بي. كانت مهمومة بذاتها وألمها. مستغرقة في صدمتها. شعرت بأنني اسفنجة مسحت بها هالا آلامها وربما «خراءها»، وتركتني لتذهب إلى حياتها، وسوف تضحك بعد أن تفيق من سكرتها، وتنسى أنها لم تسألني عن سبب اتصالي بها في تلك الساعة!

شعرت برغبة في الشرب... دخلت محلاً في باربيس، اشتريت بعض علب البيرة، أربعًا أو خمسًا، لا أذكر... رميتها في حقيبة يدي الكبيرة... وأخذت المترو. رحت أشرب بيرتي، وخرجت امرأة أُخرى مني. رحت أغني في المترو: سكابا يا دموع العين، وأنا أبكي، والناس ينظرون إليّ بين الحذر والسخرية والتعاطف.

أحسّ بأنني اثنتان، واحدة تحاول السيطرة على الثانية، أرى انشطاري أمامي. أعيش السكيزوفرينيا. أراني مقطوعة إلى سارتين: ساره التي تريد أن تصنع فنّا تحلم به، وأخرى مقهورة تريد البكاء على أطلال العالم.

واحدة تريد الصعود إلى المسرح، تطلق ما قمعته في نفسها وتغني أمام الجمهور. وأخرى، تريد أن ترتمي بين أقدام الركاب، تتمسح بالأرض وتبكي وتمزّق ملابسها.

أراني ثلاث سارات، أقف بين ثلاثة تواريخ، ساره الأولى تقف قبل السادس من نوفمبر، وساره الثانية تقف بعد السابع منه، وساره الثالثة تقف هنا الآن بينهما، تتفرّج على تضادهما، تنافسهما، صراعهما. أقف، أنا الثالثة، بيني وبين نفسي، حائرة إلى أيهما أنتمي، إلى أيهما أدخل وأصير!

يتوقف المترو، لا أتمكن من قراءة اسم المحطة، أرى صور أمينة دو داماس على الأفيشات الملصقة في المحطة. لكن أمينة ماتت! من يحيي الحفلة عنها؟ يتحرّك المترو، أدير رأسي صوب الأفيش فيخرج وجه أمينة من الأفيش عابرًا كل الحواجز نحوي. تجلس أمينة قبالتي وتتحدث إليّ، مرتدية ملابس التمثيل، تبدو كأميرة تعود إلى القرن التاسع عشر، بيبروكتها البيضاء ومكياجها الفاقع كأنها قناع أو طبقة إضافية على وجهها، تشعل سيجارة، تسعل وتتحدّث ببطء المحتضرين، تتحدث بذلك الصوت الذي أسمعه مسجّلًا على أشرطة الكاسيت:

«الحياة أغنى وأكرم وأقوى من أن تتوقف عند حدث أو شخص... لا شيء يوقف نسغ الحياة سوى الموت. حتى المرض تستطيع الحياة الجبارة مدّ أنسجتها فيه، وإحيائه وإزاحته. الحياة ماكينة ضخ قوية، عبرت الكثير من الكوارث والحروب والأزمات ونجت... الحياة ذكية وتستطيع دومًا النجاة من المطبات التي لا بدّ منها أثناء العيش.

كثيرون مثلك يقولون: لا أستطيع أن أعيش بعد تلك الخسارة... لا أتخيل الحياة بعد ما حدث لي... ثم يعيشون. نحن البشر كلما تعرّضت حياتنا لاهتزاز نتحوّل إلى مراهقين وسذّج. لا نفهم الحياة. حياتنا ليست واحدة تسير في مسار خطّي يتقدّم دائمًا... فنحن الذين

نستيقظ في كل صباح، قد يأتي ذات صباح، ولا نكون ذلك الشخص الذي كنّاه طيلة صباحات مضت... نتغير... نتعلم.

انهضي يا ساره وكفّي عن التذمّر والضعف... لست بحاجة لأحد. الأقوياء لا يحتاجون إلى مَنْ يدلّهم على مواطن قوّتهم. يدركونها بالسليقة.. أنت تملكين البذرة... لكنك لا ترينها. انظري في داخلكِ لتري عمقك وتفرّدك.

هيا ساره، أفيقي الآن وغادري المترو... ولتبدأ رحلتك الجديدة».

أراها تعود إلى الأفيش في المحطة التالية.. كيف أشرح لها؟ أنا بين المنطقتين... أريد مغادرة المترو، لكن جسدي لا يطاوعني. أنت تنتمين إلى منطقتك التي بنيتها. أنا أنوس بين ما كنته وبين ما سأكونه. بين أنا التي انبنت من قبل، عبر سنوات طويلة، وأنا التي تنبني في قلب هذا الصراع الذي يدور في داخلي... كأنني في ورشة التكوين. أحاول أن أثبّت ملامحي الجديدة، لكن كلما نظرت إلى نفسي تظهر القديمة. أنا سارتان، أو ثلاث: ساره ابنة أمينة ـ ساره ابنة هدهد، ساره التي في باريس ـ ساره التي في حلب، ساره التي تريد أن تستسلم ـ ساره التي تريد أن تتمرّد... ساره...

شاب إلى جواري راح يدندن: «ما جولي ساره». كأنني سقطت من علياء، اهتزّ جسدي، وأفقت. هل أنطق اسمي كثيرًا؟

يتوقف المترو... لا أزال غارقة في ذلك الصراع.

سيدة إلى جواري تهمس لي:

ـ مدوموازيل، هذا نهاية الخط.

أفتح عينيّ، أنظر إليها:

ـ أين نحن؟

ـ ناسيون.

الشاب يبتسم لي ويتابع أغنية جوني هاليداي: Ma jolie Sarah
ماذا جاء بي إلى هنا؟ أنزل من المترو.. أتوقف أمام الخارطة. كنت أستعمل المترو غالباً من دون خارطة. كيف نسيت الطريق؟ عليّ البحث عن الخط الأزرق، والعودة حتى كليشي.

أصعد المترو من الطرف الثاني، لأعود من ناسيون... أجلس... الزحام يتزايد تدريجيًا.. يصل المترو إلى بلاس دو كليشي، ولا أستطيع الوصول إلى الباب. كلما نهضت، وحاولت التقدم وسط الحشد، دفعتني قوة ما لأعود الى مقعدي، فيغلق باب المترو، قبل أن أصل... نزلت في محطة لا أعرفها...

حاولت الخروج من المترو... أعتقد بأنني ثملة. أتبع كلمة (خروج)... أجدني على رصيف المترو... ولكنني كنت أخرج، كيف عدت؟ أفتح عينيّ جيدًا وأبحث عن كلمة (سورتي)[27].

أصعد سلالم، ثم أهبط، أكرر لنفسي بصوت مسموع: سورتي، سورتي... ولكني أجد نفسي من جديد أمام المترو.

تراجعت قليلًا وجلست على الدرج الذي نزلت منه. كنت أشعر بظمأ شديد، فتحت حقيبتي وأخرجت علبة بيرة وكرعتها دفعة واحدة حتى سال منها على ملابسي وعنقي... نهضت مجددًا، أتبع اللوحة الزرقاء، التي تحمل كلمة خروج، وبجوارها السهم الذي يؤشّر إلى اتجاه المغادرة.

أدور من ممر إلى آخر، ومن نفق إلى آخر، كأنني محبوسة في تلك اللعبة التي كنا نعبث بها في طفولتنا ونسميها (تسلاية رمضان)، حيث الدوائر الصغيرة المحبوسة داخل ممرات صغيرة، تدور من نفق لآخر،

---

(27) Sortie

بلا نهاية. كأنني في متاهة اسمها نفق المترو. كأنني في متاهة أنفاق، أدور من ممر إلى آخر، أصعد وأهبط، ولا أصل إلى المخرج.

تعبت، ظننت أن لا مخرج من هذه المحطة فصعدت إلى المترو. قد أكون ثملة. سأنزل في المحطة التالية. عساني أجد مخرجاً.

نزلت في المحطة التالية، وتبعت أولئك الذين اندفعوا عند فتح الأبواب. مجموعات من الشباب، تبادل شتائم، ورائحة سجائر حشيش، وأنا سكرانة كما أعتقد.

أقرر الاحتماء داخل المترو. سأنزل في المحطة التالية، ثم أخرج إلى الشارع، وأبحث عن سيارة أجرة.

أقف على الرصيف، يقترب المترو. إلى جواري شخص ستيني، تبدو ملامحه عربية. أسأله:

- أين يذهب هذا الخط؟

يستغرب سؤالي:

- أي محطة تريدين الذهاب إليها؟

أنظر إليه عاجزة عن الرد، أهزّ كتفي بأنني لا أعرف.

- حسنًا، أعطيني اسم الشارع وأنا أجد لك اسم المحطة.

أهزّ كتفيَّ مجددًا.

يصل المترو ويمضي، ولا أصعد، وكذلك الرجل... يحاول مساعدتي... أو ربما...

- أنت غريبة عن البلد؟ أليس لديك عنوان أحد أو رقم هاتف لشخص تتصلين به؟ هل معك هاتف؟ كيف أساعدك آنستي.

- أنا أعيش هنا، لكنني نسيت عنواني.

انظري في بطاقتك الشخصية. عنوانك فيها. اتصلي بأحد أصدقائك.

أخرج هاتفي، فأجده مطفأً. أفتش في حقيبتي عن بطاقة إقامتي الفرنسية، ولا أجدها... أسمع فقط صوت ارتطام علبتَي البيرة الوحيدتين الباقيتين في قعر الحقيبة.

يقترب المترو التالي، يبدأ صبر الرجل بالنفاد:

ـ سآخذ المترو القادم!

لا أعلّق... يصعد الرجل، يجلس قرب الباب. أنا واقفة على الرصيف أمام الباب والرجل ينظر إليّ متعجبًا وقد حجز مقعدًا بجانبه. أسمع الصفير المنبّه لإغلاق الباب... شاب يركض بسرعة، ليلحق المترو قبل إغلاق الباب، يدفعني من دون قصد، ينغلق الباب، أجدني داخل المترو.

أجلس قرب الباب، بجوار الرجل الستيني ذي الملامح العربية.

ـ هل تريدين الذهاب معي إلى بيتي؟ أنا أعيش وحدي.

أهز رأسي بالرفض، وأشعر بالقلق. أنهض من جواره، أسير بين العربات، وأجلس في مكان بعيد عنه.

أغضب، وأبكي.

بجواري سيدة برفقة ابنتها. طفلة بحدود الخمس سنوات. تنظر إليّ الصغيرة، ثم تهمس لأمها.

تقول لي السيدة: عفوًا، هل تتألمين؟ هل أساعدك؟

ـ أريد الذهاب إلى البيت، ولا أعرف...

ـ أين تسكنين؟ سأوصلك...

ـ في حلب.

ـ عفوًا!! لا توجد في مترو باريس محطة حلب!

أضحك... تنظر إليّ السيدة بحذر، وتقول:

ـ اللعنة على الكحول، لقد انفصلت عن زوجي بسببه.

تفتح كومبيوترها المحمول، تخطر فكرة على بالي:
- سيدتي، هل تسمحين لي بشحن موبايلي من حاسوبك؟ من فضلك، هكذا أتصل بأحد معارفي ليعطيني عنواني.
- حسنًا، ولكن بسرعة، سأنزل بعد خمس محطات...
أجد شاحن الهاتف رغم فوضى حقيبتي، أوصله بحاسوب السيدة. يتعطّل المترو. يا لحظي الرائع! سأكسب بعض الوقت لشحن الهاتف.
يرن هاتفي.
إنها سوسن. عادة تتصل بي عبر الفايبر أو الواتس آب. لكنها الآن تتصل على الهاتف!
- ساره، وينك؟
- أنا في المترو..
يبدو لي صوتها خشنًا كأنها كانت تبكي..
- أحاول الاتصال بك منذ ساعات... اسمعي، هناك خبر سيئ، لكن يجب أن تعرفي.
صوتها يرتجف، لكني لست في مزاج الاستماع إلى الشكوى، فأقول لها ببرود:
- قولي...
- ماتت ماما...
- نعم؟
- ماتت ماما اليوم. يبدو أنها كانت مريضة ولم تخبرنا. كانت في عيادة في شارع النيل. سقطت قذيفة على العيادة عند تقاطع الفتاة اليتيمة في شارع النيل، وقتلت ثلاثة أشخاص، وكانت أمي في غرفة الانتظار.

ـ هل كانت في عيادة الدكتور عادل سليمان؟
ـ نعم، كنت تعرفين أنها مريضة؟
ـ نعم، قلت وأنا أفكّر في علاقة أمي بالطبيب... ثم سألتها على الفور: والدكتور؟
ـ ما به؟
ـ هل مات؟
ـ كلا... الدكتور لم يكن قد وصل بعد... يهمك الدكتور الآن؟ قالت سوسن غاضبة.
وفقدتُ الاتصال، بدخول المترو في النفق.
بكيت بصوت عالٍ كأنني أمام جثمان أمي. ماتت أمي في طريقها للقاء عادل. لكنهما لم يلتقيا.
كان هاتفي يرن مجددًا، لكنني لم أرد.
نزلت السيدة والطفلة من دون أن أنتبه لهما. لا أذكر في أي محطة، انتبهت أنهما ليستا أمامي.
هل نمت مجددًا؟
أسمع صوت سائق المترو يُعلن أن هذه المحطة نهاية الخط، ويطلب من الركاب النزول.
أنزل وأقف على الرصيف حائرة. أين أذهب؟
أنتقل إلى الضفة الأخرى، وآخذ الخط ذاته من الاتجاه المعاكس.
يصل المترو... أصعد، أجلس، أفتح حقيبتي، أسحب علبة البيرة قبل الأخيرة... أشرب بينما المترو يمتلئ تدريجيًا بالركاب.
أنهي البيرة، إنها العلبة الأخيرة... أحسّ كأنني أنام وأفيق. كأنني عالقة في اللانهاية. جالسة في مترو لا يتوقف، يمضي سريعًا سريعًا، وكأنه ذاهب إلى حلب. كأنني في طريقي لحضور جنازة أمي.

عادل إلى جواري، يبتسم لي بتواطؤ. وحدنا الباقيان من هذه الحكاية. لا سوسن ولا سمير ولا لوركا ولا جميلة ولا عمتي نزهة... لا أحد يعرف الحكاية. مات كل الذين كانوا يعرفون أن أمينة تركتني لدى هدهد.

أحضر دفن أمي هدهد، أقف بجوار عادل... يعانقني وأنا أبكي:

ـ أحسّ بالذنب... كنت قاسية معها هذا الصباح!

ـ اتصلت بي، وكانت حزينة... وكنت سعيدًا أنها أخيرًا، قررت أن نلتقي. ثلاثون سنة تقريبًا يا ساره، وأنا أحلم بلقائها. تأخرت في الطريق، تعرفين أنها الحرب والحواجز اللعينة. اتصلت بها من سيارتي، وكان صوتها حنونًا وفرِحًا. حين وصلت، رأيت سقف الجدار الذي اخترقته القذيفة، وسقط على المرضى، وعلى هدهد، فقتلها وقتل آلاء ابنة أخي، التي كانت مع أختي. وقتل جاري في العيادة، المحامي بسام. انظري لم يبقَ منها سوى هذا.

يفتح يده، فأرى حبّات الزبيب، ثم أتذكر:

ـ عقد العقيق!

ـ نعم، وجدت حبّاته منفرطة في أرض العيادة. كل هذه السنوات لم ينفرط العقد، إلاّ حين ماتت... حسنًا، هيا بنا لقد دفناها، لنعد الآن.

ـ إلى أين؟

ـ إلى البيت؟

ـ أي بيت؟

ـ بيتكم؟

ـ بيتنا؟ أيّ بيت؟

ـ بيتكم في حلب...
ـ آه، هل وصلنا؟
ـ نعم، أنت ثملة؟
ـ ربما.
ـ هيا... افتحي عينيك... لقد وصلنا، هيا، أفيقي...
ـ لماذا تتحدث بالفرنسية؟
أفتح عينيّ، ثمة رجل يهزّني بلطف متحدثًا إليّ بالفرنسية:
ـ أفيقي يا آنسة، وصلنا إلى نهاية الخط.
أنزل من المترو. قدماي لا تمسّان الأرض، أشعر كأنني أطوف على سطح الهواء، كأنني أمشي على ماء أو أسير في الفراغ، أفقد السيطرة على جسدي، يدفعني الركاب المسرعون للخروج من المترو، أنظر حولي، لا أرى أحدًا يغادر المترو مخلّفًا الفراغ. تبخّر الركاب في لحظات. أجلس على رصيف المحطة منهكة. تعبت من الصعود والهبوط... تسقط عيناي بغتة في عين الشاب المستلقي مع كلبه. يبتسم لي. تضيء عيناه. أنهض وأتجه صوبه. أجلس قربه وأتأمل الناس من مكانه: من زاوية متشرّدي مترو الأنفاق في العواصم الكبرى التي لا تبالي بأحد، حيث الزحام وضيق الوقت وتعقيد المسافات.
أنهار باكية. لقد علقت في المترو.. ولم تعد لي حياة خارج هذا المكان. كأنني سيزيف، يحمل الصخرة ثم تسقط منه، فيحملها، وقبل أن يصل تسقط. أنا أركب المترو، وأنزل منه، أبحث عن المخرج، ثم أجدني أمام المترو، أركب، أنزل، أبحث عن المخرج... كأنني عالقة في المترو الأبدي.
ـ سيجارة؟

يقول لي الشاب المتسوّل الذي يرتدي ملابس ممزّقة شديدة القذارة، ورائحة كريهة تفوح منه.

ـ لا، لا أريد...

ـ أنا أريد سيجارة...

حسنًا هو يطلب سيجارة! أخرج علبة سجائري، أناوله إياها.

يشعل السيجارة ويتنشّق منها نفَسًا، ثم يتناول زجاجة النبيذ من جيبه، يتجرّع منها قليلًا، ويقترح عليّ بحركة من الزجاجة مشاركته بالشراب، فأهزّ رأسي رافضة.

ـ ماذا تفعلين هنا وأنت ترتدين هذا الفراء الفاخر؟

ـ أنتظر المترو.

ـ لقد نزلت منه للتو.

ـ لم يكن المترو الذي أريد.

ـ أي مترو تريدين؟

ـ مترو حلب...

يضحك الشاب بهستيريا:

ـ أهلاً بك في فريق المتشردين... هاتي هذا الفرو الذي يغيظني ويذكّرني بالبورجوازيين القذرين.

يفسح لي مكانًا بجواره، حيث يمدّ الكثير من الجرائد وألبسة قديمة.

ألتصق به... نتغطى كلانا بالفراء الفاخر، وأتجاهل رائحة المتشرّد الكريهة وملابسه الشديدة القذارة.

الفصل السادس:

بين الاحتضار والولادة

كما أن هناك أشياء كثيرة لا تعرفها ساره، فإن شخصًا واحدًا، وبصدفة تحدث بين السوريين في المنافي العشوائية، سيعرف مصير ساره...

يكون هذا الشخص راكبًا في المترو بعد منتصف الليل بقليل. يتوقّف المترو في محطة (باستيل) فيلمح وجهها الذي لا يمكن أن ينساه. يندفع وهو يقول لفابيان: إنها هي. هذه ساره التي حدثتك عنها. صاحبة القميص الأسود!

يسرع هابطًا من المترو قبل أن يغلق بابه وهو يصدر ذلك الرنين المنبّه لإغلاق الأبواب، ويترك فابيان وحده، لينزل في المحطة التالية ثم يأخذ المترو في الاتجاه المعاكس للعودة إلى طارق. الذي كان جالسًا على الأرض، بجوار ساره.

ـ ساره... ساره... ماذا تفعلين هنا؟

تردّ بلسان ثقيل وكلمات ممطوطة:

ـ أنا في حلب؟

- ساره، أنت ثملة؟ ساره، أنا طارق، أتذكرينني؟ أنقذتني يوم تظاهرة المفتشين الدوليين...

تنظر ساره الثملة إلى طارق:

- طارق؟ نحن في حلب أليس كذلك؟

يأخذ طارق بذراعها محاولاً أن ينهض بها عن الأرض، هامسًا لها:

- أكيد نحن في حلب طالما أني رأيتك... أنتِ حلب.

يقف للحظات فاقدًا القدرة على اتخاذ القرار بالصعود في المترو الذي يقترب، أو انتظار اتصال فابيان، فهذا يومه الأول في باريس التي وصلها ليلة البارحة بدعوة من منظمة حقوق الإنسان، ليقدم شهادة عن الأوضاع الإنسانية للسوريين في ظل الحرب، وفق مشاهداته وخبراته خلال سنوات الثورة والحرب لاحقًا، وعمّا عاشه من رعب تحت سلطة (داعش) والتنظيمات المتطرفة في حلب، حيث كان ينشط، وحيث تعرّض الكثير من أصدقائه الناشطين والصحافيين لاغتيالات واختطافات، ولا يزال معظمهم مجهولي المصير.

ما إن توقّف المترو أمامه، حتى لمح فابيان يصرخ به عبر باب إحدى العربات: طارق، اصعد، هذا آخر مترو.

أسند طارق ساره الثملة إلى ذراعه وصعد بها المترو وهي تسأله: هل هذا مترو حلب؟

***

حين أفقت من النوم، كنت أشكو من ألم شديد في رأسي. حاولت أن أستوعب ما حصل لي نهار البارحة.

كنت تائهة، وأحسست بأنني سأظل على رصيف المترو، أنام على

الأرض وأتغطّى بملابسي، كهؤلاء الـ«إس دي إف»[24] لأنتظر المترو الذاهب إلى حلب.

نهضت مترنّحة، أحاول التعرّف على المكان الذي أنا فيه. هذا ليس مشفى، فالغرفة تبدو لطيفة، مليئة بصور على الجدران، ولوحات، ومنفضة سجائر على طاولة صغيرة قرب السرير، وستائر حمراء. فتحت باب الغرفة، وشهقت...

وقعت عيني في عين ذلك الشاب ذي الشعر الطويل الذي ما إن فتحت الباب حتى رفع رأسه صوبي، واصطدمت نظراتنا.

هل أنا مُختطفة؟ هذا أول ما خطر في بالي، لكني رأيت وجه طارق، وتذكّرته. كان يجلس قبالة ذلك الشاب ذي الشعر الأسود الطويل.

صرخت: «طارق أين نحن؟».

ـ لماذا تصرخين ساره؟ نعم أنا طارق، وهذا فابيان ونحن في بيته.

ـ لماذا؟

نهض فابيان قائلًا:

ـ سأجلب القهوة، إنها ساخنة وتنتظرك... وهناك كرواسان.

أسأل عن الحمّام، أغسل وجهي، أنظر إلى وجهي في المرآة. يبدو متعَبًا.

بينما أشرب القهوة، وأدخّن مع طارق وفابيان، أحاول أن أسترجع تفاصيل البارحة. ذهني مشوَّش. نظرت إلى الساعة وشهقت، فارتجفا ونظرا نحوي. قلت:

ـ كانيل... يا إلهي، إنها الساعة الثانية عشرة... كيف نمت حتى الآن؟

---

(24) الحروف الأولى من ثلاث كلمات بالفرنسية، تعني دون عنوان ثابت، ويُقصد بها المشردون.

ورحت أبحث عن حقيبتي كأن عقربًا عقصني... أدرك فابيان عمّا أبحث. اتجه صوب المشجب في الممر، وأحضر حقيبتي. أخرجت هاتفي بتوتر:

ـ يا إلهي.. هاتفي مقفل، فرغت بطاريته وليس لديّ شاحن.

نهض فابيان مجددًا، ثم عاد مع شاحن:

ـ جرّبي هذا... وعلى فكرة، اليوم هو الأحد. لا أظنك تغيّبت عن التزام مهم.

فكرت أن أشكر فابيان لأنه أعلمني أننا في يوم الأحد... ولكنني اتصلت بدارلين وأخبرتها أنني مريضة ولديّ ظرف منعني من العودة إلى البيت، وأنني ربما لن أكون غدًا في البيت. وأحسست بلهفتها وقلقها عليّ، طمأنتها أنني مع أصدقاء، وأنني سأعود إلى البيت حالما أتحسّن.

كان عليّ إخبار دارلين لتجد بديلًا عني، لحضانة كانيل، فأنا فعلًا لا أعرف ماذا سأفعل في حياتي بعد اليوم... كنت مشوَّشة جدًا، ولدي إحساس بالضياع والحزن، كأنني في نفق طويل ومظلم، لا نهاية له.

أرسلت رسالة نصّية إلى ناتالي أعتذر فيها عن المجيء هذا الأسبوع، فعلت هذا لأتحرر من التزاماتي، ثم أقفلت هاتفي من دون أن أرى إيميلاتي أو رسائل الواتس آب والفايبر والفايسبوك... كنت أريد أن أبتعد عن كل كل شيء!!

قال فابيان: «أعتقد أنه من الأفضل أن تبقى ساره هنا لبعض الوقت. سأترك لكما شقّتي. وسأنام عند صديقتي. تصرفا كما لو أنكما في بيتكما». ثم التفت نحو طارق وأكمل: «سأتصل بك، لترتيب مواعيدنا... لا تنسَ موعد المساء. على كل حال.. سنرتب أمورنا وأمرّ لاصطحابك».

رفضت دعوة طارق للخروج والسير قليلًا في الشارع. كنت أحسّ بإنهاك شديد فاعتذرت من طارق وذهبت للنوم.

لا أعرف كيف هبط عليّ النوم سريعًا في النهار، بينما أعاني غالبًا من صعوبة النوم في الليل. حين أفقت، سمعت صوت التلفاز بالعربية. غادرت الغرفة، لأجد طارق في الصالون، يضع أمامه علبتين كبيرتين من البيتزا، إحداهما مفتوحة، وقد أكل منها، والثانية فهمتُ أنها لي.

أكلت القليل من البيتزا... ودخّنت بشراهة.

«شو شبعتي نوم؟»، قال طارق بنبرة فيها سخرية ودودة.

نظرت إليه نظرة اختلط فيها العتاب بالمحبة، وعبّرت له عن شكري له ولفابيان: «ذلك الشاب الطيب والجذّاب الذي ظننت أنه أنتونيو بانديراس وهو يساعدك على إدخالي إلى المترو». اكتفى طارق بابتسامة ولم يعلّق. كنت أتكلم كأنني أحلم، لم أشعر بأن ذلك الصوت كان لي:

ـ شو عجيبة هالحياة! مين بيصدق؟ كأنك جيت من حلب لباريس، فقط لتُخرجني من ذلك النفق.

ابتسم طارق وقال:

ـ على فكرة، رأيت أمك في حلب، قبل خروجي إلى تركيا.

ارتجف جسدي. كأنني في فيلم سوريالي:

ـ أمي؟ وكيف تعرف أمي؟

ـ دخلت بيتكم، ورأيت صورتك معلّقة على الجدار، وأخبرتني أمكِ أنك في باريس، لذلك عرفتك لمجرّد أن لمحتكِ.

أحسست بقشعريرة، ورغبت لو أستطيع احتضانه، كان كل ما فيّ مشدودٌ إلى ذلك الشاب الذي ذهب إلى بيتنا في حلب ورأى أمي

وصورتي المعلّقة على الحائط... كانت رائحة حلب تملأني فأحسّ بمشاعر جميلة رغم التعب والتشوّش.

تحدثنا مطولًا. تحدثت معه كما لم أتحدث أبداً عما حصل في سوريا، حتى حين كنت هناك. كنت أتجنّب الحديث عن (الثورة)، ولا ألفظ الكلمة... بل أقول غالبًا: «الأحداث».

أفرغت كيسي أمام طارق، كما نقول. بحت له بكل شيء. ارتباكاتي، مخاوفي، أحلامي، كرهي لذلك النظام الذي أذلّنا وأوصلنا إلى ما وصلنا إليه، ونفوري من المعارضة التي أوصلت داعش ورفيقاتها حتى صرنا ضحايا...

وهو راح يتحدّث إليّ بإحساس عميق. كان فمه يرتعش بحركة عصبية:

ـ نحن مصدومون يا ساره. أنا شخصيًا مصدوم. ولكنني أنهض في كل يوم، وأتابع طريقي، لأنني لم أمت.

حين قامت الثورة، توقّع أغلبنا الرد الوحشي للنظام. لستُ مصدومًا بالنظام، لكنني مصدوم بموقف العالم. حقيقة، لم أتخيّل أن العالم سيكتفي بالتنديد حين يرى جثث المدنيين على شاشات التلفزة.

أنا مصدوم مثل أكثر السوريين، مصدوم بالعالم الذي تخلّى عنا. لم أتخيّل أن يصبح القتل أمرًا سهلًا ومتاحًا هكذا... موت وموت من دون توقّف.

صدمتي متعددة الأطراف، مصدوم من أصدقائي... كنا معًا منذ البداية، تذكرين حين رأيتنا في التظاهرة، وركبنا في سيارتكِ (لم أصحح له أنها سيارة رولا)، لكننا انقسمنا... صار البعض يتبنّى خطابًا دينيًا أو طائفيًا أو قوميًا، وانقسمنا... ذهب بعض أصحابي

إلى الجماعات الجهادية، وانقلبوا علينا، بل صاروا يحاربوننا أكثر مما يحاربون النظام...

أنا مصدوم يا ساره بنماذج مثل ياسر الذي داهم المشفى الميداني الذي كنت أعمل فيه في حي (بستان الباشا)، وقال لي: لولا الخبز والملح بيننا، لاخترقت رأسك برصاصة. وأخذ صبية كانت قد تطوّعت كممرضة، بتهمة مخالفة القواعد الشرعية التي تحرِّم عمل النساء مع الرجال... لم أتمكن من حماية (كليستان) حين جرّها ياسر أمامي... هل تعرفين معنى ذلك؟ هل تتصوّرين الألم وأنتِ تدركين الألم الذي ستعانيه تلك الفتاة الرائعة التي تطوّعت لتخفيف آلام الآخرين؟

إنها حرب كبيرة.. حرب بدأها النظام ضد الثورة، وحرب قام بها بعض أبناء الثورة، وهؤلاء أكثر من أساء إلى الثورة، وهم يحرّفون القيم المدنية والعدالة والمساواة التي هتفنا لأجلها، إلى أحلام لا تخصّنا...

إنها حرب من كل الجهات... وعلى أحدنا أن يتماسك كي لا يجن... لأننا لا نزال مسؤولين عن أهالينا، وعن أمهاتنا وجداتنا وبناتنا وصديقاتنا وجاراتنا...

كنت أنظر إليه بدهشة وإعجاب وحزن وشفقة... كنت مرتبكة ومتعددة المشاعر صوبه، حين أنقذنا رنين هاتفه، فقال لي بعد انتهاء الاتّصال:

ـ هل تذهبين معي إلى السينما؟

سألني طارق، وقلت له وأنا أغمزه مازحة، محاولة تغيير حالة الحزن العميقة التي دخلناها:

- أنا أكبر منك يا ولد، تريد إغوائي؟
ابتسم طارق وردّ:
- لا... هناك عرض لفيلم سوري في معهد العالم العربي، وغمزني وهو يضيف: ومعنا فابيان، من عمرك.
ضربته على صدره بلطف، وضحكت بمرح مفاجئ لي حتى:
- يالله، منروح.
- مجنونة! علّق طارق على حيوتي المباغتة.
خلعت منامة طارق التي كنت أرتديها طوال تلك الأيام. كنت أستحم وأرتديها مجددًا، وقد أخذت منه قميصين داخليين، فقد كانت ملابسي التي جئت بها متّسخة ورائحة تشرد المترو، عالقة بها.
رافقني طارق إلى سكني، حيث غيّرت ملابسي، وكاد يغازلني وهو يراني أخرج من الحمّام مرتدية ثوبًا أنيقًا، وأضع ماكياجًا خفيفًا مع حمرة شفاه فاقعة.
قال لي ونحن في المصعد:
- لا أمانع الوقوع في غرام صبية أكبر مني، إذا كانت بهذا الجمال.
لكزته في خاصرته:
- اخرس...
بعد انتهاء الفيلم غاب طارق بين الجموع، اكتشفت أنه يعرف الكثير من الأشخاص هنا. تسللت دون أن ألفت نظره وعدت إلى بيتي... كان الوقت متأخرًا فنمت سريعًا.

أفقت في الصباح على صوت إغلاق باب دارلين.
فتحت هاتفي لأرى إن كان طارق قد اتصل بي، فتذكرت أنه لا يملك رقم هاتفي.

فكرت في البحث عن رقم فابيان، ولكنني لا أعرف اسم عائلته، لأبحث عنه في الصفحات الصفراء[29]. بحثت عن طارق في الفايسبوك، لكنني وقعت على عشرات الأسماء المشابهة، وأي من تلك الأسماء، لا يضع صورته الشخصية على (بروفايل) الصفحة.

قررت الذهاب إلى بيت فابيان في سان ميشيل، بحثًا عن طارق.

ماذا حدث في باريس؟

لم أفتح الإنترنت، ولم أشاهد نشرة الأخبار. تبدو المدينة غامضة. ثمة شيء ما غير اعتيادي. الحارة هادئة وساكنة بشدة. في طريقي إلى المترو لاحظت قلّة الناس، وهذا أمر غير طبيعي. في المترو، بدا الوجوم مسيطرًا على معظم الوجوه. تواجد أمني غير طبيعي. شعرت بقلق شديد! لماذا الباريسيون واجمون وقلقون هكذا؟

وصلت إلى منطقة سان ميشيل، وصعدت حتى بيت فابيان، ضغطت على الجرس مرة بعد مرة... لا أحد.

ذهبت لاحتساء قهوة في مقهى قبالة المنزل. الوجوم ذاته في المقهى... لكن اتضحت الصورة، حين رأيت الأخبار على شاشة تلفزيون المقهى... مقتلةٌ مفجعةٌ وقعت في باريس. شعرت بقلق كبير على طارق، انتظرت في المقهى قرابة الساعتين، من دون أن أرى أحدهما، فابيان أو طارق، يدخل أو يخرج من المبنى.

هل أضعت طارق؟

لكنه يعرف عنوان بيتي... ليس لديه الكود لفتح البوابة، ولكن يستطيع انتظار دخول أو خروج أحد السكان ليقفز صوب سكني الصغير...

---

(29) موقع على الإنترنت معروف، بمثابة دليل هواتف، يمكن العثور على رقم هاتف الشخص بوضع عنوانه واسم عائلته في خانة البحث.

أضعته!

بقيت لثلاثة أيام، أقطع الطريق، كل صباح، صوب سان ميشيل، أرن الجرس، أشرب القهوة قبالة البيت، وأعود أجرجر أذيال خيبتي... كل الوقت أتلافى أن أصادف دارلين، إذ أغادر بعد أن تخرج، أتسكّع في الشوارع والمكتبات، أقرأ وأتفرج على الأفلام والمواد المتعلّقة بالحروب عامّة، والحرب السورية خاصّة.

ضبطتُ نفسي متلبّسة بحالة اختباء، وكأنني أتهرّب من دارلين... لماذا كنت أشعر بأنني أختبئ منها؟ لا أعرف. هل كنت خائفة أن تربط دارلين بيني كسورية وبين المعتدين على الفرنسيين في مسرح باتاكلان، حيث تمّ احتجاز رهائن وقتلهم انتقامًا من مشاركة فرنسا في الحرب ضد الدولة الإسلامية في سوريا؟!

غرقت في حالة من الذهول والعجز عن القيام بأي شيء. توقف عقلي عن العمل تمامًا.

كنت أنام قليلًا.. وأقرأ كثيرًا. أتابع التلفاز طيلة اليوم، أتفحّص صور الاعتداءات، وأتابع التحليلات الأخبارية للتعرف على الجناة. كنت أشعر بأنني معنية بالأمر، ربما أكثر من الفرنسيين أنفسهم. كنت أشعر بالخجل من أنني في بلدهم الآمن حيث أحظى بذلك الأمان.

تخيّلت لو أن أمينة هنا... لو أن الحفلة كانت لأمينة. لو أنها كانت في مسرح باتاكلان! فهي قدّمتْ عدة حفلات هناك.

في اليوم التالي، صباح الأحد، قررت أن أتصرّف كما كانت أمينة ستفعل لو كانت هنا. حين علمت بوجود تجمّع في ساحة الجمهورية كنوع من التضامن والحداد على أرواح الضحايا، قررت، اللحاق بالمجتمعين هناك، رغم خوفي الذي لا أنكره، من احتمال أن يضايقني

أحد الفرنسيين إذ تبدو عليّ ملامح امرأة عربية، أو أن يتعرض التجمّع لاعتداء جديد، فالسلطات تحذّر وتدعو المواطنين للانتباه.

وأنا أغادر بيتي، صادفت دارلين على الباب. احمرّ وجهي خجلاً، وارتبكت. عانقتني دارلين وراحت تبكي من دون كلام. ثم أبعدت رأسها عن كتفي وقالت لي:

ـ أحسّ كثيرًا بألمك... هؤلاء الإرهابيون الذين يقتلون أهلك هناك، جاؤوا يقتلوننا هنا.

أحسست بامتنان غامض صوب دارلين التي تتفهّم الموضوع. أخبرتها أني ذاهبة إلى ساحة الجمهورية، ابتسمت وقالت لي:

ـ كنت ذاهبة إلى بيت أمي... تركت كانيل عندها البارحة... ولكنني سأذهب معك إلى ساحة الجمهورية، لن يخيفنا هؤلاء.

وضعت شمعة باسم أمينة، بجوار وردة وضعتها دارلين، بجوار مئات الورود والرسائل العاطفية المتضامنة مع أهالي الضحايا، المنددة بالإرهاب... هناك، في ساحة الجمهورية.

عدت إلى سان ميشيل، وانتظرت أن أرى طارقاً أو فابيان، من دون جدوى.

كنت حزينة ووحيدة ولكن عقلي كان متأجّجًا، وثمة اشتغال بداخلي على قضية ظهرت بقوة في حياتي: ماذا يمكنني أن أفعل؟

دخلت مجددًا في حالة التأرجح، التي تصيبني حين أغضب أو أتوتر... كأنني سأفقد وعيي. لم أكن أعرف أين أنا. أركب المترو وأتخيل أنني في حلب، أسمع أصوات تفجيرات تسبقها أو ترافقها صيحات (الله أكبر)، فأتشوش بين صيحات الإرهابيين في سوريا، وهؤلاء هنا، في باريس.

انتبهت فجأة أنني وصلت إلى (بلاس دو كليشي)، وكاد الباب يُقفل، لولا أنني قفزت في آخر لحظة، وأنا أسمع صفير الإغلاق.
لو أن طارقًا هنا!
نمت باكرًا هذا المساء، بعد نشرة الأخبار، بل نمت أمام التلفزيون المفتوح أمامي... وكنت أجدني في النوم داخل مسرح باتاكلان، أصرخ مذعورة، ثم أسمع أصوات التفجير تليها صيحات (الله أكبر)، ثم أجدني في الأرض الحمراء ومعي طارق يقول: أسرعي، علينا إخراج الأحياء من تحت الأنقاض.
أكنت أشعر بالذنب تجاه الفرنسيين والسوريين معًا! أنا السورية في باريس، حيث اعتدى عليها بعض القتلة متكئين على ذريعة الجهاد، وأنا السورية التاركة سوريا، حيث ينهش لحمها هناك أيضًا، قتلة جدد، باسم الجهاد.
بين الجهادين، الجهاد في سوريا، والجهاد في فرنسا، يتكرر اسم سوريا، وكأننا في دائرة لا تنتهي من الموت والخراب.
ماذا أستطيع أن أفعل... كل هذا كان يشتغل في داخلي، طاردًا سيرتي الشخصية، حكاية أمي وأبي وأمينة...
أفكّر بطارق! لقد هزّني وهو يتعالى على كل ما عاشه.
أحسّ بالخجل من نفسي، من سوزان سانتاغ وفرجينيا وولف... ومن أنجيلينا جولي التي تزور المخيمات وتبكي وتبذل جهودًا لمساعدة الأطفال هناك.
حين أفقت في الصباح، حوالى الرابعة، أطفأت جهاز التلفزيون، ثم فتحت هاتفي، ورحت أستعرض كل ما فاتني من رسائل على الواتس آب والفايبر والفايسبوك والسكايب... إلى أن انتبهت أن اليوم هو عيد ميلادي.

لاحظت أن المحامي بينوا لافار، الذي أرسل له إيجار الاستديو، اتصل بي ثلاث مرات. أتصل به، فيطلب أن نلتقي. حدد لي موعدًا في الغد.

برفقة نساء عدّة

كلما سلكت بولفار سان جرمان أشعر بحيوية غامضة، تلك الجادة الطويلة المأهولة بشدة، بسبب مجاورتها لبولفار سان ميشيل والحي اللاتيني، هناك، كنت أغذ السير متجهة صوب مكتب المحاماة.

توقفت قليلاً أمام مقهى (فلور) قبل أن أكمل. أشعلت سيجارة وأنا أقف بجوار المقهى، حيث دخلت ذات يوم، لا لاحتساء القهوة فقط، بل لأتفحّص المكان، الذي اعتاد الصديقان جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار الجلوس فيه.

أحسست بأنني أمرّ بظرف غير عادي، وأنني جزء من أولئك النساء اللواتي قرأت عنهن، وخاصة اللواتي قرأت لهن: سوزان سانتاغ، فيرجينيا وولف... وها أنا أمرّ أمام الساحة الصغيرة قرب المقهى التي تحمل اسم سيمون دو بوفوارمع اسم جان بول سارتر.

في مبنى يفصل بينه وبين مقهى (فلور) عدة مبانٍ، ضغطت على جرس الأنترفون، ليُفتح لي الباب وأصعد حتى الطابق الثالث.

استقبلني السيد لافار بحفاوة، قال مصافحًا بقوة، ممسكًا بيدي مطوًّلًا بين يديه وهو يقول:

ـ كنت أنتظر هذه الزيارة...

أدخلني إلى مكتبه وهو ممسك بيدي اليسرى، ثم أفلت يدي ودعاني للجلوس وجلس قبالتي وتحدّث بحميمية ومرح:

ـ كان اتفاقي مع أمينة أن أمهلك سنة كاملة، وفي حال لم تتوقفي عن دفع الإيجار، كنت سأتصل بكِ لتسليمك الأمانة.

ظننتُ أنه يقصد الإرث حين تحدّث. انتظرت أن يكمل. نهض إلى خزانة في مكتبه وأخرج مغلّفًا أصفر ناولني إياه وهو ينظر في عينيّ:

ـ وصية أمينة.

أمسكت المغلّف، وأنا أصغي لبقية الكلام والحيرة والفضول باديان على وجهي:

«كنت أتتبعك من شهر لآخر عبر تحويل المصرف لقيمة الإيجار الشهري، وأطمئن أنك لم تعودي إلى سوريا، فذلك كان التخوّف الأكبر لدى أمينة.. أجل، كانت خائفة من عودتك، بعد وفاتها».

توقف للحظات ثم أردف: «أما وقد سلّمتك الأمانة، فسنبدأ بإجراءات نقل الملكية حالًا. فقط سأطلب منك بعض الإمضاءات»، وراح يقدّم لي عدة أوراق متابعًا كلامه، «طبعًا البيت الذي تقيمين فيه سيصبح ملكًا لك، وكذلك هناك مبلغ في المصرف، حوالى مائة وخمسين ألف يورو، وثمة مجوهرات تركتها أمينة، لم تكن تُظهرها في السنوات الأخيرة، تركتها لكِ مع الجوائز والأوسمة التي تلقّتها على أعمالها، وكل هذا موجود في حوزتي...».

لم أعد أسمع ما يقوله، كنت أفكر أن أمينة أطلقت على المغلّف الذي في يدي، وحده، اسم «الأمانة»..

هززت الظرف أسأله: وهذا؟

ـ هذا لكِ... لم أفتحه... لا أعرف ماذا يوجد في داخله. سلّمته لكِ بحسب طلب أمينة، التي أصرّت ألّا يفتحه أحد غيركِ!

كان ما في داخل المغلّف قد لُفَّ جيدًا. أسرعت إلى البيت، لأفتح

المغلّف وأنا أقاوم رغبتي في فعل هذا، طيلة الطريق. وجدت في داخله شريطًا مثل بقية الأشرطة التي كانت في حوزتي. أحسست بهبوط في حماستي: «شريط آخر!».

كنت أحسّ بالجوع فذهبت إلى البرّاد. أكلت بعض المأكولات الباردة من دون شهيّة. حضّرت كوبًا كبيرًا من الشاي، ووضعت الشريط ورحت أصغي إلى أمينة:

«حبيبتي ساره... ربما تأففت من وجود شريط إضافي! أظن ذلك لأني أراهن على أن فيكِ شيئًا مني، فأنا لو كنت مكانك لكنت أهملته... لكن لأني أعرف أن فيك شيئًا مني فإن فضولكِ سيدفعكِ لمعرفة سبب ترك هذا الشريط لتتسلميه عندما تقررين تسلّم وصيّتي... هذا الشريط هو أنا يا سارة أكثر من أيّ شيء عشته أو قلته. إنه اعتراف ما كنت أتصوّر أنه يهمّني يومًا... تردّدت، وفكرت في انعكاس هذا الاعتراف، لكنني قررت أن أسجّله...

كل ما سجّلته لك يا ساره من قبل، كان بصوت امرأة عشتها في فرنسا، كفنانة، امرأة شغفها الوحيد هو الفن. لكن تحت جلد تلك المرأة السعيدة، الناجحة، التي وصلت إلى أعلى درجات الشهرة هناك امرأة أخرى، هي المرأة التي تتحدّث إليك الآن. المرأة التي تشتاق إليك حين تخرجين لمتابعة أوراق إقامتكِ، أو لجلب بعض الأغراض، فتمسك بآلة التسجيل وتحكي لك ما لا تجرؤ على البوح به أمامك.

أنا امرأتان يا سارة... واحدة حاولت الصعود على الأخرى، من أجل النجاح.

(سعال متقطع، وضعف في الصوت).

سامحيني، فأنا أسجّل لك ووضعي الصحي سيئ جدًا.. أسجل

هذا الشريط على دفعات... لذلك ربما لا تجدين الكلام مترابطًا أحيانًا، وربما أكرر كلامًا قلته... لأني لن أعيد سماع ما سجلته، فهذا العمل هو آخر ما يهمني أن أفعله في الحياة، ربما أطمح لأن يكون بمثابة الحلقة الأكثر سرّيةً في سيرتي الشخصية، ألا يكتب معظم الفنانين والكتّاب سيرة حياتهم، أو يطلبون من أحد أن يفعل؟ أنا لم أفكر بهذا من قبل. ربما تفكرين أنتِ بالأمر.

لا يهم... ما يهمني فقط أن تعرفي شيئًا ترددت دومًا في الاعتراف به أمام أحد، وها أنا أقترب من نهايتي، فأمتلك بعض الجرأة للاعتراف لك.

أنا امرأة ضعيفة يا ساره (سعال شديد...)، لا ليس بسبب المرض... أنا ضعيفة منذ الأصل. منذ هناك، منذ دمشق.

لا تظني أن النساء الطموحات نساء قويات دائمًا... نحن نظهر هكذا، لنخفي ضعفنا.

كنت أخاف كثيرًا يا ساره... أخاف من الفشل.

لم أكن متهورة كما كان أبي يعتقد... بل كنت أضع قلبي في كفّي، وأنفّذ ما أقرره، برأسي.

رأسي اختار الفن، ودفعت كثيرًا من أجل اختياري ذاك.

تركت أمن العائلة... هل تظنين أنه من السهل على فتاة في مقتبل الصبا، أن تهجر تفاصيل العائلة الحميمة، لترتمي في وسط الغربة؟ عشت لسنوات لا بأس بها بين الأغراب... تركت متطلباتي الإنسانية العادية على جهة، لأصعد سلم النجاح الذي أردته.

لم أرد أن أكون صبية عادية، أتزوج وأنجب وأصنع عائلة... كنت أريد أن أكون تلك الفنانة التي أرى بعض سماتها في وجوه

الأخريات: الممثلات والمغنيات والراقصات اللواتي تتحدث عنهن وسائل الإعلام ويهتم بهن العالم، ويضع الكثيرون صورهن في غرفهم ومكاتبهم..

لا أعني الشهرة. كانت الشهرة جزءًا صغيرًا من طموحي... لكنه الفن.

حين تُصيب سوسة الفن أحدنا، تنخر في عظامه، حتى تأخذه إليها. تنخر في عظام الحياة العادية، المستقرّة، لتنحت مكانها حياة مملوءة بالمفاجآت. هذا ما يصنعه الفن يا ساره: حياة غير عادية.

تلك هي الحياة التي سحرتني: اللاعادية.

ومن أجل هذا، على إحدانا أن تختار. ولا يمكن أبدًا أن نجمع بين الحياتين: تلك العائلية الحميمة المليئة بالحنان والحب والمشاعر المتدفقة الحامية، والأخرى، المحتشدة بمشاعر غير مألوفة.

كان عليّ الاختيار بين حب أمي، وهو عزيز على قلبي، وحب معجبة بفنّي. حب حياتي التي عشتها في كنف عائلة أحبتني وأحببتها، وحب حياة لا أعرفها لكن تشدّني إليها جاذبية لا أستطيع، أو لا أريد، مقاومتها...

لحظة، أنا متعبة... سأتوقّف قليلًا... ربما أسجّل لك بعد قليل، إن لم أمت.

نعم، ها أنا من جديد...

اسمعي، ذات مرة، قرأت حوارًا مع ممثلة شابة، تخرجت حديثًا من مدرسة التمثيل في باريس، قالت في حوارها: إن أمينة دو داماس، إحدى ملهماتي.

هذا الكلام يجعل إحدانا تحلّق من الفرح.

هذا الفرح هو الذي دفعني دائمًا لتحمّل ألم فقداني لحياتي في دمشق، لألم فقدانك أنت على الأخص.

هل تصدقين يا ساره، أنكِ كنتِ أكبر حافزٍ لي لأنجح. كان ثمة رهان بداخلي: يجب أن أنجح، وإلا ستكون تضحيتي بابنتي من دون قيمة. يجب أن أنجح، لأبرر لنفسي أن ما فعلته لم يكن إثمًا كبيرًا، بل هو نموذجٌ لكِ أولًا ولكثيرات غيركِ تمنعهنّ أوضاعهنّ الاجتماعية وظروف حياتهنّ من تحقيق أحلامهنّ.

كنت أفكر بك دائمًا... حين أعود إلى البيت. بعد المسرح والضوء والزحام. كنت أتحدّث إليك. كنت أقول لكِ: كل ما أريده هو أن تعذريني، أن تفهميني، يومًا يا ساره.

لكل منا سرّه الصغير الخاص الذي يحتفظ به لنفسه فقط، أنت كنت هذا السر. كنت المكان الحميم، الذي أزوره بصمت، وأحلم ببسمتكِ في مخيلتي.

كلما صادفت طفلة في عمرك، في السنوات الأولى لوصولي، كنت أتخيلك مكانها، كنت أراكِ بين جمهوري تبتسمين بفخر وتقولين: هذه أمي.

وحين كنت تكبرين بعيدًا عني، كنت أراك في كل الفتيات الفرحات المرحات اللواتي أراهنّ وأقول: هذه تشبه ساره... لا بل هذه... ساره الآن في سن هذه الفتاة.

كنت معي، تكبرين أمامي، وأنجح من أجلك، كي أكون جديرة بفقدانك.

حين كنت أقرأ ما يكتبه عني النقاد والصحافيون كنت أتساءل هل تسمع ساره شيئًا عن أمينة دو داماس التي جاءت من سوريا

لتتحوّل إلى ما صارت عليه من شهرة في باريس. نعم يا ساره في باريس مدينة الفن والحرية. وعندما كنت أسمع تصفيق الجمهور وكلمات الإطراء، كنت أحسّ بالزهو بنفسي، وأتمنى لو أنك قربي، لو أنكِ تعرفين أن أمكِ التي لم تتركك لتذهب مع رجل آخر، أو لتبني عائلة أخرى مثلًا، لم تتركِكِ لحماقة ما... تركتك لتصنع مستقبلها، وربما، ربما، مستقبلكِ...

النجاح هو أن يكون أحدنا الشخص الذي يريده لنفسه. لقد أردت لنفسي أن أصير أمينة دو داماس، وحصل لي هذا، بتعب وجهد وحياة لم تكن دائمًا سهلة.

في السنة الأولى بعد مغادرتي فكرت كثيرًا في العودة. كنتِ تؤرقين لياليّ. وكنت أخاف عليك، ثم أعود إلى العمل، وأنشغل، وأطرد الفكرة من رأسي.

أظن أن معظم الفنانين، لا يتمتّعون بحياة عائلية، هل هذا قدر الفنان؟ هل تتعارض الحياة العائلية الآمنة، المضمونة، المستقرّة، مع حياة الفن المليئة بالمغامرات والتجريب والفرح، على الرغم من التعب؟ ربما على واحدنا التضحية بإحدى الحياتين من أجل الأخرى، ولأن الحياة العائلية متاحة بسهولة، بينما تلك، الأخرى، هي الأصعب، كان عليّ التضحية بحياتي تلك، هناك، في سوريا، من أجل هذا الحلم الرائع، من أجل تلك الحياة المتفرّدة، وذلك النداء الذي حين يسمعه الفنان لا يعود قادرًا على صمّ الآذان دونه...

يا إلهي... كم أرغب في مقاومة هذا الألم... لكنه هو أيضًا، هذا الألم نداء من الجسد لا نستطيع صمّ الآذان دونه... سأتركك. وسأعاود التسجيل، إن لم أمت.

ها أنا هنا... لم أمت بعد (ضحك)..

المرحلة الأصعب عليّ كانت عندما رحت أسمع تطورات الحرب على سوريا. كنت أشاهد التلفزيون، وأسمع النساء يصرخن: قتلوا الجميع، تركنا الجثث وهربنا. شعرت بالذعر. رحت أتابع ما يجري في صمت. لم أكن أفهم كيف يحدث ذلك!! قنابل تسقط فوق البيوت، أناس يموتون تحت الأنقاض، أخاف وأتكوّر على نفسي كطفلة لا تعرف كيف تتجنّب العقاب.

ذات ليلة حلمت بكِ. رأيتك تركضين تحت زخ الرصاص وتصرخين: ماما.

لم أحلم بك يومًا تنطقين بكلمة (ماما). ولم أسمع ذلك النداء موجّهًا لي من أحد. رحت أبكي. كنت كالملدوغة لا أعرف ماذا أفعل. بحثت عن وليد... اتصلت بكل سوريّ أعرفه في دمشق أطلب منه أن يساعدني لأحصل على معلومة عن والدكِ. وطال بي الوقت لعدة أسابيع وأنا في حالة من الخوف صارت تؤثر سلبًا على وضعي الصحّي، لكنّي لم أعد قادرة على فعل أي شيء سوى البحث عن والدكِ حتى عرفت أنه في حلب.

كنت أعتقد طيلة الوقت أنه في دمشق، وأتخيل أنه يعتني بك جيدًا، أنتِ ثمرة ذلك الحب الجامح الذي عبّر عنه نحوي ولم يكن الأمر مماثلًا عندي. ولا أقول ذلك تقليلًا من شأنه، أبدًا يا ساره، لكن حبي وانشغالي كان المسرح أولًا، وأعترف بأنني ظلمت وليد، فهو رجلٌ طيّبٌ ومحبّ.

أخيرًا عرفت أنه في حلب، وجنّ جنوني، فقد كانت حلب أكثر تعرّضًا للحرب من دمشق.

هل أبدو لك متناقضة، أو مجنونة، أو كاذبة؟

تتساءلين كيف احتملت ألا أعرف شيئًا عن عائلتي طيلة تلك السنين؟

لم يكن الأمر كذلك يا ساره... أنتِ كنتِ معي دائمًا، وفكرت مرارًا بأمي وبأبي وبأختي هدهد... ولكن كان لا بدّ من إقفال الباب جيدًا خلفي. أي مواربة للباب، تعني أن أسمح لحياتي الأخرى بالتسلل إلى عالمي الجديد. وقد قلت لكِ إنني امرأة ضعيفة... كنت أخاف أن أضعف وتكون خسارتي مضاعفة فأكون قد خسرت عائلتي وخسرت شغفي... لكل شيء ثمن. كانت خسارتي في جانب هي ثمن نجاحي في جانب آخر.

إنه الفنّ يا ساره، ذلك الشغف الذي أرجو أن تكون جيناته موجودة عندكِ بالوراثة... ما من شيء في الكون أعظم من الإبداع!! لا شيء يوازي تلك الطاقة الجبارة التي تسمو بكِ فترفعكِ فوق كل ما عرفته أو عشته أو جرّبته... طاقة تجعل المرء يحتمل كل ألم كما يسمو على كل الملذات، ما عدا لذّة النظر إلى إبداعه، طاقة مشتعلة من ذاتها تجعل بيتهوفن يكتب أعظم أعماله وهو أصمّ...

بعد نحو سنتين من وصولي إلى فرنسا، بل سنتين وستة أشهر تقريبًا، كانت المرة الأولى التي ضعفتُ فيها: تشاجرت مع جيرارد، وصفقت الباب خلفي وغادرت في منتصف الليل أسير وحدي في مدينة لا تزال غريبة بالنسبة إلي. سرت كالمجنونة في شوارع باريس الخالية، حيث تتوقف حركة المترو وتكاد تخلو الشوارع إلّا من السكارى والمتسكّعين أمثالي. وما تبقّى يعبرون بسياراتهم بعد أن أنهوا سهرهم أو أنهم ذاهبون للسهر..

كنت أدخّن وأبكي. لم تكن أول مرة أتشاجر فيها مع جيرارد، الذي كان متطلبًا بشدة، ويريدني في يومين أن أكون مثل ساره برنار. كان جيرار قاسيًا معي، لكنها تلك القسوة الممزوجة بالحب، القسوة التي يمارسها من يحبوننا بشدة، ويخافون على نجاحاتنا.

كنت قد قبلت العمل في دور صغير مع مخرج ناشئ، وطار صواب جيرارد الذي قال بما معناه، كما نقول في اللغة العربية: أضعك في الصدر وتذهبين إلى العتبة.

تشاجرنا وكنا ثملين، وراح يسرد عليّ مآثره وتضحياته: «لا تعرفين كم تكلّفينني! أدفع لك إيجار الشقة، وأنفق عليك لأنني مؤمن بك، وأطلب منك الاجتهاد والعمل على موهبتك وتنميتها، وأنت ترتمين بين أقدام أنصاف الموهوبين، من أجل مكاسب تافهة»...

شعرت بالإهانة، وغادرت البيت الذي استأجره لي. تركته وحده في بيتي، الذي لم أشعر أنه لي، لكثرة ما كان جيرارد يتابعني ويلتصق بي.

وجدت باراً مفتوحًا بعد أن سرت لأكثر من ساعتين، شربت ورقصت وثملت، ولم يكن معي نقود. حين ظهر ضوء الصباح، أعطيتهم رقم بيت جيرارد ليتصلوا به ويسدد الحساب.

كان صاحب البار يعرف جيرارد، ومن لا يعرفه في هذه الأوساط! قال لي صاحب البار ممازحًا: لا عليكِ... سأحضر عرضك القادم وتحاسبينني بعد العرض.

غادرت البار في الخامسة صباحًا، وأنا ثملة. عدت إلى البيت في أول مترو يتحرك في ذلك النهار. لم يكن جيرارد في بيتي (الذي أكرر أنني لم أشعر يومًا أنه بيتي). نمت كالقتيلة من التعب، وحين أفقت في الظهيرة، أول ما خطر في بالي، أن أتصل بأبي.

اتصلت به على المكتب. وجاءني صوت المحامي المتدرّب لديه. لم أخبره أنني أمينة، ظنّ أنني إحدى زبائن المكتب، حين أخبرني ببرود: ولكن الأستاذ عبدالعزيز مات..

أغلقت السماعة وغرقت في صمت رهيب طيلة النهار. لم أستطع أن أبكي. لقد احترقت دمعتي. وحين بادر جيرارد إلى مصالحتي، ارتميت في حضنه وبكيت...

هكذا تأتي القصص يا ساره... لا تعرفين كيف يلعب القدر أيضًا دوره لدفعك في اتجاه دون آخر.

لم أجرؤ على الاتصال بأمي... خفت من حزنها، من غضبها، من لومها... خفت من ألمها...

ومن ضعفي!

وهكذا تنغرس أقدام أحدنا في الطريق الذي يسير فيه، ويومًا بعد يوم يصبح السير إلى الوراء مستحيلًا.

وعن طريق بعض الأصدقاء عرفت أن أمي ماتت بعد أبي بثلاث سنوات... عرفت ذلك بعد وفاتها بأكثر من عام. وهذا غرس قدميّ أكثر فأكثر في باريس... صارت حياتي في سوريا مستحيلة... إلى مَنْ سأعود؟ إلى وليد الذي هجرته على ذلك النحو؟ إلى هدهد التي كنت أظن أنها تزوجت وصارت لها حياة أخرى؟ ولم يبقَ لي من حلم أتكئ عليه لأقوّي عزيمتي، سوى أنتِ.

أنت كنت المعادل البشري لحلمي الفني. كانت حياتي الحقيقية: المسرح وساره.

المسرح بين يديّ، أما ساره... فهي الجائزة الكبيرة التي أمنّي نفسي بالحصول عليها ذات يوم، إذ يكفيني أن أراها أمامي... فقط أن أراها، ولا أريد أكثر من هذا.

حين رأيتك أمامي، بعد ثلاثين سنة... ياه يا ساره... ثلاثون سنة!! كيف أشرح لك هذا؟

كنت أُظهرُ تماسكًا يعينني عليه مرضي، لئلا أظهر حبي المتدفق كشلال جارف صوبك... أنا ضعيفة تجاهك يا ساره.. كنت أخاف أن تكون ردة فعلكِ هجراني. آه كم كنت أخاف ذلك...

حين رأيتك أحببتك... أحببتك من قبل في مخيلتي، كما صنعتك، ولكن حين رأيتك، أحببتك حقًا، أحببتك أكثر.

كنت أتأملك وأنت ترتدين ملابسك، وأنت تخرجين من الحمام، وأنت تتناولين الطعام... أتأمل تفاصيلك، يديك، عنقك، شعرك، حركة فمك وأنت تسخرين من أمر ما... كنت مفتونة بك، صامتة عن تعبيري.

كان بمقدوري أن أنتقل للعيش معك في شقّة أوسع من هذه، ليكون لك غرفتك المستقلة. لدي مال، كما تعرفين الآن، يكفي لإيجار شقّة أنيقة في حيّ راقٍ، لكنني رغبت أن تنامي في الغرفة ذاتها، لأسمع أنفاسك في الليل، وأشم رائحتك قربي.

لم تكن المدة التي قضيناها معًا طويلة، ولا أعرف متى ستوافيني المنية، ولكنني حتى اللحظة، أشعر بقوة أنك ابنتي.

هل تصدقين أنني كنت أتلمّس بطني في الليل، كأنني أتفقّد رحمي؟ تحولت هذه الغرفة إلى رحم جديد، أحتضنك بداخله من دون أن تشعري... كنت تنامين على مقربة مني، أفيق لأتأملك، كأنني وضعتك للتو في الحياة. خلال هذه الفترة التي أمضيناها معًا في هذه الغرفة، ولدتك من جديد.

كم اكتشفت أنك تنتمين إليّ بالسلوك والروح.

أنت تشبهينني يا ساره... هذا ما يجب أن تعرفيه.

اكتشفت الكثير من التشابه بيننا، في ردود الفعل الغاضبة، في الهدوء، في التهكّم، في طريقة التفكير.

من الداخل أنت صورة قريبة منّي، بل حتى ملامحك... طار عقلي حين رأيتك أول مرة في المطار، كأنك أنا.

أنت وريثتي... أنت أمينة أيضًا... أنت البذرة التي تركتها، وقد رواها الآخرون عنّي، لكنها الآن ليست شجرة فقط، بل بستان... أنت بستان كبير ويانع... هل تفهمينني؟

أنت الآن شابة موفورة الصحة... تملكين المال وهذا البيت، وأشياء أخرى تركتها لكِ... انطلقي في حياتك الجديدة يا ساره، ولا تفكّري طويلًا بأهمية الماء الذي رُويت به حتى كبرت.

كانت اللحظة الأعظم في أيامي القليلة معكِ حين سمعتكِ تغنين في الحمّام... كان صوتكِ يعيدني إلى صبايَ... كنت أسمع في صوتكِ ذلك التراث الحلبيّ العظيم من فنّ الغناء... حين سمعتك تغنين، ارتجف قلبي من شدة الفرح والحب. اكتشفت فنانة جديدة تجهل قيمة نفسها.

لديك روح متطلعة، طموحة... أنت فنانة يا ساره... أنا مؤمنة بهذا. كنت أرى الشغف في عينيك وأنت تنظرين إلى صوري.

هذه هي وصيتي الآن... سأختم بها حديثي، ولا أعرف إن كان لدي ما أضيفه، إن لم أمت.

الآن أوصيك يا ساره بنفسك، بفنك. اضغطي على آلامك، كما

ضغطت أنا على جرح أمومتي المفتوح بعمق، وكوني أنتِ. كوني ساره التي تستحقين أن تكونيها. التفتي إلى نفسك. الفنّ هبة ننمّيها بالشجاعة وبالروح الحرّة القادرة، وحدها، على التحليق إلى الأعالي.. أحبك كثيرًا...

***

مترو باريس - حلب

يان الذي كان قد اتصل بي مرات عدة ولم أرد، ترك لي رسالة نصية على هاتفي أنه يحتاج مني إلى بعض المعلومات عن حلب، وسيكون ممتنًا لي إن وافقت أن نلتقي في مكتبة جورج بومبيدو، وأنه سيكون سعيدًا إن لحقت به إلى هناك، فهو مسافر غدًا إلى حلب.

رأيته يجلس في الساحة، على إحدى الدرجات قبالة المكتبة، تعرفت عليه من الأوصاف التي حدّدها لي في الهاتف: بنطال جينز أزرق ومعطف أسود طويل وقبعة سوداء، وحقيبة الحاسوب البنية، وشال أزرق قاتم يلفّ عنقه.

ما إن رآني حتى توجّه نحوي ومدّ يده قائلًا: يان.

- إذًا أنت ذاهب غدًا إلى حلب؟

- نعم، تغادر طائرتي إلى اسطنبول الساعة الحادية عشرة... ثم إلى غازي عنتاب، ومن هناك، ثمة أشخاص سيساعدونني للدخول إلى سوريا، عبر عفرين.

- لكن الحدود مغلقة..

- أعرف... سأدخل بطريقة غير شرعية، كما يفعل الصحافيون..

عندما جلسنا في المقهى المقابل، نظر إليّ مبتسمًا، ثم مرّر أصابعه

داخل خصلات شعره، وعبث قليلًا بتلك الخصلات كأنه يحرّك أفكاره، أو يدفع جملته المترددة صوب لسانه، ليقول ممعنًا النظر في عينيّ، فكأن سؤاله يهبط من عينيه، لا من شفتيه:

ـ أتأتين معي؟

كنت مأخوذة بنظرته، وفي تفحّص حركة أصابعه في شعره، وأنا شبه متيقّنة، أن هذا المشهد قد حدث من قبل. سكتُّ وأنا أنظر إليه، فراح يتحدّث بصوته الهادئ، الموحي لي بالأمان والثقة:

ـ فكّري في الأمر... ربما هو قرار سريع ولا يوجد أمامك الكثير من الوقت. لكنني أريدك معي، ستكونين دليلي هناك، لا لأنك تتحدثين اللغة فقط، بل لأنك امرأة. وجودك معي سيمنح العائلات الطمأنينة، وستتحدث أمامك النساء كما لن تفعلن معي حين أكون وحدي، والرجال أيضًا، سيرتاحون لوجودك معي... سنتقاسم العمل، تدوّنين معي شهادات النساء على الأخص، لن نقسّم العمل هكذا بجندرية، ولكننا سنتشارك... تدونين معي الشهادات الشفوية، ثم نعدّ تقاريرنا معًا.

كانت لحظة سحرية! كأنني في أرجوحة بيت جدتي... التفتُّ إلى يان فوجدته يتأملني. ابتسمت له وقلت:

ـ نعم... سأذهب معك.

بدا لي أن ثمة شيئًا غامضًا يربط بيننا... أنا وأمينة... لا يمكن تفسيره بالعقل، يأتي مع الكيمياء، ويصعب التغاضي عنه.

أنا امرأة جديدة الآن، أطلقتني أمينة من جديد في الحياة... أنجبتني مرتين: المرة الأولى في دمشق، ثم تركتني أمانة عند أبي، والمرة الثانية في باريس، حيث تركتني لي، تركتني أمانة في عنقي.

أحسّ بأنني أولد من جديد، وقد وجدت الجواب على السؤال الذي شغلني: أين أعيش، في حلب أو في باريس؟ لأختار العيشين معًا، لأتنقّل بين الضفتين، كأنني تمامًا أركب هذا المترو الباريسي الطويل، لأنزل منه في محطة حلب، وأعود من جديد، إلى باريس.

الإقامة والاستقرار في المكان ترف لا نمتلكه نحن أبناء الحرب. نسعى من محطة إلى محطة من هذه المنافي حاملين معنا محطتنا الأساسية. عليّ التنقّل من مترو باريس إلى محطة حلب، حيث تبقى حلب، طريقي في الذهاب والإياب، إلى أن تنتهي هذه الحرب، وأقرّر أين أستقرّ، في باريس، أو حلب.

لم أعد إلى البيت، ولم أذهب إلى سان ميشيل للبحث عن طارق. بل تابعت طريقي نحو مقبرة (بير لاشيز). اشتريت باقة ورد، وتوجّهت إلى المقبرة، بحثت عن قبر أمينة... وجلست أتحدّث إليها... ثم رحت أغنّي...

أحسست بضوء قويّ ينبثق من داخلي... كنت أطير وأنظر إلى باريس وحلب من علوّ.. تحيط بي أطياف أمينة وهدهد ووليد و...



